مطبوعات ورسائل العشيرة المحمدية

أصول الوصول

أدلة أهم معالم الصوفية الحقة

من صريح الكتاب وصحيح السنة

لفضيلة الأستاذ الإمام السيد

محمد زكي إبراهيم

رائد العشيرة المحمدية

رحمه الله تعالى رحمة واسعة

الجزء الأول

الطبعة الخامسة

سلسلة منشورات ورسائل
العشيرة المحمدية

أصول الوصول

أدلة أهم معالم الصوفية الحقة
من صريح الكتاب وصحيح السنة

بقلم
فضيلة الإمام الرائد/ **محمد زكي إبراهيم**
رائد العشيرة المحمدية
المتوفى (١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م)

قرأه واعتنى به
سعيد المندوه

الطبعة الخامسة
١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين حمدًا يليق بكماله وجلاله وعظيم سلطانه ، والصلاة والسلام على رسوله الكريم صلاة دائمة في العالمين .

أما بعد ،

فهذه طبعة محققة ومصححة ومرتبة من كتاب أصول الوصول للسيد الرائد/ **محمد زكي إبراهيم** رضي الله عنه وأرضاه وأسكنه فسيح جناته ، تُقدمها أمانة الدعوة بالعشيرة المحمدية بمناسبة الذكرى السابعة لرحيل الإمام الرائد ، سائلة الله تعالى أن ينفع بِها وأن يجعلها في ميزان حسناته ، فهو نعم المولى ونعم النصير .

أمانة الدعوة بالعشيرة المحمدية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الخامسة

إِنَّ الْحَمْدَ للهِ نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، مَنْ يَهْدِ اللهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء :١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران :١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب :٧٠-٧١].

أما بعد، فإن للعلماء واجبا علينا أن نجلهم ونوقرهم ونتأدب بين أيديهم، ومن كمال تبجيلهم أن ننشر علمهم بعد وفاتهم حتى يستفيد الأحياء من هذا العلم، ويكتب لهم الأجر في قبورهم إلى يوم الدين لانتفاع الناس بهذا العلم.

وقد شرفت بالعمل على نشر كتاب أصول الوصول للإمام الرائد محمد زكي إبراهيم رضي الله عنه، وأود قبل أن أتحدث عن هذا العمل أن أذكر قصتي معه فقد تأخر هذا اللقاء عشرين عاما، ففي البداية كنت أقرأ في مجلة المسلم، ثم سمعت بعد ذلك أن للشيخ محمد زكي إبراهيم رحمه الله أسانيد في

الحديث والعلوم الشرعية ، وقد كنت مشغولا آنذاك بجمع الإجازات العلمية ابتغاء أن يجمعني سند واحد مع حضرة المصطفىﷺ أولا ، لأن السند من خصائص هذه الأمة المحمدية ، وابتغاء التعلم ثانيا ، ثم التماس البركة ودعاء المشايخ ثالثا ، وطلبت من أحد الأصدقاء أن يأخذني إلى الشيخ رحمه الله ، ولكنه شغل مرة وشغلت أنا الآخر مرة أخرىٰ ، ثم طلبت منه مرة ثانية فأخبرني أن الشيخ مريض وظروفه لا تسمح بذلك ، وبعد ذلك رحل الشيخ رحمه الله ورحل معه الأمل في لقائه ، ثم شاء الله بعد ذلك وتشرفت بلقاء الدكتور محمد مهنا - متعه الله بالصحة والعافية - الذي أبدىٰ لي رغبته في أن أقوم بتصحيح بعض رسائل الشيخ رحمه الله ، ثم وقع الاختيار بعد ذلك علىٰ كتاب أصول الوصول للسيد الرائد رحمه الله ، وكنت في البداية أظنه رسالة صغيرة فإذا به كتاب كبير ، سلك فيه الشيخ رحمه الله طريقة الفقهاء والمحدثين في التصنيف حيث يذكر الحكم الشرعي ومعه الدليل من الكتاب أو السنة أو غيرهما كما هو مقرر في علم أصول الفقه ، مع فهم دقيق للمسائل الشرعية ، وأدب رفيع في رده على المخالفين ، وخلق عالٍ في تعليمه للمريدين ، وبصيرة نيرة في الدعوة إلىٰ الله حيث يطبق قوله تعالىٰ ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف :١٠٨] .

وهذه الطريقة في التصنيف هي طريقة العلماء السابقين ممن كتب لهم القبول لدي جميع الطوائف حتى المخالفين لهم ، ومن أشهر هؤلاء العلماء الإمام النووي رحمه الله ، والحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله ، وغيرهم الكثير .

ولما تسلمت الكتاب قرأته عدة مرات لأتعرف على المؤلف رحمه الله، والموضوعات التي يعالجها، وكيفية معالجتها، فوجدت الكتاب ينم عن علم غزير إلا أني وجدت أمورا لم تَرُق لي منها: كثرة الأخطاء المطبعية - حيث إن الطبعات السابقة قد طبعت في ظروف خاصة لم يتمكن القائمون عليها بتصحيحها - وكان الكتاب في حاجة إلى إعادة التبويب أيضا، مما جعلني أسلك المنهج الذي يخدم الكتاب وتمثل في الآتي:

أ- قمت بتبويب الكتاب موضوعيا، حيث جمعت الأبحاث المختلفة في الموضوع الواحد مع بعضها حتى يتضح علم الشيخ رحمه الله الذي يتناسب مع جلالة قدره وسعة علمه، وحتى ينتفع بهذا العلم كما جاء في الحديث الشريف في صحيح مسلم (١٦٣١/ ١٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاثَةٍ إِلاَّ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**». والشيخ رحمه الله قد ترك هذه الأشياء الثلاثة، فقد ترك الصدقة الجارية ممثلة في العشيرة المحمدية التي قام بتأسيسها، والعلم الذي ينتفع به الناس، والولد الصالح الذي يدعو له، بالإضافة إلى الكثير من المريدين والمحبين الذين ملأوا الأرض علما وفضلا، وقد رتبته كالآتي:

١- الذكر والأوراد. ٢- الخلوة.

٣- أهم النوافل عند الصوفية. ٤- اتخاذ الشيخ شريعة وطبيعة.

٥- أهل الله والعارفون والأولياء والأقطاب.

٦- قصة الخضر وموسى .　　　٧- الكرامات .

٨- البركة .

٩- مشروعية قراءة الفاتحة للأحياء والأموات .

١٠- الشرك والكفر والصلاة في المقابر .

١١- الوسيلة والتوسل .

١٢- المدح والبردة ودلائل الخيرات .

١٣- الإنشاد الصوفي .　　　١٤- المواكب الصوفية .

١٥- الموالد الصوفية .　　　١٦- مع السادة الشاذلية .

١٧- حكم تقبيل الأيدي وغيرها في شرع الله .

١٨- اتخاذ السبحة .　　　١٩- حكمة تعدد الطرق .

٢٠- من هم أهل السنة .　　　٢١- حول عبادة الرغبة والرهبة .

٢٢- آراء العلماء السابقين والمعاصرين في التصوف .

٢٣- الحديث الضعيف وموقف الصوفية منه .

٢٤- معلومات مبدئية عن الطريقة المحمدية .

٢٥- من كلام فضيلة الإمام الرائد رضي الله عنه .

ب- قمت بأعمال التحقيق والتصحيح المعتادة ، وتمثل ذلك في عزو الآيات

إلى المصحف الشريف مع تشكيلها ، وتخريج الأحاديث الشريفة من مصادرها مع ضبطها أيضا قدر الإمكان ، وتصحيح الأخطاء المطبعية واللغوية التي وقعت في الطبعات السابقة .

وفي النهاية لا يفوتني أن أشكر شباب أمانة الدعوة بالعشيرة المحمدية على كل ما بذلوه من جهد في سبيل إخراج هذا العمل على الوجه الْـمُرْضِي إن شاء الله ، وأخص بالذكر صديقي الأخ محمد حسن الذي قام بمقابلة الكتاب معي وبعض الأعمال المساعدة .

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه ومتقبلا ، وأن يجعله في ميزان حسنات السيد الرائد ﵁ ، وأن يجمعنا بحضرة المصطفى ﷺ وأوليائه الصالحين في مستقر رحمته ، فهو وحده المسئول ، والقبول لديه مأمول .

كتبه

سعيد المندوه

القاهرة في يوم الجمعة

٢٦ ربيع الآخر ١٤٢٦

الموافق ٣/ ٦/ ٢٠٠٥ م

مقدمة السيد الرائد رضي الله عنه

باسم الله حامدًا مصليًا داعيًا

مقدمة بالغة الأهمية

وبعد، فاستجابة لرغبات غير محدودة تلقيناها، وقيامًا بفرضية البيان ودفعًا للهجوم الموروث الْـمُؤَرَّثِ على السادة الصوفية وأهل الذكر- أهل الله – استخرنا الله في إصدار هذه الرسالة كمرجع قريب للصوفية الأبرار من صريح الكتاب وصحيح السنة.

ولقد تعمدنا - غالبًا- ألا نلجأ في استدلالاتنا إلى كلام السادة ومنطقهم الذوقي ما دمنا نخاطب - في الدرجة الأولى - إخواننا الذين ينكرون علينا ما نعاني من العبادة وما نمارس من أساليب الذكر، ويتهموننا مرةً بالتخريف، ومرة بالتبديع، وأخرى بالشرك، وثالثة بالكفر والزندقة والوثنية والفسوق والعصيان - في سطحية وسذاجة وجرأة ومجازفة ليس بينها وبين الاحتياط العلمي ولا الخط الأخلاقي أي نسبٍ - مع الأسف الشديد، فلعلها هي الحماقة بعينها إن لم تكن شيئًا آخر أعمى منها للعقل والقلب جميعًا.

وهل ترى في الوجود كله أحمق من رجل عرف شيئًا وغابت عنه أشياء، ثم يجلس في مجلس الحاكم بأمره يوزع مراسيم الزندقة والتبديع والإكفار والشرك والتفسيق والخرافة، كأنه وصيٌّ على الله، متخذًا من جهله حجةً على علم الناس، يجعل الجنة إقطاعًا خاصًّا به وبمن معه، لا يدخلها إلا من كان مظهرُهُ مظهرَهُ، ومحضرُهُ محضرَهُ، ومخبرُهُ مخبرَهُ.

إن هؤلاء الإخوة – غفر الله لهم – يزعمون أنهم ورثوا علم السنة وحدهم، ولا أحد غيرهم، ولو راجعوا الواقع لوجدوا أن أهل السنة بحقٍّ ليسوا غير الصوفية الصادقين، وأن رجال علم الحديث الذين يتلقطون فتات موائدهم ما منهم من رجل إلا وهو صوفي أو تلميذ لأستاذ صوفي أو في سنده إمام صوفي، أو من أصحاب الفضل عليه داعية صوفي لا محالة.

ولقد تركنا الحديث هنا عن المقامات الأخلاقية التي هي الركن الأول في التصوف مع العبادة، وكذلك المقامات الروحية التي هي ثمرة التعبد والأخلاق، فقد سبق إلى تفصيل ذلك ساداتنا من السلف كالإمام الهروي الصوفي، والشيخ ابن القيم السلفي شارح الهروي، والعلاَّمة ابن زروق الشاذلي، والإمام القشيري، والسهروردي، والمكي، والغزالي، والشعراني وغيرهم وغيرهم.

أما التصوف الجدلي القائم على التمنطق والفلسفة – وما هو منها – مما ينسب إلى أمثال الحلاَّج، والبسطامي، وابن عربي، والجيلي ونحوهم فقد أصبح جثة محنطة لا وجود له في حياة الصوفية إلا بمقدار العلم الخاص والبحث الأخص والتاريخ، وقد انتهى برجاله، فالحديث عنه حرث في الماء وكتابة على الهواء لأغراض قد تكون مشبوهة، أو هي كذلك في أكثر الأحيان.

أما موقفنا من هذا التصوف الجدلي فهو حسن الظن بالناس، فليس من أحد يجتهد ليدخل النار، أو ليكشف عورته عبر تواريخ المعرفة وتلاحق الأجيال.

ولهذا إن وجدنا لكلامهم تفسيرًا أو تأويلاً علميًّا مقبولاً أخذنا به لعلمنا بالتزامهم الرمز والإشارة وعمق العبارة، وإنْ ترجح عندنا أنه مدسوس عليهم - كما دُسَّ على المحدثين والفقهاء والمفسرين - قلنا بذلك ابتغاء وجه الله، وإلا توقفنا وفوضنا الأمر لعالم السر والنجوىٰ حفاظًا علىٰ وحدة الأمة، وعدم شغلها بما يضر ولا ينفع، ومن حولها أهوال وأحداث مَنْ لم يهتم بِها أَثِمَ إثْمًا موبقًا لا يُجدي معه اعتذار.

إن أصحاب التصوف الجدلي قد أفضَوْا إلىٰ ما قدموا، فالهجوم عليهم والاستئساد علىٰ رِمَمِهم - وهم لا يملكون الدفع عن أنفسهم - نوع من الجبن العلمي أو الهستيريا الثقافية، أو العمالة للمذاهب الرامية إلى التسلط والهيمنة على المسلمين باسم الدين.

اللهم غفرانك، وإليك المصير.

محمد زكي إبراهيم

تنبيهات تمهيدية

تنبيهات تمهيدية

أولًا : قال الإمام النووي : ينبغي لمن بلغه شيء من فضائل الأعمال - يعني السنن النبوية عادية كانت أو عبادية - أن يعمل به ولو مرة واحدة ليكون من أهله ، ولا ينبغي أن يتركه مطلقًا ، بل يأتي بما تيسر منه لقوله ﷺ في الحديث المتفق عليه «**إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**»[١] . انتهى .

ثانيًا : وقال الإمام النووي : قال العلماءُ من المحدّثين والفقهاء وغيرهم : يجوز ويُستحبُّ العمل في الفضائل والترغيب والترهيب - أي في كل ما عدا العقائد والأحكام - بالحديث الضعيف ما لم يكن موضوعًا[٢] . يعني مكذوبًا . انتهى .

قلنا : وبهذا أخذ الحافظ ابن الصلاح ، وهو ما جاء عن أئمة الحديث من السلف كالثوري ، وابن حنبل ، وابن عيينة ، وابن المبارك ، وابن مهدي ، وابن معين .

وقد بوب لذلك ابن عدي في الكامل ، والخطيب في الكفاية[٣] وغيرهم .

---

(١) راجع الأذكار للنووي (١/ ١٩) والحديث أخرجه البخاري (٧٢٨٨) ، ومسلم (١٣٣٧/ ٤١٢) .

(٢) راجع الأذكار للنووي (١/ ١٩) .

(٣) راجعه في الكفاية تحت باب التشدد في أحاديث الأحكام والتجوز في فضائل الأعمال (ص ١٣٣-١٣٤) ونقل فيه قول الإمام أحمد : إذا روينا عن رسول الله ﷺ في الحلال والحرام والسنن والأحكام تشددنا في الأسانيد ، وإذا روينا عن النبي ﷺ في فضائل الأعمال وما لا يضع حكمًا ولا يرفعه تساهلنا في الأسانيد .

قلنا : وهاتان قاعدتان علميتان أصوليتان جليلتان كررناهما لأنه ينبغي استيعابُهما تمامًا ، واستحضارهما دائمًا ، فالحاجة إليهما موصولة ، وإنني وإنْ كنت قد لاحظت - طوق جهدي - ألا أذكر هنا إلا الحديث الصحيح لذاته أو لغيره ، أو الحسن لذاته أو لغيره إلا أنه قد يستوجب المقام التنبيه منعًا من التعالم .

ولنا بحث متكامل في أحكام الحديث الضعيف[١] نرجو مراجعته لمن شاء أن يستقيم ، إذ الحديث الضعيف حديث لم تتم فيه كل أركان الصحة ، أي أن فيه نصيبًا من الصحة ، فهو غير المكذوب الذي لا صحة فيه .

ثالثًا : عندما نقدم هنا دراسة عن الذكر نكون قد أسقطنا من اعتبارنا هذه المبتدعات والمناكر والشعوذات والخزعبلات التي يسميها المخرقون باسم الذكر ظلمًا وعدوانًا ، فإننا نريد ذكر أهل العلم والأدب ، لا ذكر أهل الجهل والخرافة ، مهما ظاهروا وكاثروا وفاخروا ، فالحلال بيِّنٌ والحرام بيِّنٌ .

(١) سيأتي بعد ذلك .

قضية الخلافات المذهبية

أهل القبلة جميعا إخواننا ﴿وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المؤمنون :٥٢] فلا خصومة أبدًا بيننا وبين أي مذهب من مذاهب **(أهل لا إله إلا الله)** سواء كانوا أحنافا ، أو مالكية ، أو شافعيين ، أو حنابلة ، أو زيديين ، أو إمامية ، أو ظاهرية ، أو إباضيين ، أو غيرهم ، فإن الاختلاف في الفروع ضرورة طبيعية ، ويستحيل استحالة مادية جمع الناس على مذهب واحد ، أو رأي واحد ، في مسائل ظنية هي موضع نظر واجتهاد .

وما دام مرجع الجميع كتاب الله وسنة رسوله ، والخلاف على الفرعيات إنما هو في الفهم والتوجيه والترجيح وطلب الحق ، فلا خصومة قط .

وقد اختلف الصحابة والنبيﷺ معهم في : مثل صلاة العصر في قريظة ، ومصير أسرىٰ بدر .

واختلفوا من بعده في مثل مسائل العول والكلالة ، وعدة الحامل المتوفىٰ عنها زوجها ، وسكنى المبتوتة ، وزواج المتعة ، والطلاق الثلاث بلفظ واحد ، وقراءة المئتم ، ورفع اليد قبل وبعد الركوع ، والجهر بالبسملة ، بل اختلفوا في صورة حركة الأصبع في التشهد . . . إلخ .

واحترم كبار أئمة المذاهب آراء بعضهم ، بل قلد بعضهم بعضا أحياء وموتىٰ : فصلى الإمام الشافعي عند قبر أبي حنيفة بمذهب أبي حنيفة أدبا مع روحه الشريف .

وقلد أبو يوسف الإمام مالكا ، وقرظ الشافعي الليث بن سعد .

وقرظ أبو حنيفة سفيان الثوري والأوزاعي ، بل صلى الإمام ابن حنبل خلف بعض أئمة القدرية .

وهكذا لا يعرف عن كبار الأئمة من طعن أخاه أو انتقصه ، إذ ليس في الدنيا مذهب كله خطأ أو كله صواب .

وهذا إمامنا الشافعي وقد وضع مذهبه القديم بالعراق في ظروف وأحوال خاصة ، فلما جاء إلى مصر وواجه ظروفا وأحوالا أخرى وضع مذهبه الجديد ، كلاهما من الكتاب والسنة ، وكلاهما صواب في موضعه ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج : ٧٨] .

وهذا هو الإمام مالك لم يقبل من الخليفة العباسي أن يحمل الناس على كتابه الموطأ ، وبين له أن بعض الصحابة سمع ما لم يسمع الآخر ، أو علم ما لا يعلم غيره فنشر ما علم ، وكل منهم على حق . ومن ثم اختلفت الوجوه في المسألة الواحدة .

ونحن مع إمامنا جعفر الصادق في قاعدته العلمية : حسبنا من المسلم ما يكون به مسلما .

فالخلاف على الفروع طبيعة وشريعة كانت وستبقى مادام هناك اختلاف في العقول والتحصيل والفهوم والبيئات والوراثات وغيرها ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود : ١١٨ - ١١٩] .

والإنسان مكلف شرعا بالعمل بما وصل إليه اجتهاده ، واستقر عنده نظره ، وحسبه الدليل الظني عند أهل العلم ، ويكون هذا هو حكم الله في حقه وحق من قلّده حتى يتبين له خطأ ما ذهب إليه . وعلى هذا الأساس ننظر إلى مذاهب المسلمين فنقرب ما بينها ، ونربطها جميعا برباط لا فتنة فيه ، ولا تفرقة ولا ضلال إن شاء الله ، وندعو للمتعنتين والمتعصبين والمبتلين بضحالة العلم وضيق الأفق .

ذكر الله عز وجل

ذكر الله عز وجل

١ - مع ذكر الله تعالى:

في الحديث عَنْ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَهُ فَقَالَ: أَيُّ الْجِهَادِ أَعْظَمُ أَجْرًا؟ قَالَ: «**أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذِكْرًا**». قَالَ: فَأَيُّ الصَّائِمِينَ أَعْظَمُ أَجْرًا؟ قَالَ: «**أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذِكْرًا**». ثُمَّ ذَكَرَ لَنَا الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ وَالْحَجَّ وَالصَّدَقَةَ كُلُّ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذِكْرًا**»(١).

وعنه أيضا في فضل (**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**) فقال عمر: إذًا نَسْتَكْثِرَ يا رَسُولَ اللَّه. فقال رسول الله ﷺ: «**اللَّهُ أَكْثَرُ وَأَطْيَبُ**»(٢).

يمتاز المسلم الصوفي بأنه من أهل الذكر يحاول ذلك ويداوم عليه.

وبرغم أن التصوف (**خلق وعبادة وعمل ودعوة**) إلا أن صفة الذكر غلبت عليه حتى عرف بِها وعرفت به، إذ التصوف الحق حضور ومراقبة وشهود، وتسامٍ روحي، فلا يكون مع الغفلة أبدا ذاكرا بقلبه ولسانه، وبنظره وبفكره وبكل حركاته وسكناته فكل سلوكه الدنيوي كالديني عبادة ظهرت أم خفيت، فهو بكل ما يصدر منه من قول أو عمل عابد - حتى المتعة - يريد وجه الله ليس إلا.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٨).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٠/ ١٨٣، رقم ٣٩٧) والحديث بتمامه: عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه عن رسول الله قال: «**من قرأ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ عشر مرات بنى الله له بيتا في الجنة**» فقال عمر بن الخطاب: إذا نستكثر يا رسول الله. فقال رسول الله: «**اللَّهُ أَكْثَرُ وَأَطْيَبُ**».

٢ - من فضل الذكر:

وقد قال تعالىٰ ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة:١٥٢] قال السادة: لو لم يكن في القرآن من الحث على الذكر وبيان فضله إلا هذه الآية لكفت وأوفت، وقال تعالىٰ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلاً﴾ [الأحزاب: ٤١ - ٤٢] فطلب الذكر بكثرة غير محددة بعدد ولا وقت ولا كيفية، وليس هذا شأن بقية العبادات فكلها محددة مؤقتة مما يدل على فضل الذكر وامتيازه.

وقد مدح الله تعالىٰ أولي الألباب بأنهم ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [آل عمران:١٩١] فكان معنىٰ هذا أن الذين لا يفعلون ذلك الذكر والفكر لا يكونون من أولي الألباب.

وروي الترمذي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ: سُئِلَ النبيُّ ﷺ أَيُّ الْعِبَادِ أَفْضَلُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «**الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ**». قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمِنَ الْغَازِي فِي سَبِيلِ اللهِ؟ قَالَ: «**لَوْ ضَرَبَ بِسَيْفِهِ فِي الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يَنْكَسِرَ، وَيَخْتَضِبَ دَمًا لَكَانَ الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا أَفْضَلَ مِنْهُ دَرَجَةً**»(١).

وروىٰ الطبراني بسند صحيح عن جابر قال ﷺ: «**ما عمل امرؤ عملا**

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٧٦) وقال: حَدِيثٌ غَرِيبٌ.

وقال السيد الرائد ﷺ في تعليقه علىٰ ذلك: وهذا الفضل يكون للذاكر في حالة غفلة المجاهد عن الله بما يشغله من أمر الدنيا والمال والولد أو بما يشغله من حب الشهرة والصيت بالشجاعة، فلا يتساوىٰ مع المجاهد الفاني في الله، فلا يخطر علىٰ باله سواه، فلا يتساوىٰ مع الذاكر الذي قعد عن الجهاد مضطرا، ولا مع الذاكر الذي يقوم برسالة الأمر والنهي والفقه، ولا مع الذاكر الذي يقوم بوظيفة التوعية والتعبئة وحفظ هيكل الدولة، ولا مع الذاكر القائم علىٰ ما لا بد منه للأمة من شئون الاقتصاد والأمن والقضاء والتجارة والتكافل... إلخ.

أنجىٰ له من عذاب الله مِنْ ذِكْرِ الله» قيل : «ولا الجهاد فِي سَبِيلِ الله؟» قال : «ولا الجهاد فِي سَبِيلِ الله إلا أن يضرب بسيفه حتىٰ ينقطع»[(١)] .

وروىٰ الترمذي وابن ماجه وصححه الحاكم عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قالﷺ : **«أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ**[(٢)] **وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ»**. قَالُوا : بَلَىٰ . قَالَ **«ذِكْرُ اللهِ تَعَالَىٰ»**[(٣)] .

ومن أجل كل ذلك جاء قول السادة : الذكر مع الغفلة خير من الغفلة عن الذكر

٣- تعليل فضل الذكر:

والمراد بذلك هو الذكر المستوفي شروطه الظاهرة والباطنة ، والذي ينقل صاحبه إلىٰ رتبة ولاية الله الحق ، فهو مع الله أبدا ، لتحققه بذكره قلبا ولسانا ونظرا وفكرا ، فالذاكر لا يقع على الممنوع ، ولا يدع شيئا من المشروع ، فهو صمام أمان ، وصوت للرحمن ، وإنقاذ للإنسان ، ودعوة مجسدة إلىٰ معالي الأمور ، وقدوة محسوسة في التسامي المطلق بالبشرية ، وبمثله يغاث الناس وينزل المدد .

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣/ ٥) والصغير (١/ ١٣٨) .

(٢) أي الفضة .

(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٧٧) وابن ماجه (٣٧٩٠) والحاكم (١/ ٦٧٣) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

قال الإمام ابن بطال في شرح البخاري ، وأقره الحافظ ابن حجر : هذه الفضائل الواردة في فضل الذكر ، إنما هي لأهل الشرف في الدين والكمال ، كالطهارة من الحرام ، والمعاصي العظام ، فلا تظن أن من أدمن الذكر ، وأصر على ما شاء من شهواته ، وانتهك دين الله وحرماته أنه يلتحق بالمطهرين المقدسين ، ويبلغ منازلهم بكلام أجراه على لسانه ليس معه تقوى ولا عمل صالح(١) اهـ . فيلاحظ ذلك .

وقد يستطيع أي إنسان أن يحمل سلاح الحرب والمقاتلة ، ولكن لا يستطيع كل إنسان أن يحمل سلاح الدعوة والخدمة ، وهو سلاح ذكر الله على أعلى المستويات وأسمى المعاني ، وهكذا ينكشف أن الذكر هو روح الحياة ، وسر الإنسانية ، وأن للذاكر مزيد فضل ومزية ، فاستحق أن يكون هذا الذاكر الذي يعم نفعه الدنيا من حيث إنه يؤدي عمل الدنيا بنية الآخرة ، أفضل من المجاهد الذي قد لا يعود فضل جهاده إلا عليه وحده ، وخير الناس أنفعهم للناس ، إن الذاكر الحق إنسان متكامل يحمل إلى الناس عبق النبوة وريحها الإلهي ، ولذلك جاء في البخاري قوله ﷺ : **«مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْـمَيِّتِ»**(٢) .

وفي الترمذي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرٍ : أَنَّ رَجُلًا قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ شَرَائِعَ الإِسْلاَمِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ . قَالَ ﷺ : **«لاَ يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ»**(٣) .

---

(١) راجع «فتح الباري» (١٣/ ٥٤١) .
(٢) أخرجه البخاري (٦٤٠٧) عَنْ أَبِي مُوسَىٰ .
(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٧٥) وقال : حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ .

فالذاكر أبدا في مقام الأنس والمراقبة والورع قدوة خير قدوة، ذاكر ومذكر، فهو لا يقع على خسيسة، ولا يتخلف عن مكرمة، فهو المسلم النموذجي الداعي إلى الله بسلوكه وعمله .

٤ - تجارب الصوفية :

وقد دخل الصوفية الراشدون على الله من باب الذكر، فأفادوا الدين والدنيا ونجحت تجاربهم إلى درجة اليقين القطعي عندهم، وقد أصابوا ويصيبون من أسرار القدس الأعلى وأنواره ما لا طاقة لكاتب بوصفه أو تفصيله، وكانت تجاربُهم في هداية الناس أنجح ما عرف الناس، وستظل كذلك بإذن الله .

والذكر يورث الذاكر أدبا وفضلا وتذوقا ورقة، وأمانة وسماحة ونورانية، وإذا تحقق الذاكر بذكره، وانعكست أنواره على سلوكه، وسر ذاته أصبح ربانيا، يفيض عطفا وعاطفة، وتفقها وبرًّا بالناس . وما رأينا أحدا تجافي الذكر - عالما كان أم جاهلا - إلا كانت فيه غلظة وخشونة وجفاف وجفاء، وجاهلية خلقية تنعكس على ذاته بثقل الظل وعلى تصرفاته بالشذوذ والْخَطَل[1] والبهيمية والوحشية .

٥ - حلقات الذكر الجماعية وبعض المعانى :

كانت حلقات الذكر في جماعة موجودة مكررة فعلا على عهد سيدنا رسول الله ﷺ وقد رآها ﷺ واشترك فيها، وَبَشَّرَ أهلها، وحث على ارتيادها حَثًّا ما عليه من مزيد .

---

(١) قال ابن الأثر في النهاية : الخَطَل : المَنْطقُ الفاسد .

وكل ما جاء في كتب الأحاديث الصحيحة وغيرها من ذكر لفظ (**حِلَق أو حلقات الذكر**) يفيد لغة وعقلا معنى التجمع والمشاركة، كما ستري في الأحاديث الآتية[١] فالإسلام دين التجمع والتكتل والتكافل والتعاون .

وإذا أُطْلِقَ لفظُ الذكر من غير مُخَصِّصٍ ملحوظ أو ملفوظ فقد أريد به كل ما ذُكِرَ اللَّهُ تعالىٰ فيه أو به، سواء كان صلاة أو علما، أو قرآنا، أو تسبيحا، أو تحميدا، أو تَهليلا، أو تكبيرا، فأيما شيء من ذلك فهو مشمول بعموم النص ومستحق للثواب، حتى الفكر فهو ذكر قلبي مأثور مادام بشروطه .

ولكن الذكر هنا مُخَصَّصٌ بمعنى التهليل والتكبير والتسبيح والتحميد والتفريد والتمجيد، وما هو منه بالتصريح والقرينة .

قال الإمام النووي : اعلم أنه كما يستحب الذكر يستحب الجلوس في حِلَقِ أهله، وقد تظاهرت الأدلة علىٰ ذلك، ويكفي في ذلك حديث ابن عمر قالﷺ : «**إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا**» . **قالوا : وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ** «**حِلَقُ الذِّكْرِ**»[٢] . ولا تكون الحلقة إلا من جماعة .

قلنا : وفي صحيح مسلم عن معاوية قال : **خَرَجَ رسول اللَّه ﷺ عَلَىٰ حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ : «مَا أَجْلَسَكُمْ؟» . قَالُوا : جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ تعالىٰ**

---

(١) راجع رسالة الإمام السيوطي نتائج الفكر في الجهر بالذكر، وهي ضمن كتابه الحاوي للفتاوي .

(٢) أخرجه الترمذي (٣٨٥٢) من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ وقال : حَسَنٌ غَرِيبٌ .

وَنَحْمَدُهُ عَلَىٰ مَا هَدَانَا لِلإِسْلاَمِ وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا . قالﷺ : آللَّهِ- يعني و الله - مَا أَجْلَسَكُمْ إِلاَّ ذَاكَ؟» . وكررها في رواية ، ثم قال : أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللَّهَ تعالىٰ يُبَاهِي بِكُمُ الْـمَلائِكَةَ»[(١)] .

وفي أبي داود عنه ﷺ قال : «لأَنْ أَقْعُدَ مَعَ قَوْمٍ يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَعَالَىٰ مِنْ صَلاَةِ الْغَدَاةِ حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُعْتِقَ أَرْبَعَةً مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ ، وَلأَنْ أَقْعُدَ مَعَ قَوْمٍ يَذْكُرُونَ اللَّهَ مِنْ صَلاَةِ الْعَصْرِ إِلَىٰ أَنْ تَغْرُبَ الشَّمْسُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُعْتِقَ رَقَبَةً»[(٢)] .

وفي مسلم أيضا عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ : «لاَ يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ تعالىٰ إِلاَّ حَفَّتْهُمُ الْـمَلائِكَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»[(٣)] . أي في الملأ الأعلىٰ .

وحديث الصحيحين الطويل عن الملائكة السياحين ، الذين يلتمسون مَجَالِسَ الذِّكْرِ حديث مشهور ، وفيه : إن اللَّه يغفر لهؤلاء الذين يسبحونه ويمجدونه ، يبتغون جنته ، ويخافون عذابه ويغفر أيضا لمن جلس معهم ، أولئك الْقَوْمُ ، لاَ يَشْقَىٰ لَهُمْ جَلِيسٌ[(٤)] وإن لم يكن منهم أو كان قد جاء لشأن خاص غير الذكر .

---

(١) راجع الأذكار (١/ ٢٠) والحديث أخرجه مسلم (٢٧٠١/ ٤٠) .

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٦٧) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ .

وقال السيد الرائد ﷺ : وبهذا أخذت الطريقة المحمدية والتيجانية جعل ورد يوم الجمعة ما بين العصر والمغرب جماعة أو على انفراد .

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٠٠/ ٣٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ معا .

(٤) أخرجه البخاري (٦٤٠٨) ومسلم (٢٦٨٩/ ٢٥) .

وفي الصحيحين : «**يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَىٰ أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، وَأَنَا مَعَهُ مَا ذَكَرَنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ – يعني جماعة من الناس – ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ**»(١) . أي جماعة من الملائكة .

وروىٰ أحمد عَنْ عَبْدِ اللَّه بْنِ عَمْرٍو قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّه مَا غَنِيمَةُ مَجَالِسِ الذِّكْرِ؟ قالﷺ : «**غَنِيمَةُ مَجَالِسِ الذِّكْرِ الْجَنَّةُ**»(٢) .

وقد ثبت أن النبيﷺ خرج إلى المسجد فوجد حلقة علم وحلقة ذكر ، فنظر إليهما راضيا عنهما وقال (**في كل خير**) وإن كانﷺ قد جلس إلىٰ حلقة العلم ، فذلك لبيان أن العلم هو الأصل ، وأن الذكر بلا علم جهل وغفلة قد تفضي إلىٰ موبقة ، ثم لأن أهل الذكر قد نضجوا فاطمأن عليهم ، وأمكن لهم الاعتماد علىٰ أنفسهم بعد أن وصلوا إلىٰ ثمرة العلم ، فتأمل .

٦- بين العلم والذكر والصلاة :

الآيات التي ذكرناها في أول هذا البحث نص في أن المراد بالذكر عبارات التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير ، والدعاء بالأسماء الحسنى التي أمرنا الله بالتعبد بِها ، والتوجه إليه تعالىٰ بما ورد علىٰ لسان رسول اللهﷺ من الأدعية ، وما جرىٰ علىٰ لسان أحبابه من الابتهالات حتىٰ قال الفراء وابن قتيبة والجمهور في تفسير قوله تعالىٰ ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت :٤٥] هو التسبيح والتهليل أي ونحوه .

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥/ ٢) .
(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٧) .

ويؤيد هذه الآيات ما سقناه بعدها من أحاديث في أعلى درجات الصحة لا سبيل معها إلى التأويل الذي يلجأ إليه خصوم الصوفية بلا دليل .

قال ابن حجر في شرح المشكاة : من قال إن مجالس الذكر هي مجالس الحرام والحلال - يعني العلم - أراد التنصيص على أخص أنواعه - أي فهو شامل لمجالس الدعاء والتفريد ، والتسبيح والتحميد - قلنا وأكثر ما ورد بلفظ الذكر إنما هو نص في هذه المجالس التعبدية بالذات على ما تفيده مفاهيم هذه النصوص ومضامينها وسياقها ومناسباتِها ، فضلا عن صريح قولهﷺ : «**من قال كذا كان له كذا**» .

ومن قال بأن المراد بالذكر هو الصلاة وحدها فقد تعسف ، فإن الله قد فصل بينهما ، إذ جمعها في آية واحدة فقال ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء : ١٠٣] .

وفي بيانه تعالى لأحوال الذكر في هذه الآية نص على أن الذكر هنا ليس هو الصلاة ، وليس هو العلم ، ولكنه التعبد بالأسماء والصيغ على سبيل اليقين .

٧- أنواع الذكر وآدابه :

والذكر في رتبته العامة نوعان : ذكر لساني ، وذكر قلبي ، وقد نقل ابن جرير ، والطبري ، والرازي وغيرهم اختلاف السلف في أفضلية أحدهما على الآخر ، وعندنا أن الجمع بينهما هو الأمثل كما أشار إليه القاضي عياض ، وطائفة من السلف والخلف إذ إن لكل منهما أهل ، ولكل منهما سر ومزية لا ينبغي أن تفوت المقبل على الله .

ومن ذكر القلب واللسان يتدرج السالك إلى ذكر الروح ، وذكر السر

الذي يتحول الإنسان به إلى ذكر مجسم مجسد، فيندمج أو يدنو من أعلى مقامات أهل الله .

وقد بين الله نوعي الذكر، وصورتيه العامتين ووقتيه المفضلين في الإصباح والأماسي فقال ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ [الأعراف : ٢٠٥] فذكر النفس في الآية، هو الذكر القلبي، وذكر دون الجهر فيها أي ما بين الجهر والمخافتة هو الذكر اللساني، وهذا أدبه واضح في الآية، وفي قوله تعالى ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء : ١١٠] .

وإنما يرفع هذا الحكم - حكم التوسط الصوتي بين الجهر والمخافتة - عن المرء فيما لو غاب عن نفسه، وغلبه حاله فله أن يرفع من صوته ما شاء، أما وهو يملك حسه، ويدرك نفسه فهو مسئول وملزم بذلك، وبقوله تعالى ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل :٨] والتبتل غاية الأدب والحضور ولقوله ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال :٢] وبقوله ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر : ٢٣] .

ونقل النووي الإجماع على جواز الذكر بالقلب واللسان للطاهر والمحدث والجنب، والحائض والنفساء، فيما عدا قراءة القرآن، ففيها تفصيل معروف في كتب الفقه .

ولكن الواجب عند الصوفية : أن يتهيأ السالك للذكر بالطهارة الظاهرية بالوضوء إن أمكن مع الطهارة الباطنية بالتوبة، والاستغفار، ثم

يتعطر ويتسوك إن أمكن ويلبس البياض، ويفرغ النفس، ويستقبل القبلة، ويستحضر الهمة، ويفتح القلب، ويُخلص النية، ويخشع ويلزم منتهى التواضع والأدب، كما يتعين عندهم ضرورة صحة النطق، وفهم معنى الذكر ولو إجمالا بوجه من الوجوه الصحيحة، وإلا فإنه لا ينتفع بذكره كما يجب فقد ثبت في الحديث قوله ﷺ: «**ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها**»(١).

وإِنَّ اللَّهَ لا يقبل مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاَهٍ(٢).

فإن لم يستطع تحصيل كل هذه الشروط مارس ما يستطيعه منها، عازما على استكمال الباقي كلما تيسر له.

٨- كيفيات الذكر:

في قوله تعالى ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡ﴾ [النساء: ١٠٣] بيان لصفات الذكر وصوره الثلاث، وهي الصور التي لا يدور غيرها في حياة الإنسان.

---

(١) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين (١/ ١٥٩): حديث ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل لم أجده مرفوعا. اهـ. وجاء هذا الأثر في حلية الأولياء (٧/ ٦١) موقوفا على سفيان الثوري بلفظ: يكتب للرجل من صلاته ما عقل منها. وجاء معناه في حديث مرفوع أخرجه أبو داود (٧٩٦) عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْصَرِفُ وَمَا كُتِبَ لَهُ إِلاَّ عُشْرُ صَلاَتِهِ تُسْعُهَا ثُمُنُهَا سُبُعُهَا سُدُسُهَا خُمُسُهَا رُبُعُهَا ثُلُثُهَا نِصْفُهَا**».

(٢) هذا جزء من حديث أخرجه الترمذي (٣٤٧٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاَهٍ**». وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ.

وفي الصحيح: سئلت عائشة عن وقت ذكر النبيﷺ فقالت: **كَانَ يَذْكُرُ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ أَحْيَانِهِ**(١).

والمراد في جميع الحالات والأوقات والكيفيات.

وعند الطبراني كما في الشفاء وغيره عن الإمام عليٍّ في وصفه أهل الحق: أنَّهم كانوا إذا ذكروا الله وقوفا تمايلوا كما تتمايل الأشجار مع الريح العاصف، وهذا مما يشمله قوله تعالى ﴿**ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ**﴾ [الزمر: ٢٣].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة: «**سَبَقَ الْـمُفَرِّدُونَ**». بالفاء المفتوحة والراء المشددة المكسورة على الأصح. قَالُوا: وَمَن الْـمُفَرِّدُونَ، يَارَسُولَ الله؟ قَالَ: «**الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ**» (٢).

وفي رواية: يضع الذكر عنهم أثقالهم، فيأتون يوم القيامة في مثل ظلل الغمام.

قال مجاهد: لا يكون من الذاكرين اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ حتىٰ يذكر الله قائما وقاعدا ومضجعا(٣).

ولا يتعين ذكر اللسان ولكنه شامل لذكر القلب والروح.

وفي الحديث من رواية أبي داود وغيره عنه ﷺ قال: «**مَنْ قَعَدَ مَقْعَدًا لَمْ يَذْكُرِ اللهَ فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ تِرَةً - بكسر التاء وفتح الراء وهي التبعة والحسرة**

(١) أخرجه مسلم (١١٧/ ٣٧٣).
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٦/ ٤).
(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ١١٧).

والخطيئة - وَمَنِ اضْطَجَعَ مَضْجَعًا لم يَذْكُرِ اللهَ فِيهِ إلا كَانَتْ عَلَيْهِ تِرَةً، ومن وقف موقفا لَمْ يَذْكُرِ اللهَ فِيهِ إلا كَانَتْ عَلَيْهِ تِرَةً، وما مشى أحد ممشى لم يَذْكُرِ اللهَ فِيهِ إلا كان عليه مِنَ اللهِ تِرَةً، وإن دخل الجنة»[١].

ثم إن أصل الذكر عند الطريقة المحمدية أن يكون من جلوس، أما القيام فيه فهو اختياري محض، وإنما يستحسن القيام كلما تحركت الهمة، واستحر[٢] الشوق بالذاكر، ولم يخالط القيام أمر ممنوع، وقد أدركنا طائفة من الأئمة فضلت الذكر من جلوس، وإن اشتد الشوق إلى القيام إلا إذا غلبهم الحال، وهذا هو الأوفق لكل المناسبات.

٩- أهل الذكر في القرآن:

ولو لم يكن من فضل أهل الذكر في القرآن إلا قوله تعالى ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥] لكان هذا كافيا في مدى بيان كرامتهم على الله، ألا ترى العمق في وصف العظيم تعالى أجره بأنه عظيم.

ويقول الله تعالى توجيها لحبيبه إلى ما يحبه فيمن يحبه، وهم في هذه الآية أهل الصُّفَّةِ ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨].

ويقول تعالى له تأكيدا لهذا المعنى ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢] وليس هذا فقط، بل ولا ما هو دونه

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٥٦) مختصرا على الجملة الأولى.

(٢) أي اشتد.

من أي قول أو عمل قد يمس الكرامة ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾[الكهف :٢٨] فأي تكريم أو تقدير بعد كل ذلك لأهل الذكر؟

وأولئك هم أهل الصُّفَّةِ الذين قدمهم النبيﷺ على ابنته فاطمة أم الحسن والحسين بما أنزل الله فيهم من قرآن، إذ قد تحققوا بالذكر، فكانوا أهلا لهذا المقام.

والصُّفَّةُ: بضم الصاد المشددة مكان خاص بمسجد النبيﷺ وفي الحديث يقولﷺ لِفَاطِمَةَ: «**لاَ أُعْطِيكِ وَأَدَعُ أَهْلَ الصُّفَّةِ**»(١).

نعم ذكروا الله حق ذكره، فذكرهم بما هو أهله ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[البقرة :١٥٢] وهذه مقابلة أو موازنة، لا تدرك أعماقها إلا من طريق الأذواق والمكاشفات، فالعقول أهون من أن تحيط بمدى هذا العطاء الفسيح، ولو لم يكن إلا هذه في فضل الذكر لكفى كما حققه السلف والخلف، فإذا أضيف هذا إلى ما جاء في السنة من تفضيل أهل الذكر ثبت أنَّهم أرقى مستوى رباني في خلق الله جميعا.

١٠- الجهر بالذكر الجماعى:

ما قدمناه من الأدلة القاطعة على سنية حِلَق الذكر يدل على أن السلف كانوا يحتفلون به ويجتمعون عليه ويدعون إليه، ويؤدونه جماعة منذ عهد النبوة حتى اليوم.

ولو كان كل منهم يذكر في الحلقة لنفسه منفردا لَمَا كانوا جماعة ولشوش بعضهم على بعض، وأحدثوا الصخب والجلبة ، فكانوا مُثْلَةً

(١) أخرجه بهذا اللفظ أبونعيم في حلية الأولياء (٢/٤١)، وهو عند الحميدي (٤٨) وأحمد (١/١٠٦) بنحوه.

وَأُضْحُوكَةً ، لا تَمتُّ إلى نظام الإسلام وذوقه الرفيع بأية صلة .

يقول المرحوم الشيخ حسنين مخلوف وكيل الأزهر الأسبق ووالد المفتي الأسبق أيضا : الأحاديث الصحيحة مع إثباتِها مشروعية الجماعة، وفضلها في الذكر تثبت مشروعية الجهر أيضا وفضله فيه ، لأنه هو الذي صَيَّرَهُمْ جماعة - كما هو المعهود لغة وعرفا - إلى أن قال : وبالتأمل في عموم الآيات والأحاديث ، وما نقله الآلوسي في آية الدعاء تعلم أنه لا وجه للقول بكراهة الجهر بالذكر جماعة إذا خلا من الموانع الشرعية ، ولم يكن فيه إخلال بشيء من آدابه المعروفة . اهـ .

وبمثل هذا قال المرحوم العلامة الشيخ الظواهري شيخ الجامع الأزهر ، وبه أفتى كل من سبقه من شيوخ الأزهر ، وأكثر مَنْ جاء بعده ، وقد طبقه المرحوم الشيخ حسن البنا عمليًا في جماعة الإخوان ، وبه أفتى من قبل ومن بعد جمهور أعلام علماء المسلمين في المشارق والمغارب .

ومع هذا فمعنا الأدلة الآتية :

١- سمع رسول الله ﷺ صحابته يجهرون بالذكر كلما علوا شرفا أو هبطوا واديا ، كما ثبت في الحديث الشريف ، ولم ينكر ﷺ عليهم جهرهم بهذا الذكر جماعة ، فأصبح سنة إقرارية نبوية .

٢- سمع رسول الله ﷺ صحابته وهم يجهرون بالتكبير في العيدين داخل وخارج البيوت وفي الأسواق ، وفي منى بالذات ، كما هو ثابت في الحديث ولم ينكره الرسول ﷺ ولا أحد من السلف بل كان يفعله عمر فيكبر الناس بتكبيره ، وفعله أبان بن عثمان وابن عمر وغيرهم ، فتأكدت سنيته نبويا وصحابيا .

٣- حبب رسول الله ﷺ الجهر بالتأمين مع الإمام في الصلاة على صيغة رتيبة موزونة ، فكانت قانون الجهر بالذكر الجماعي الرتيب .

٤- شرع الرسول ﷺ في صلاة العيدين التكبير خلف الإمام عدد مرات في الركعة الأولى ، وفي الركعة الثانية بطريقة جماعية جهرية منظمة .

٥- ثبت في البخاري وأبي داود(١) وغيره أنَّهم لعهد رسول الله ﷺ كانوا يختمون الصلاة جماعة فيعرف الناس بذلك فراغهم من الصلاة ، ولا اعتبار للتكلف في تأويل هذا الحديث تعسفا من خصوم ذكر الله .

٦- كان رسول الله ﷺ يرتجز وهو يحفر جدران مسجده الأطهر والصحابة يردون عليه ، أو يرتجز بعضهم والنبي ﷺ معهم يرد عليه جهرا بصوت واحد كما هو ثابت في البخاري وغيره ، وكان ارتجازهم نوعا من الذكر الرتيب ، وأصلا من أصول الإنشاد الصوفي كما بيناه في **(المسلم)** بتوسع ، وقد ذكره البخاري وغيره .

٧- استمع رسول الله ﷺ إلى أناشيد استقباله جماعة يوم دخوله المدينة ، وقد سُرَّ بِها ورضي عنها ، فكانت من أصول الذكر والإنشاد الجماعي .

٨- في الذكر الجماعي تنشيط للهمم ، وبعث للروحانية ، ونشر للمدد وإعلان بالخير ، وترغيب في العبادة وتعاون على البر ، وهو أفعل في النفس ، وأكبر في الأثر ، وقد ثبتت منفعته منذ كان ، وحيث كانت المنفعة فثم شرع الله .

٩- أدركنا من علماء السنة عددا من السادة يذكرون الله جهرًا في جماعة ،

---

(١) لفظه عند البخاري (٨٤٢) وأبي داود (١٠٠٢) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ : كُنْتُ أَعْرِفُ انْقِضَاءَ صَلاَةِ النَّبِيِّ ﷺ بِالتَّكْبِيرِ .

ومنهم بخاصة فضيلة المرحوم الشيخ محمود خطاب مؤسس الجمعية الشرعية(١) وكان يذكر بمريديه جهرا وعلى صوت واحد، ومن أتباعه الآن من يحافظ على ذلك .

ثم إن ما تركه المرحوم الشيخ خطاب من الكتب الصوفية خصوصا العهد الوثيق ونحوه ليس فيه ما يمنع الذكر الجماعي الجهري إذا استكمل شروطه، بل هو حَثٌّ بالغ عليه .

وفي عصرنا هذا توالى على عمادة كليات الأزهر ومشيخته أئمة كلهم يشاركون في هذا الذكر منهم :

أ - الأخ الدكتور عبد الحليم محمود رحمه الله .

ب- الأخ الأستاذ الصادق عرجون رحمه الله .

جـ- الأخ الأستاذ محمد أبو الروس رحمه الله .

وفى أيامنا هذه مئات من أفضل العلماء العاملين منهم :

الدكتور الحسيني أبو فرحة، والدكتور الصافي، والدكتور الحسيني أبو هاشم، والشيخ إبراهيم الدسوقي وزير الأوقاف بالإضافة إلى الألوف المؤلفة من كبار علمائنا المعروفين وشبابِهم الذين ينتسبون إلى هذه المجالس المباركة .

ومع ما وفقنا الله إليه من البحث والتنقيب لم نعثر على نص صريح

---

(١) قال السيد الرائد ﷺ: في بيته القديم في الحكاكين قريبا من بيته المعروف الآن بالخيامية، ثم في بيته بالخيامية، ثم في بعض دروسه ودروس رجاله .

ينهى عن الذكر جماعة ، بل لو لم يكن في الباب إلا عموم قولهﷺ : «**يَدُ اللهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ**»(١) لكفى وشفى .

أما الاعتراض على الذكر في المساجد بأنه ممنوع رغم قوله تعالى ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾[النور : ٣٦] أي بكل صور الذكر ، لأنه قد يشوش على بعض المصلين في الوقت الذي يحرصون هم فيه على أحاديث رجالهم ودروسهم قبل الصلوات وبعدها ، فهذا شيء غير مقبول ، فالشأن هنا وهنا واحد ، فكيف يجوز في الدرس ولا يجوز في الذكر؟ وقد كان رسول اللهﷺ يعلم الناس القرآن تلاوة وحفظا في المسجد ، وكان يقضي فيه الأقضية ، ويجهز السرايا والغزوات ، ويعقد النكاح ، وأباح للحبشة فيه اللعب - أي التشكيلات العسكرية - وأقام في المسجد منبرا لشاعره حسان ، وكان يخطب فيه رؤساء الوفود ، ويسمع خطباءهم وشعراءهم .

وقد صحت أحاديث شتى بأنهﷺ رأى في المسجد حلق الذكر ، فرضي عنها وشجع أهلها ، وبشرهم كما هو مفصل في أبواب الذكر بكل كتب الحديث وقد أسلفنا بعضها ، فيكون الاعتراض على الذكر في المسجد نوعا من مجرد التعصب الكريه أو الْحِرْفِيَّةَ المرفوضة في العلم بالدين .

(١) أخرجه الترمذي (٢١٦٦) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وقال : حَسَنٌ غَرِيبٌ .

مشروعية

الأحزاب والأوراد

مشروعية الأحزاب والأوراد

١ - تمهيد:

الأوراد والأحزاب والصلوات على سيدنا رسول الله ﷺ منظومة أو منثورة بكل صورها ومؤلفاتها ما هي إلا أنماط من الفتوح والابتهالات، والتوجهات إلى الله، والأدعية المحببة إلى النفوس حسب مقامات الرجال بما فيها من النفحات، والعبارات التي تصور خلجات نفوس الواقفين على باب الله، وتبرز أحاسيسهم ومواجدهم، وتستعلي بعاطفاتِهم وأذواقهم إلى الآفاق الروحانية الرفيعة، فهي وسائل تربية ورياضة روحية، وعلاج نفساني وأخلاقي، ومعاريج عبودية للتسامي إلى الملأ الأعلى، وكل ذلك متعين في الإسلام فضلا عما فيها من الأساليب البيانية والبلاغية المعجزة.

٢ - من أدلة صحة التعبد بالأوراد والأحزاب:

قال تعالى ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾[غافر: ٦٠] وقال ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾[النساء: ٣٢] وقال ﴿أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[البقرة: ١٨٦] أي بالوارد وغيره من الأحزاب وأدعية الشيوخ والسلف.

وقال النبي ﷺ: «**مَا أَمَرْتُكُمْ به فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**»[١].

وأفسح الأمر أكثر من هذا، فقال فيما أخرجه الترمذي: «**مَا عَلَى**

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٨) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

الأَرْضِ مُسْلِمٌ يَدْعُو اللهَ بِدَعْوَةٍ إِلاَّ آتَاهُ اللهُ إِيَّاهَا أَوْ صَرَفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ»[١] .

ومنه يفهم حديث الحاكم والبيهقي وابن حبان عنهﷺ : «**لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللهِ ﷻ مِنَ الدُّعَاءِ**»[٢] .

وحديث الترمذي وأصحاب السنن : «**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ**»[٣] . سواء ما جاء على لسان النبيﷺ أو ألسنة من بعده من الصالحين ولذلك كان الترغيب فيه مطلقا من كل قيد، ولم يرد حرف واحد ينص على حرمة الدعاء بغير الوارد، وذلك أن الداعي إنما يبتغي بدعائه استباق الخير وفضل الله ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد : ٢٩] ولا حرج على فضله، فليس ثمة شرط مطلقا بالتزام وارد ولا غير وارد، لا في القرآن ولا في الحديث وهو بين أيدينا متنا وشرحا وتعليقا، ولا شك أن الوارد أفضل لمن قدر عليه، والفاضل لا يتنافى مع المفضول .

٣- تخير أعجب الدعاء:

وقد جاء في حديث ابن مسعود : التفت إلينا رسول اللهﷺ فقال : «**إذا صلى أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلِ التَّحِيَّاتُ للهِ . . . إلخ ثُمَّ لْيَتَخَيَّرْ أَحَدُكُمْ مِنَ الدُّعَاءِ**

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٧٣) عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ وقال حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ .

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٧٠) وقال : حَسَنٌ غَرِيبٌ . وابن ماجه (٣٨٢٩) والحاكم (١/ ٦٦٦ رقم ١٨٠١) وقال : صحيح الإسناد . وابن حبان (٣/ ١٥١ رقم ٨٧٠) جميعا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ .

(٣) أخرجه أبو داود (١٤٧٩) والترمذي (٢٩٦٩ ، ٣٢٤٧ ، ٣٣٧٢) وقال : حسن صحيح . وابن ماجه (٣٨٢٨) عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ .

أَعْجَبَهُ إِلَيْهِ فَيَدْعُو» . متفق عليه ، واللفظ للبخاري[١] .

وللنسائي بلفظ : «**فَلْيَدْعُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ**»[٢] .

وزاد أبو داود : «**فَيَدْعُو بِهِ**»[٣] .

وقيده صاحب بلوغ المرام بالدعاء بخير الدنيا والآخرة ، ولم يشترط واردا ولا غيره .

وقد رد الإمام الصنعاني على القائلين بلزوم المأثور بقوله : ويرد القولين قولهﷺ : «**ثُمَّ لْيَتَخَيَّرْ أَحَدُكُمْ مِنَ الدُّعَاءِ أَعْجَبَهُ**» . وفي لفظ : «**مَا أَحَبَّ** »[٤] .

وللبخاري :«**مِنَ الثَّنَاءِ مَا شَاءَ**»[٥] .

فهو إطلاق للداعي أن يدعو بما أراد .

قلت : وهذا في صلب الصلاة ، فكيف بالدعاء في غيرها؟ إنما هو وباء حب المخالفة ، وطلب الشهرة من باب الشذوذ وادعاء التزام السنة وتعطيل الدين باسم الدين .

---

(١) أخرجه البخاري (٨٣٥) ومسلم (٤٠٢/ ٥٨) .
(٢) أخرجه النسائي (١١٦٣) .
(٣) أخرجه أبو داود (٩٦٨) .
(٤) أخرجه أحمد (١/ ٤٢٧ رقم ٤٠٦٤) .
(٥) أخرجه البخاري (٦٣٢٨) .

٤ - حديث فضالة :

وفي حديث فَضَالَةَ أن النبيﷺ قال : «**إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَحْمِيدِ رَبِّهِ جَلَّ وَعَزَّ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ ، ثُمَّ يَدْعُو بَعْدُ بِمَا شَاءَ**» . رواه أحمد والثلاثة وصححه الترمذي وابن حبان والحاكم[١] ، لاحظ قوله : «**بِمَا شَاءَ**» .

قلنا : وهو مؤيد لحديث ابن مسعود السابق ذكره وفيه قيد واحد هو وجوب تقديم الثناء على الله ، والصلاة على النبيﷺ قبل كل دعاء .

ونقول إن في اشتراط المأثور فضلا عن الحرج غل ألسن العباد وأفكارها أن تتفنن في الثناء على الله ، وفيه إيقاف للقلوب والعقول والأفواه عن أداء واجب ربِّها عليها كما يحلو لها وكما تحس به ، وما تُوَفَّق بفضله تعالى إليه ، فهو تعطيل فيه تحجير وتضليل ، وفيه رد لما قدمنا من أحاديث .

وهو مخالف لطبيعة الواقع فمن غير الممكن أن يحفظ كل فرد من الوارد كل ما يمكن أن يرفع به طلبه إلى الله في مختلف ظروفه ومناسباته وطوارئه .

٥ - حديث الدندنة :

وقد أخرج أبو داود بسند جيد عن بعض الصحابة : أن النبيﷺ قال لرجل : «**كَيْفَ تَقُولُ فِي الصَّلاَةِ؟**» . قال الرجل : **أَتَشَهَّدُ وَأَقُولُ اللهمَّ إِنِّي**

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٨١) والترمذي (٣٤٧٧) وقال : حسن صحيح . والنسائي (١٢٨٤) وأحمد (٦/ ١٨ رقم ٢٣٩٨٢) والحاكم (١/ ٢٥٤ رقم ٨٤٠) وقال : صحيح على شرط مسلم . وابن حبان (٥/ ٢٩٠ رقم ١٩٦٠) .

أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ . ثم قال الرجل للرسولﷺ : أَمَا إِنِّي لاَ أُحْسِنُ دَنْدَنَتَكَ - أي نص أقوالك في الدعاء - وَلاَ دَنْدَنَةَ مُعَاذٍ . فقال النبيﷺ : «**حَوْلَهَا نُدَنْدِنُ**»[(١)] .

قال الصنعاني : ففيه أن يدعو الإنسان بأي لفظ شاء من مأثور وغيره .

قلنا : ولو كان غير الوارد منكرا لنهاه النبيﷺ عن قوله وألزمه المأثور بالذات ، وهو شيء يستحيل أو يكاد .

٦- الوارد بالنص والوارد بالمعنى :

فتعرف مما قدمناه أنه لا حجة بالمرة للقائلين بعدم جواز تلاوة الأحزاب والأوراد والأدعية والتوجهات المتلقاة عن الأشياخ وعن كبار السلف الصالح منذ الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى اليوم ، وهي المؤلفة منظومة أو منثورة لعدم ورودها في الحديث بلفظها كما يزعمون ، بل تعرف مما أجملناه لك أنّها إن لم تكن واجبة فهي مندوب إليها على الأقل ، لدخولها في عموم الأمر بالدعاء ، وحرية الاختيار فيه .

على أن النبيﷺ لم يترك بجوامع الكلم معنى إلا ضمه إليه ، فكل دعاء خيري هو مردود إلى دعائهﷺ إن لم يكن بالنص فبالمعنى . وما ورد بالمعنى أخذ حكم الوارد باللفظ وإن لم يأخذ فضله ، وفي الصحاح قالﷺ : «**أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ**»[(٢)] فالأحزاب والأوراد أشبه بالشروح على متون الأدعية الواردة عنهﷺ .

---

(١) أخرجه أبو داود (٧٩٢) وابن ماجه (٩١٠ ، ٣٨٤٧) .

(٢) أخرجه البخاري (٧٠١٣) ومسلم (٥٢٣/ ٥) عن أبي هريرة .

وقد روى الترمذي كذلك عنهﷺ: **«ما من مُسْلِمٌ يَدْعُو الله تعالى إلا استجاب له»**(١) ولم يشترط واردا ولا غيره، لا تصريحا ولا تلويحا لا فيما ذكرنا ولا فيما لم نذكر.

والميزان الأصولي: أنه إذا كان المأثور مأمورا به فالدعاء غير المأثور بشروطه وحدوده غير منهي عنه، فهو عفو مباح على الأقل، وعليه جاءت الأدعية عن الصحابة والتابعين والعلماء والأولياء والصالحين، وكان للدعاء بِها أثر بين في المدد وفي الاستجابة مما يتوارثونه الأكابر، كابرا عن كابر، وأفضلية المأثور لا تحرم الدعاء بغيره، ولا تمنع الثواب فيما عداه، وقد صدق المولى سبحانه ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة:١٨٥].

٧- ختام هذا الباب:

ونحب أن نختم هذا الباب بحديثين مباركين:

أما الأول: ففي سنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عَنْ بُرَيْدَةَ رضي الله عنه: أن رسول الله سَمِعَ رَجُلاً يَقُولُ: اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ الله لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ الأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ. فقال النبيﷺ: **«لقد سألت الله بالاسم - أو بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ - الذي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى وإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ»**(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٧٣) بلفظ: **«مَا عَلَى الأَرْضِ مُسْلِمٌ يَدْعُو الله بِدَعْوَةٍ إِلاَّ آتَاهُ الله إِيَّاهَا أَوْ صَرَفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا مَا لَمْ يَدْعُ بِمَأْثَمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ»**. وقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ.

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٩٣) والترمذي (٣٤٧٥) وقَالَ حَسَنٌ غَرِيبٌ. وابن ماجه (٣٨٥٧).

وأما الثاني : ففي سنن أبي داود والنسائي عَنْ أَنَسٍ ﷺ : أنه كان مَعَ رَسُولِ اللَّه ﷺ جَالِساً وَرَجُلٌ يُصَلِّي ، ثم دعا : اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ الحنان الْـمَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَا ذَا الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ فقال النبي ﷺ : «**لَقَدْ دَعَا اللَّه بِاسْمِهِ الْعَظِيمِ ، الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى**»[١] .

وكذلك جاء في عدة روايات صحيحة ومن عدة طرق : أن عائشة رضي الله عنها كانت تجتهد في الدعاء بين يديه ﷺ مرات ، فكان يقول لها : «**لَقَدْ دعوت الله بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ**» . أو ما معناه هذا ، ولم ينكر عليها اجتهادها ، وافتنانَها في الدعاء والثناء ، بل رضي عنها وأرضاها .

٨- وفي هذه الأحاديث والأحاديث التى قدمنا أمور :

الأول : أن النبي ﷺ سمع بأذنه من يدعو بغير المأثور عنه ، ثم لم ينكر عليه لا تصريحا ولا تلويحا لا بالعبارة ولا بالإشارة ، فالإنكار اليوم على ذلك بدعة مستقبحة .

الثاني : أن النبي أقر هذا الاجتهاد في الدعاء وحبذه بثنائه ، وكافأ عليه ، وبذلك ندب أو أباح على الأقل الاجتهاد في الدعاء بنحو الأحزاب والأوراد ، وجعله سنة إقرارية ، أخذ بِها الصحابة والتابعون ، وخاصة السلف رضي الله عنهم .

الثالث : أنه بناء على ذلك يجوز لمن يستطيع ولمن لا يستطيع التعبد بالمأثور

(١) أخرجه أبو داود (١٤٩٥) والنسائي (١٣٠٠) وابن ماجه (٣٨٥٨) .

أن يتعبد بغير المأثور ، من أوراد وأحزاب ومدائح وموالد وغيرها من مؤلفات الصالحين منظومة ومنثورة وهو موقن مطمئن متأكد بإذن الله من الصواب والثواب .

ثم إنه لا بأس على العالم بالمأثور أن يضيف إليه ما شاء من غيره جمعا بين الأفضل والفاضل ، وقد التزم كثير من ساداتنا البدء بالمأثور ثم التعقيب عليه بما يفتح به الله ، والأعمال بالنيات ، والتوفيق من الله .

أما دعوىٰ أن التعبد بالأحزاب والأوراد صارفة عن التعبد بالقرآن فدعوىٰ متهافتة ، إذ لا ارتباط بين هذا وذاك ، بل إنه ما من حزب أو ورد إلا وفيه أقباس شتىٰ من الآيات ، يدور حولها الورد أو الحزب أو الدعاء ، فضلا عما يؤكده المشايخ من لزوم مقرر دوري من القرآن مع الأوراد حتىٰ يختم القرآن ثم يكرر ، فضلا عن أوراد السور والآيات المختارة .

من آداب تلاوة الأوراد

ولا شك أنه يجب عند التعبد بالأوراد والأحزاب ملاحظة النطق الصحيح والفهم، ولو إجمالا للمعنىٰ، والتزام أدب الجلوس، واستقبال القبلة - إن كان منفردا - وحفظ القلب من الشرود عن الحضور مع الله، ومغالبة الشيطان وقوة مدافعته، فلا يلقىٰ على المتعبد النوم أو الكسل أو الضيق أو التبرم، أو تشتيت الفكر، أو استثقال المجلس، ففي ذلك معنىٰ تفضيل العبد على الرب، والدنيا على الدين، وهو من أبواب السلب بعد العطاء.

فإذا غلبه النعاس الصادق، نعاس الجهد والنصب لا نعاس العادة أو الشيطان أو الكسل فلينصرف لراحته، خيفة أن ينطق لسانه بكلمة محرفة ربما كانت خطيئة، وحتىٰ لا يمل الجلوس مع الله فيقع في الخطيئة الموبقة أيضا.

وعند البخاري وأحمد والنسائي عنهﷺ: «**إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ يُصَلِّي فَلْيَنْصَرِفْ فَلْيَنَمْ حَتَّىٰ يَعْلَمَ مَا يَقُولُ**»(١).

وعند الترمذي: «**لَعَلَّهُ يَذْهَبُ يَسْتَغْفِرُ فَيَسُبَّ نَفْسَهُ**»(٢).

وفي السنن عنهﷺ: «**ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها**»(٣).

والصلاة هنا قانون لكل أنواع العبادات. كما أن الصلاة تطلق علىٰ مختلف أنواع العبادة.

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٣) والنسائي (٤٤٣) وأحمد (٣/ ١٠٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٥) وقال: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٣) سبق تخريجه.

وفي البخاري عنهﷺ : «**تكلفوا مِنَ الأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ ، فَإِنَّ الله لاَ يَمَلُّ حَتَّىٰ تَمَلُّوا**»(١) .

أي لا يقطع الأجر حتىٰ يقطع الذكر ، وعليه إن استطاع أن يعيد ما فاته من عبادته كما ورد في الحديث الشريف .

الأوراد القرآنية وأدلتها عند الصوفية

من معتاد ساداتنا الصوفية رضي الله عنهم أن يقرءوا سورا وآيات مختارة من القرآن في أوقات معينة أخذا من السنة الشريفة ، وكثيرا ما يطيب لبعض المخالفين أن يعترضوا عليهم بغير علم ولا هدىٰ ، ولا كتاب منير ، ولو وفقهم الله فذاقوا لعرفوا .

فمثلا قد تعود السادة من كل طريقة شرعية أن يقرءوا غالبا بعد العشاء سورة الملك ، وبعد المغرب سورة يس ، وقبل الصبح أو بعد سورة الواقعة كما تعودوا أن يقرءوا في ليلة الجمعة بسورة الدخان ، وربما ضموا إليها الكهف كما تعودوا أن يقرءوا في نَهار الجمعة سورة الكهف ، وربما ضموا إليها الدخان أو هودا أو (ق) مع الختم بكثرة الصلاة والسلام علىٰ سيد الأنامﷺ خصوصا في ليلة الجمعة ويومها .

كما أصبح من مميزاتِهم الخاصة قراءة الفاتحة متوسلين بِها في كل مناسبة إلىٰ الله في تفريج الكروب ، وإصلاح القلوب ، وغفران الذنوب ، ورحمة الموتىٰ ، واللطف بالأحياء ، وبلوغ الأماني على اختلافها .

---

(١) أخرجه البخاري (٥٨٦١) بلفظ : خذوا مِنَ الأَعْمَالِ .

ونكرر أن هذه الأوراد القرآنية ليست خاصة بطريقة دون طريقة كما قد يفهم بعضهم خطأ فهي من أوراد الصوفية الشرعيين جميعا بلا أي تفريق، فليس القرآن وقفا على طريقة بذاتِها، أو مشيخة معينة، ولا على مذهب خاص، ولا يجوز إطلاقا تفضيل أي ورد صوفي أو تقديمه على القرآن للقادر على إحسان التلاوة كلما تَهيأت له مناسبات الطاقة والوقت والصحة بل يتحتم عليه أن يبدأ بالقرآن ثم يقفى عليه بما هو مأذون به من ورد مخصوص، ومن زعم أن هناك وردا أفضل من القرآن فقد جهل وضل، وأضل، والعياذ بالله. وهذا مما دسه الزنادقة على بعض الطرق للأسف الشديد(١).

ونحن هنا نسرد على سبيل الإجمال طرفا من أدلة اتخاذ هذه السور أورادا في هذه الأوقات، ونحن نعلم ما وضعه الكذابون في فضائل بعض السور والآيات مما تورط في بعضه بحسن الظن حتى أمثال الإمام الزمخشري والثعلبي والبيضاوي، ولكننا هنا في معرض فضائل الأعمال، التي يؤخذ فيها بما ورد من القوي أو الضعيف المجبور على ما شرطه علماء الفن، وهو متوفر فيما سيأتي إن شاء الله.

---

(١) قال السيد الرائد ﷺ: كثيرا ما يفضل بعض الأشياخ للمريد أن يبدأ بالورد المفهوم له، ولو إجمالا لأوراد القرآن بعد أن يتهيأ له المستطاع من صحة النطق والأداء، وبعضهم لا يرى الالتزام بهذا الشرط ويفضل قراءة القرآن على أي وضع، وفي كل هذا نظر.

أولا : بعض ما جاء في سورة الفاتحة

يكاد ينفرد الصوفيون - وهم جمهور الأمة الأغلب، غير منازع، ثم من والاهم من بقية المذاهب الإسلامية - بكثرة التوسل إلى الله بقراءة الفاتحة في قضاء حاجات الدنيا والآخرة، ولهم في ذلك برهان لا يدفع قررناه غير مرة، وأسلفنا ذكر بعضه في هذه الرسالة .

ومن أدلة استحباب الفاتحة على اختيارها بالذات أنّها الكم المشترك حفظه بين أهل القبلة جميعا على اختلاف الثقافات والألسن والأعمار والأوطان والألوان، بسبب أنّها فاتحة الكتاب، ومادة الصلاة وهي خمس وعشرون كلمة، جمعت علوم القرآن ومعانيه حتى سميت أم القرآن، وآياتُها السبع تتجاوب مع الألسنة والقلوب، والعواطف والعقول جميعا، بالوراثة والثقافة والنور الإلهي، مع ما فيها من العذوبة والطلاوة، وحلاوة الإيمان، ثم سبق الإرادة الإلهية على استفاضتها بِهذه الصورة الفريدة في مجتمع الإسلام .

وقد أحصى لها القرطبي في تفسيره أربعة عشر اسما لم تحص لغيرها مما يدل على زيادة شرفها وخصوصيتها .

وقد جاء ثابتا عن الرسول ﷺ في فضلها شيء كثير، نذكر منه ما يأتي :

أ- في البخاري قال ﷺ لأبي سَعِيدِ بْنِ الْـمُعَلَّى : «**لأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هي أَعْظَمُ سُورَةٍ في الْقُرْآنِ**» . قال : «﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ

عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾» : «**وهِيَ السَّبْعُ الْـمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ**»[١] .

ب - في الموطإ والترمذي بسند حسن صحيح قالﷺ :«**مَا أَنْزَلَ اللهُ فِي التَّوْرَاةِ وَلاَ فِي الإِنْجِيلِ مِثْلَ أُمِّ الْقُرْآنِ يقول الله تعالى في الحديث القدسي : وَهِيَ مَقْسُومَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**»[٢] .

جـ- وفي مسلم : أن ملكا نزل مِنَ السَّمَاءِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إلا في هذا اليوم ، فقال للنبيﷺ **أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلاَّ أُعْطِيتَهُ**[٣] .

د- وفي البخاري[٤] وبقية الصحاح حديث الرقية بالفاتحة ، وكيف شفي الله اللديغ ببركة قراءتِها عليه ، وكيف اسْتَهَمَ رسول اللهﷺ مع النفر الذين رقوا بِها فيما أهدي إليهم .

أخيرا لهذا ولغيره التزم السادة الصوفية بقراءة الفاتحة في مجالسهم توسلا إلى الله على نياتِهم أو منطوقهم ، وأهل العلم يعرفون أنه ليس كل ما لم يأت بنصه يكون حراما ولا مبتدعا ، وشر الفقه فقه الجمود أو الجحود .

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٤) .

(٢) أخرجه الترمذي (٣١٢٥) ومالك (١٨٥) .

(٣) أخرجه مسلم (٨٠٦/ ٢٥٤) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ .

(٤) أخرجه البخاري (٥٠٠٧) عن أبي سعيد الخدري .

ثانيا: بعض ما جاء في سورة الكهف

من أوراد الصوفية الشرعيين قراءة سورة الكهف قبل صلاة الجمعة وحدها أو مع غيرها لما جاء فيها:

أ- أخرج الترمذي بسند حسن صحيح عن أنس قال: بَيْنَمَا رَجُلٌ يَقْرَأُ سُورَةَ الْكَهْفِ إِذْ رَأَىٰ دَابَّتَهُ تَرْكُضُ فَنَظَرَ فَإِذَا مِثْلُ الْغَمَامَةِ أَوِ السَّحَابَةِ فَأَتَىٰ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ ﷺ: «**تِلْكَ السَّكِينَةُ نَزَلَتْ مَعَ الْقُرْآنِ أَوْ نَزَلَتْ عَلَى الْقُرْآنِ**»[١]. وقد جاء نحو ذلك صحيحا في سور أخرىٰ.

ب- وأخرج الترمذي أيضا بسند صحيح عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ مرفوعا قال ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ ثَلاثَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ**»[٢].

وفي رواية مسلم: «**مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ...**»[٣] إلخ

وفي مسلم: «**مَنْ أَدْرَكَ الدَّجَّالَ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ**»[٤].

وذكر الثعلبي مرفوعا: «**من قرأ السورة كلها دخل الجنة**».

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٨٥) عَنِ الْبَرَاء، وقال: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٨٦).

(٣) أخرجه مسلم (٨٠٩/ ٢٥٧).

(٤) أخرجه مسلم (٢١٣٧/ ١١٠) عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ أثناء حديث طويل عن الدجال بلفظ: «**فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ**».

جـ- ونقل القرطبي[١] عن إسحاق بن عبدالله أن النبيﷺ قال: ألا أدلكم على سورة شيعها سبعون ألف ملك؟ قالوا: بلى: قالﷺ: **سورة أصحاب الكهف من قرأها يوم الجمعة غفر له إلى الجمعة الأخرى، وأعطي نورا يبلغ السماء، ووقي فتنة الدجال**. ملخصا.

د- وعند البيهقي والدارمي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قال: **مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ**[٢].

وفي رواية الوائلي والحاكم والبيهقي عن ابن مسعود: (**في يوم الجمعة**) بدلا من (**ليلة الجمعة**) وتمامه قوله: أضاء له من النور ما بين السماء والأرض.

هـ- وعند ابن مردويه عن ابن عمر: من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدمه إلى عنان السماء يضيء له يوم القيامة، وغفر له ما بين الجمعتين.

و- وفي مسند الدارمي: **مَنْ قَرَأَ آخِرَ سُورَةِ الْكَهْفِ لِسَاعَةٍ يُرِيدُ أن يَقُومُ فيها مِنَ اللَّيْلِ قَامَهَا. قَالَ: فَجَرَّبْنَاهُ فَوَجَدْنَاهُ كَذَلِكَ**[٣].

وروي نحوه عن ابن عباس. قلنا: فكأنه يتوسل بها إلى الله في إيقاظه فيتقبل الله وسيلته بفضله.

(١) القرطبي (١٠/ ٣٤٦).
(٢) أخرجه الدارمي (٢/ ٥٤٦ رقم ٣٤٠٧) والبيهقي (٣/ ٢٤٩ رقم ٥٧٩٢).
(٣) أخرجه الدارمي (٢/ ٥٤٦ رقم ٣٤٠٦) عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ.

ثالثا: بعض ما جاء في سورة يس

ومن أوراد الصوفية الشرعيين قراءة سورة يس بين المغرب والعشاء أو بعدها مع تبارك لما جاء فيها:

أ- أخرج أبو نعيم والدارمي في مسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مرفوعا: «**مَنْ قَرَأَ سورة يس فِي لَيْلَةٍ ابْتَغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ غُفِرَ لَهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ**»[(١)].

ب- وروي الترمذي عن أنس مرفوعا، ورواه الضحاك عن ابن عباس مرفوعا، والرازي عن أنس كما في الجامع الصغير: إن لكل شئ قلبا، وقلب القرآن يس[(٢)].

وفي رواية ابن أبي ليلى: من قرأها نَهارا كفي همه، ومن قرأها ليلا غفر ذنبه.

وفي رواية شهر بن حوشب، والضحاك: أنّها مما يقرؤه أهل الجنة.

جـ- وروي الترمذي الحافظ، والترمذي الحكيم في النوادر من حديث عائشة مرفوعا: «**إن في القرآن لسورة تشفع لقارئها، وتكفر لمستمعها، ألا وهي سورة يس**». ثم ذكر أنّها تعم صاحبها بخير الدنيا، وتدفع عنه أهاويل الآخرة.

د- وفي مسند الدارمي عن ابن عَبَّاسٍ: **مَنْ قَرَأَ يس حِينَ يُصْبِحُ أُعْطِيَ**

---

(١) أخرجه الدارمي (٢/ ٥٤٩، رقم ٣٤١٧).

(٢) أخرجه الدارمي (٢/ ٥٤٨، رقم ٣٤١٦) والترمذي (٢٨٨٧) وقال: غريب. والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٤٧٩، رقم ٢٤٦٠)، والحكيم (٣/ ٢٥٨).

يُسْرَ يَوْمِهِ حَتَّىٰ يُمْسِيَ وَمَنْ قَرَأَهَا في صَدْرِ لَيْلِهِ أُعْطِيَ يُسْرَ لَيْلَتِهِ حَتَّىٰ يُصْبِـحَ [١] .

قال يحيي بن أبي كثير : بلغني أن من قرأ سورة يس ليلا لم يزل في فرج حتىٰ يصبح ، ومن قرأها نَهارا لم يزل في فرج حتىٰ يمسي . قال : ولقد حدثني بذلك من جربَها ، قال ابن عطية : ويصدق ذلك التجربة .

هـ- وفي نوادر الأصول للحكيم الترمذي عن محمد بن علي مرفوعا : إن في كتاب الله لسورة تدعى الْقَرِيرَة ، ويدعىٰ صاحبها الشريف يوم القيامة ، تشفع لصاحبها أكثر من ربيعة ومضر ، هي سورة يس .

و- نقل القرطبي عن الثعلبي عن أبي هريرة مرفوعا : من دخل المقابر ، فقرأ سورة يس خفف الله عنهم يومئذ ، وكان له بعدد من فيها حسنات [٢] .

وفي حديث أبي داود وغيره : «**اقْرَءُوا يس عَلَىٰ مَوْتَاكُمْ**» [٣] .

ز- حديث (**يس لما قرئت له**) عند الجبرتية [٤] باليمن قطعي كما ذكره العجلوني ، وقد نقل في كشف الخفاء [٥] تجارب تطبيقية لهذا الحديث ، كما نقل أن الأخبار تواترت بجموع فضائل يس ، وقبول التوجه بِها إلىٰ الله .

ح- وعند الديلمي عن علي كما في التخريج لابن حجر : اقرءوا يس فإن

---

(١) أخرجه الدارمي (٢/ ٥٤٩ ، رقم ٣٤١٩) .

(٢) تفسير القرطبي (١٥/ ٣) وتفسير الثعلبي (٨/ ١١٩) .

(٣) أخرجه أبو داود (٣١٢١) عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ .

(٤) نسبة إلىٰ إسماعيل الجبرتي .

(٥) (٢/ ٥٢٦) .

فيها عشر بركات .

قال النجم الغزي : روي الديلمي عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ بلاغا : «**مَنْ قَرَأَ يس في صَدْرِ النَّهَارِ قُضِيَتْ حَوَائِجُهُ**»[١] .

وروى البيهقي عن أبي قلابة : «**مَنْ قَرَأَ يس غُفِرَ لَهُ**» .

وهذه الروايات من طرق شتى يشد بعضها بعضا ويتحصل منها تأكيد فضل هذه السورة وبركتها إن شاء اللَّه[٢] .

(١) أخرجه الدارمي (٢/ ٥٤٩ ، رقم ٣٤١٨) .

(٢) إن شئت مزيدا فراجع رسالة السيد الرائد بركات القرآن .

رابعا : بعض ما جاء في سورة الدخان

ومن أوراد الصوفية الشرعيين قراءة سورة الدخان مساء الخميس ليلة الجمعة وحدها أو مع غيرها لما جاء فيها :

أ- روى الدارمي في مسنده عَنْ أَبِي رَافِعٍ : «**مَنْ قَرَأَ الدُّخَانَ فِي لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ أَصْبَحَ مَغْفُوراً لَهُ وَزُوِّجَ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ**»[(١)] .

ب- وروى الترمذي من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ مرفوعا : «**مَنْ قَرَأَ حَم الدُّخَانَ فِي لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ غُفِرَ لَهُ**»[(٢)] .

ج- وروى الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مرفوعا أيضا : «**مَنْ قَرَأَ حَم الدُّخَانَ فِي لَيْلَةٍ أَصْبَحَ يَسْتَغْفِرُ لَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ**»[(٣)] .

د- ذكر الثعلبي عن أبي أمامة مرفوعا : **«مَنْ قَرَأَ الدُّخَانَ ليلة الْجُمُعَةِ أو يوم الْجُمُعَةِ بني له بيت في الجنة»** .

وكلها روايات معتضدة يشد بعضها بعضا ، ويؤخذ بِها في هذا المجال ونحوه .

---

(١) أخرجه الدارمي (٢/ ٥٥٠ ، رقم ٣٤٢١) .

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٨٩) وقال : حَدِيثٌ غَرِيبٌ .

(٣) أخرجه الترمذي (٢٨٨٨) وقال : حَدِيثٌ غَرِيبٌ .

خامسا: بعض ما جاء في سورة الواقعة

ومن أوراد الصوفية الشرعيين قراءة سورة الواقعة مساء أو صباح لما جاء فيها:

أ- نقل القرطبي في الأذكار عن أبي ظبية عن ابن مسعود قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ قَرَأَ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبد**»[١] قال: وكان أبو ظبية لا يدعها أبدا.

ورواه كذلك أبو يعلى والبيهقي وغيرهما، ورواه ابن عساكر عن ابن عباس.

ب- ذكر أبو عمر في التمهيد[٢] والقرطبي عن الثعلبي في التفسير: أن عثمان دخل على ابن مسعود يعوده في مرض موته، فعرض عليه عثمان عطاء لبناته فأبى ابن مسعود، وقال له: إني أمرتُهن أن يقرأن سورة الواقعة كل ليلة، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ قَرَأَ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا**».

ويقول بعض العلماء إن تحديد وقت القراءة يراد به مطلق اليوم كله وليس خصوص الليل.

جـ- ونقل القرطبي عن شريح بن يونس بسنده إلى مسروق قال: من سره أن يعلم علم الأولين والآخرين فليقرأ سورة الواقعة.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٤٩١، رقم ٢٤٩٨).

(٢) التمهيد (٥/ ٢٦٩).

د- وروىٰ ابن مردويه عن أنس : سورة الواقعة سورة الغنىٰ ، فاقرءوها وعلموها أولادكم .

وهو عند الديلمي بلفظ : علموا نساءكم سورة الواقعة ، فإنَّها سورة الغنىٰ .

وهذا الإطلاق يفيد جواز قراءتِها في أي وقت ، وإن اختار لها أكثر الصوفية أول الصباح ليستقبلوا بِها يومهم مباركا .

سادسا : بعض ما جاء في سورة الملك (تبارك)

ومن أوراد الصوفية الشرعيين قراءة سورة الملك بعد كل عشاء لما جاء فيها :

أ- روىٰ الترمذي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : ضَرَبَ رجل من أَصْحَابِ رسول الله ﷺ خِبَاءَهُ عَلَىٰ قَبْرٍ وَهُوَ لاَ يَحْسِبُ أَنَّهُ قَبْرٌ فَإِذَا فِيهِ إِنْسَانٌ يَقْرَأُ سُورَةَ الملك حَتَّىٰ خَتَمَهَا ، فَأَتَي النَّبِيَّ ﷺ فأبلغه ، فَقَالَ ﷺ : «**هي الْـمَانِعَةُ ، هي الْـمُنْجِيَةُ تُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ**»[١] .

ب- وروىٰ الثعلبي مرفوعا : «**وددت أن تبارك الذي بيده الملك في قلب كل مؤمن**»[٢] . وهذا لما فيها من السر والمدد والاعتبار ، وما لها من الشرف والأثر ، وتأكيد العلاقة بالله .

جـ- وأخرج الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مرفوعا : «**إِنَّ سُورَةً من كتاب الله عزوجل - ما هي إلا ثَلاَثُونَ آيَةً - شَفَعَتْ لِرَجُلٍ حَتَّىٰ أخرجته من النار يوم القيامة وأدخلته الجنة ، هي سُورَةُ تَبَارَكَ**»[٣] .

د- وعن ابن مسعود : إذا وضع الميت في قبره ، فيؤتىٰ من قبل رجليه فيقال : ليس لكم عليه سبيل ، فإنه كان يقوم بسورة الملك علىٰ قدميه ،

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٩٠) وقال : حَسَنٌ غَرِيبٌ .

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٧٥٣ رقم ٢٠٧٦) وقال : هذا إسناد عند اليمانيين صحيح ولم يخرجاه . والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٤٩٤ ، ٢٥٠٧) عن ابن عباس .

(٣) أخرجه الترمذي (٢٨٩١) وقال : حَسَنٌ .

ثم يأتى من رأسه فيقول لسانه : ليس لكم عليه سبيل ، فإنه كان يقرأ سورة الملك ، ثم قال : هي المانعة من عذاب الله[١] .

هـ- ونقل القرطبي في الأذكار : من قرأها في ليلة فقد أكثر وأطنب ، ومن قرأها في كل ليلة لم يضره الفتان [٢] .

ولهذا اعتبرها بعض الأئمة سنة مؤكدة بعد العشاء ، وبِهذا أخذ جميع الصوفية الشرعيين .

(١) أخرجه البيهقي في إثبات عذاب القبر (ص ٩٩ ، رقم ١٤٩) بمعناه .
(٢) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٠٥) وفيه : وأطيب بدلا من : وأطنب .

أصول الورد اليومي

١ - تمهيد:

اتفقت جميع الطرق الصوفية على أن الورد اليومي الراتب - فيما عدا ما يؤذن به السالك من أذكار أخرى - هو استغفار لله، ثم صلاة وسلام على سيدنا رسول الله ﷺ ثم تكرار الكلمة المشرفة (**لا إله إلا الله**) فالاستغفار للقلب طهور، والصلاة على النبي ﷺ عطر وبخور، والتهليل عبور إلى سرادقات النور عسى أن تكون جوابر للنقص والفتور والقصور.

وقد اختارت كل طريقة من كل ذلك صيغة معينة لمزية معينة، وتجربة معينة وعدد معين، ونحن هنا نورد طرفا مختصرا من الكتاب والسنة في سبب اختيار الورد من هذه الأذكار، وما سوف نرويه هنا ليس هو كل الوارد في هذا الباب ولا أكثره، ولكن لعله من أهمه وأنفعه إن شاء الله.

٢ - من فضل الاستغفار:

يقول تعالى ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] وقال سبحانه ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ أي في الدنيا ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾ [نوح: ١٠ - ١٢] أي في الآخرة، فالاستغفار سبيل طالب الدنيا وسبيل طالب الآخرة، والعبد يَلِجُ من باب الاستغفار إليهما معا بفضل الله.

وروى مسلم عَنِ الأَغَرِّ الْـمُزَنِيِّ عنه ﷺ يقول: «**إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ الله فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ**»(١).

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٢/ ٤١).

وروى البخاري عن أبي هُرَيْرَةَ عنهﷺ : «**وَاللَّهِ إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً**»(١) .

وروى البيهقي والأصبهاني وابن أبي الدنيا عن أنس قالﷺ : **ما من عبد ولا أمة استغفر الله في كل يوم سَبْعِينَ مَرَّةً إلا غفر الله له سبعمائة ذنب ، وقد خاب عبد أو أمة عمل في اليوم والليلة أكثر من سبعمائة ذنب**(٢) فتأمل .

وروى ابن السني عن عائشة قالﷺ : **من استغفر الله في يوم سبعين مرة لم يكتب من الكاذبين ، ومن استغفر الله في الليلة سبعين مرة لم يكتب من الغافلين** .

وهذه الأحاديث الأربعة من أصول الالتزام والمداومة على ورد الاستغفار .

وروى أبو داود عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عنهﷺ : «**مَنْ لَزِمَ الاِسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجاً ، وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجاً وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ**»(٣) .

وروى الترمذي عن أنس عنهﷺ قال : «**يقول الله تعالى يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ**»(٤) .

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٧) .

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٤٤٢ رقم ٦٥٢) والخطيب البغدادي في تاريخه (٦/ ٣٩٢) والديلمي (٤/ ١٧رقم ٦٠٤٩) وعزاه المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٣١١) للبيهقي والأصبهاني وابن أبي الدنيا .

(٣) أخرجه أبو داود (١٥١٨) .

(٤) أخرجه الترمذي(٣٥٤٠) .

وروى أحمد والحاكم وصححه مرفوعا : «**قَالَ إِبْلِيسُ وعزتك لاَ أَزَالُ أُغْوِي عبادك مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ . فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : وعزتي وجلالي لاَ أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي**»(١) وحسبنا ذلك هنا .

٣- الاستغفار العظيم:

وروى أبو داود والترمذي ، وصححه الحاكم على شرط الشيخين عن ابن مسعود عنهﷺ : «**مَنْ قَالَ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيَّ الْقَيُّومَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ . غُفِرَت ذنوبه وَإِنْ كَانَ قد فَرَّ مِنَ الزَّحْفِ**»(٢) .

وقد صح الترغيب الكثير فيها بعد الصلوات الخمس لما لها من الفضل الكبير .

وروى الترمذي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وحسنه عَنْهُﷺ : «**مَنْ قَالَها حِينَ يَأْوِي إِلَى فِرَاشِهِ غفرت له ذُنُوبُهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ ، وَإِنْ كَانَتْ عَدَدَ وَرَقِ الشَّجَرِ ، وَإِنْ كَانَتْ عَدَدَ رَمْلِ عَالِجٍ – سلسة جبال بالدهناء بالحجاز – وَإِنْ كَانَتْ عَدَدَ أَيَّامِ الدُّنْيَا**»(٣) .

٤- سيد الاستغفار:

وقد روى البخاري وغيره عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ عَنْهُﷺ قال :«**أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى سَيِّدِ الاِسْتِغْفَارِ اللهمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ**

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٩ ، ٧٦) والحاكم (٤/ ٢٩٠) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٢) أخرجه أبو داود (١٥١٧) والترمذي (٣٥٧٧) عن زياد والد يسار وقال الترمذي : هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ .

(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٩٧) وقال : حَسَنٌ غَرِيبٌ لاَ نَعْرِفُهُ إِلاَّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ .

وَأَنَا عَلَىٰ عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ أَبُوءُ لك - أي أعترف - بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ ، وأَبُوءُ بِذَنْبِي ، فَاغْفِرْ لِي ، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ. وفي رواية : وارحمني فإنك أنت الغفور الرحيم» . يقولﷺ : «**مَنْ قَالَهَا حِينَ يُمْسِي فَمَاتَ من ليلته دَخَلَ الْجَنَّةَ ، ومن قالها حِينَ يُصْبِحُ فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ**» (١) .

وصيغتا سيد الاستغفار ، والاستغفار العظيم المعروف في ختام الصلاة هما الصيغتان المفضلتان عند الطريقة المحمدية ، فلا يصار إلى غيرهما إلا عند الضرورة .

٥- من فضل الصلاة على رسول+الله :

يقول تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب :٥٦] .

والصلاة من الله عطاء وغِناء ، ومن الملائكة ثناء ورجاء ، ومن المؤمنين دعاء ووفاء وولاء ، فالصلاة عليه فرض بِهذا النص الكريم .

وفي الصلاة عليهﷺ معنى الاستشفاع والتوسل إلى الله بحبهﷺ وكل شيء يجوز أن يدخله الرياء إلا حبهﷺ فهو عمل قلبي نظيف .

وفي الصلاة عليهﷺ معنى الشكر على نعمة الإسلام بغير اختيار منا لمن كان سببا فيها عليه الصلاة والسلام ، ولهذه المعاني وزنُها العظيم في العبادة .

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٦ ، ٦٣٢٣) والترمذي (٣٣٩٣) .

وقد روى الترمذي عن ابن مَسْعُودٍ قالﷺ: «**أَوْلَى النَّاسِ بِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلاةً**»(١).

وروى أبو داود عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَﷺ: «**صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ**»(٢).

وروى مسلم عَنْ عَبْدِاللَّه بْنِ عَمْرٍو قَالَﷺ: «**مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاةً صَلَّى اللّه عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا**»(٣).

وفي رواية الطبراني: «**ومَنْ صَلَّى عَلَيَّ عَشْراً صَلَّى اللّه عَلَيْهِ بِهَا مائة، ومَنْ صَلَّى عَلَيَّ مائة كتب اللّه بين عينيه براءة من النفاق وبراءة من النار**»(٤).

وروى النسائي والطبراني والبزار عن أبي بردة قالﷺ: «**مَنْ صَلَّى عَلَيَّ من أمتي صلاة مخلصا من قلبه صَلَّى اللّه عَلَيْهِ بِهَا عشر صلوات، ورفعه عشر درجات، وكتب له بِها عشر حسنات، ومحا عنه بها عشر سيئات**»(٥).

وأخرج ابن منده - وحسنه المديني - عن جابر رضي الله عنه قالﷺ: «**مَنْ**

(١) أخرجه الترمذي (٤٨٤) وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.
(٢) أخرجه أبو داود (٢٠٤٢).
(٣) أخرجه مسلم (٣٨٤/ ١١).
(٤) أخرجه الطبراني في الصغير (٢/ ١٢٦) والأوسط (٧/ ١٨٨).
(٥) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٢١ رقم ٩٨٩٢).

صَلَّىٰ عَلَيَّ في يوم مائة مرة قضىٰ الله له مائة حاجة لآخرته ودنياه»(١) .

وفي المسند عَنْ عَبْدِاللَّه بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِي : «**مَنْ صَلَّىٰ علي مرة واحدة صَلَّىٰ الله عَلَيْهِ بِها وملائكته مائة مرة**»(٢) .

وروىٰ الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ ﷺ : «**رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ**»(٣) .

وروىٰ أبو داود عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ ﷺ : «**الْبَخِيلُ مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ**»(٤) .

وروىٰ ابن السني عن جابر قال ﷺ : «**من ذكرت عنده فلم يصل عليَّ فقد شقىٰ**»(٥) .

فليس بعد البخل بالصلاة عليه إلا البخل بالشهادة .

وقد ثبت أن الصلاة على النبي ﷺ تفريج للكروب ، وتنوير للقلوب ، وغفران للذنوب ، ودواء من كل داء نفساني أو عصبي أو روحي أو غيره ، ووسيلة إلىٰ الله تعالىٰ لا ترد في قضاء جميع حاجات الدنيا والآخرة . وقد جربناها فوجدناها .

---

(١) عزاه السيوطي في الجامع الكبير لابن النجار .

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٨٧) بلفظ : مَنْ صَلَّىٰ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ صَلاةً صَلَّىٰ اللَّه عَلَيْهِ وَمَلائِكَتُهُ سَبْعِينَ صَلاةً فَلْيُقِلَّ عَبْدٌ مِنْ ذَلِكَ أَوْ لِيُكْثِرْ .

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٤٥) وقال : حَسَنٌ غَرِيبٌ .

(٤) أخرجه الترمذي (٣٥٤٦) عَنْ الإمام عَلِي وقال : حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ .

(٥) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (١/ ٣٣٦) .

٦- من فضل الهيللة عموما :

الكلمة الشريفة (**لا إله إلا الله**) يقال لها لغة (**التهليل والهيللة**) وهي ذكر وقرآن .

قال تعالىٰ ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] وقال تعالىٰ ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الفتح :٢٩] .

وهكذا نجد أن ألفاظ الشهادتين ذكر وقرآن في وقت معا ، فالمتعبد بِهما جامع للفضيلتين : فضيلة الذكر ، وفضيلة القرآن .

وقد روىٰ أبو يعلىٰ عن أنس مرفوعا : ما من عبد قال لا إله إلا الله في ساعة من ليل أو نَهار إلا طمست ما في صحيفته من السيئات ، حتىٰ تسكن إلىٰ مثلها من الحسنات(١) .

ونقل السيوطي من طرق متعددة عن علي ﵁ قال ﷺ : «**أفضل ما قلته أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله ، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع وضعن في كفة ولا إله إلا الله في كفة لرجحت لا إله إلا الله ، يا علي لا تقوم الساعة وعلىٰ وجه الأرض من يقول لا إله إلا الله**» .

وفي رواية مسلم : من يقول الله الله .

وروىٰ الطبراني في الأوسط والكبير عن زيد بن أرقم قال رسول الله ﷺ :
«**من قال لا إله إلا الله مخلصا من قلبه دخل الجنة . قيل وما إخلاصها؟ قال :**

(١) أخرجه أبو يعلىٰ (٦/ ٢٩٤) .

أن تحجزه عن محارم الله»[١] .

وهذه الرواية تفسر رواية : وإن زنى وسرق .

وروى البخاري ومسلم – واللفظ له – عنهﷺ : **«مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّه وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّه صدقًا من قلبه حَرَّمَ اللَّه عَلَيْهِ النَّارَ»**[٢] .

وفي رواية البخاري زيادة : صدقا من قلبه . فإن هذا الصدق يحجزه عن المحارم فيكون أهلا للجنة .

وفي الحديث الثابت قالﷺ : **«جددوا إيمانكم ، قولوا لا إله إلا الله»**[٣] .

وفي شرح المناوي على الجامع الصغير عن علي الرضا عن أبيه موسى الكاظم عن أبيه جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عن أبيه علي زين العابدين عن أبيه الإمام الحسين عن أبيه علي بن أبي طالب عن رسول اللهﷺ عن جبريل عن ربه تعالى يقول : **«لا إله إلا الله حصني ، فمن قالها دخل حصني ، ومن دخل حصني أمن من عذابي»**[٤] .

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢/ ٥٦ رقم ١٢٣٥) .
(٢) أخرجه البخاري (٣٤٣٥) ومسلم (٢٩/ ٤٧) عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ .
(٣) أخرجه الحاكم (٤/ ٢٨٥) وعبد بن حميد في مسنده (١/ ٤١٧) عَنْ أبي هريرة وقال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .
(٤) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٥/ ٤٦٢) وانظر فيض القدير (٣/ ٣٧٨) .

قال الإمام أحمد : «**لَوْ قُرِئَ هَذَا الإِسْنَادُ عَلَىٰ مَجْنُونٍ لأفاق**»[١] .

وقال الإمام القشيري : إن بعض أمراء بني ساسان كتبه بالذهب ، وأوصى بأن يدفن معه تبركا .

وفي الباب ما لا يحصىٰ من الترغيب في هذا الذكر ، فضلا عما يجده الذاكر من المتعة الروحية ، ومشاهد الأذواق والتجليات الخاصة بأهل الله .

٧- من فضل التهليل الكامل أو سيد التهليل :

روىٰ أحمد والنسائي وابن حبان في صحيحه والطبراني عن أبي أيوب الأنصاري قال رسول الله ﷺ : «**من قال إذا أصبح : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّه وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْـمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ يحيي ويميت ، بيده الخير ، وهو علىٰ كل شيء قدير عشر مرات كتب له بهن عشر حَسَنَاتٍ ومحي عنه بهن عشر سَيِّئَاتٍ ، ورفع له بهن عشر درجات ، وكن له عَدْلَ عَشْرِ رقبات ، وكن له حرزا حتىٰ يمسي ، ومن قالها إذا صلى المغرب دبر صلاته فمثل ذلك حتىٰ يصبح**»[٢] .

وروىٰ نحوه أبو داود وابن ماجه بسند جيد قال فيه : إذا أصبح وإذا أمسىٰ .

وفي رواية في فضلها : كتب له بها عشر حسنات موجبات ، ومحي عنه عشر سيئات موبقات ، وكن له بعدل عشر رقبات مؤمنات .

---

(١) تاريخ أصبهان (١/ ١٧٤) وجاء هذا أيضا عن عبد السلام بن صالح أبي الصلت الهروي كما في ابن ماجه (٦٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٤١٥) والطبراني في الكبير (٤/ ١٥٤رقم ٣٩٨٦) .

وفي رواية : وحرزا من كل مكروه ، ولم يلحقه في ذلك اليوم ذنب إلا الشرك بالله . إذ إنه متى تحقق بالتوحيد كف عن المحارم ما استطاع .

وفي رواية : وكان له بكل مرة عتق رقبة من ولد إسماعيل ، ثمن كل رقبة كذا ألفا .

وفي رواية : وكان من أفضل الناس عملا إلا رجلا يفضله ، يقول أفضل مما قال . وفي رواية : وأجاره الله من الشيطان .

وفي أخرى : ولم يعمل يومئذ عملا يقهرهن . أي يذهب أجرهن .

وفي رواية الطبراني عن ابن عمر : من قالها أدخله الله جنة النعيم .

وفي رواية صحيحة : من قالها أربع مرات أعتق رقبته من النار .

وفي رواية ابن السني عن أبي أمامة مرفوعا : من قالها حين يهب من نومه غفر الله ذنوبه ، وإن كانت مثل زبد البحر .

وروى البخاري ومسلم مرفوعا : «**مَنْ قالها في يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ ، كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ ، وَكُتِبَتْ لَهُ بها مِائَةُ حَسَنَةٍ ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزاً مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّىٰ يُمْسِيَ ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ ، إلاَّ رجل عَمِلَ أَكْثَرَ منه**»[١] . وللنسائي نحوه .

وفي رواية للنسائي عن يعقوب : من قالها مائة مرة مخلصا بها روحه ومصدقا بها قلبه نظر الله إليه ، وحق لمن نظر الله إليه أن يعطيه سؤله .

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٩٣) ومسلم (٢٦٩١/ ٢٨) .

وروى ابن ماجه وابن أبي الدنيا والترمذي والحاكم وصححه كما وثقه المنذري عن عمر بن الخطاب مرفوعا : «**مَنْ دَخَلَ السُّوقَ فقالها كتب له أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ ، ومحا عنه أَلْفَ أَلْفِ سَيِّئَةٍ ، ورفع لَهُ أَلْفَ أَلْفِ دَرَجَةٍ**»(١) وفي رواية : وبني له بيت في الجنة .

قلت : ولعل ذلك لأنه ينبه الغافلين ، ويذكر المخالفين لأمر الله في البيع والشراء وأنواع المعاملات فتتحصل له هذه الأجور .

وأيضا لعل اختلاف مراتب الأجور راجع إلى اختلاف مراتب النيات وحسن الأدب وتمام التوجه وصدق اليقين ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الأنعام:١٣٢] وكلها روايات ثابتة بحمد الله ، لا مطعن عليها لطاعن على الإطلاق ، إلا أن يكون من أعداء ذكر الله ، وما أكثرهم في المتمسلفين .

٨- بعض الزيادات في هذا التهليل :

وقد جاء في رواية النسائي وأحمد زيادة : يحيي ويميت .

ولابن أبي الدنيا في صيغة قريبة : وهو حي لا يموت . أيضا .

وفي رواية الطبراني وابن أبي الدنيا زيادة : بيده الخير .

وكلها جاءت في روايات أخرى لا خلاف عليها ثبوتا وثناء على الله ، والجمع بينهما أكمل وأفضل .

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٧٥٦) وقال : هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ .

٩- التهليل الكامل بعد المغرب والفجر:

وقد جاء في حديث شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ غَنْمٍ الأشعري أن النبيﷺ قَالَ: «**مَنْ قَالَ قَبْلَ أَنْ يَنْصرِفَ وَيَثْنِيَ رِجْلَهُ مِنْ صَلاَةِ الْـمَغْرِبِ وَالصُّبْحِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّه وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْـمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ بِيَدِهِ الْخَيْرُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُو عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ عَشْرَ مَرَّاتٍ كُتِبَ لَهُ بِكُلِّ وَاحِدَةٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ وَمُحِيَتْ عَنْهُ عَشْرُ سَيِّئَاتٍ وَرُفِعَ لَهُ عَشْرُ دَرَجَاتٍ وَكَانَتْ حِرْزاً مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ وَحِرْزاً مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ وَلَمْ يَحِلَّ لِذَنْبٍ يُدْرِكُهُ إِلاَّ الشِّرْكَ وَكَانَ مِنْ أَفْضَلِ النَّاسِ عَمَلاً إِلاَّ رَجُلاً يَفْضُلُهُ يَقُولُ أَفْضَلَ مِمَّا قَالَ**». أخرجه أحمد والطبراني في الأوسط [(١)].

وشهر بن حوشب ثقة عند الجمهور.

ولهذا أصبح وردا أصيلا عند أكثر الصوفية السلفيين وبخاصة أهل الطريقة المحمدية، فإنَّهم يحرصون عليه جماعة وفرادي بعد الفجر والمغرب.

ولتكملة ورد ما بعد المغرب والفجر يتلى بعد التهليل الكبير ما جاء في حديث الْحَارِثِ بن مُسْلِمٍ التَّمِيمِيِّ قَالَ: قَالَ لِي النبيﷺ: «**إِذَا صَلَّيْتَ الصُّبْحَ فَقُلْ قَبْلَ أَنْ تُكَلِّمَ أَحَداً مِنَ النَّاسِ اللهمَّ أَجِرْنِي مِنَ النَّارِ سَبْعَ مَرَّاتٍ فَإِنَّكَ إِنْ مِتَّ مِنْ يَوْمِكَ ذَلِكَ كَتَبَ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ لَكَ جِوَاراً مِنَ النَّارِ وَإِذَا صَلَّيْتَ الْـمَغْرِبَ فَقُلْ قَبْلَ أَنْ تُكَلِّمَ أَحَداً مِنَ النَّاسِ اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ**

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٢٧) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٣٩): رجاله رجال الصحيح غير شهر بن حوشب وحديثه حسن.

الْجَنَّةَ اللهمَّ أَجِرْنِي مِنَ النَّارِ سَبْعَ مَرَّاتٍ فَإِنَّكَ إِنْ مِتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ تِلْكَ كَتَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَكَ جِوَاراً مِنَ النَّارِ» .

أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي بسند جيد[١] .

وهناك رواية ليس فيها : اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ .

وقد رخص للإمام في هاتين الصلاتين ألا يلتفت إلى الناس إلا بعد أداء هذا الذكر .

١٠ - التهليل الكامل دبر كل صلاة :

وجاء في حديث عبدالله بن الزبير قال : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا سَلَّمَ فِي دُبُرِ الصَّلاَةِ أَوِ الصَّلَوَاتِ يَقُولُ : «**لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْـمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ وَلاَ نَعْبُدُ إِلاَّ إِيَّاهُ ، أَهْلُ النِّعْمَةِ وَالْفَضْلِ وَالثَّنَاءِ الْحَسَنِ ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**» .

أخرجه أحمد والشافعي ومسلم وأبو داود والنسائي[٢] .

وجاء من حديث الْـمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ مَكْتُوبَةٍ «**لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْـمُلْكُ ، وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهْوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، اللهمَّ لاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ ، وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ ، وَلاَ يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ**» أخرجه أحمد والشيخان[٣] .

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٣٤) وأبو داود (٥٠٧٩) .

(٢) أخرجه مسلم برقم (٥٩٤/ ١٤٠) .

(٣) أخرجه البخاري (٨٤٤) ومسلم برقم (٥٩٣/ ١٣٧) ، وأحمد (٤/ ٢٤٥) ومعنىٰ : ولا يَنْفَع
رسولُ الله

ولا بأس أن يضيف إلىٰ ذلك بعض ما ورد من أذكار النبيﷺ كالذي جمعه الإمام ابن زروق في وظيفته، أو كالذي يتعبد به السادات الصوفية السلفية في ختام الصلوات فأكثره صحيح وارد مستحب.

١١- من فضل التسبيح:

بين الله فضل التسبيح حثًّا عليه في قوله تعالىٰ عن يونس ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣-١٤٤].

ولفضل التسبيح جعله الله تعالىٰ شغل ملائكته ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠] ولهذا خص حبيبه المصطفىٰ بمزيته فقال ﴿وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾[طه: ١٣٠] فجعل من الأثر الروحاني للتسبيح حصول الرضا، ولا يحصل الرضا إلا ببلوغ المنىٰ في الآخرة والأولىٰ.

ولأمر ما ذكر تسبيح اسم الله مضافا إلىٰ صفتي التعالي والعظمة والعزة، فقال تعالىٰ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾[الأعلىٰ: ١]، ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾[الواقعة: ٧٤]، ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾[الصافات: ١٨٠] ففيها رمز وإشارة لأولي الألباب، وفيها من ومضات التجلي الشيء الكثير.

والتسبيح هو منتهى التقديس والتنزيه والتمجيد وهو ذكر وعلاج ورياضة.

ذا الجَدّ منك الجَدُّ. قال ابن الأثير في النهاية: أي لا ينفع ذا الغِنَىٰ منك غِنَاه، وإنَّما ينفعُه الإيمانُ والطاعة.

وفي الصحيحين قالﷺ : «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ**»(١).

وفي مسلم: «**أنهما أَحَبّ الْكَلامِ إِلَىٰ اللهِ وأفضله**»(٢). أي بعد القرآن.

وفي الصحيحين قالﷺ : «**مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ**»(٣).

١٢- التسبيح بعد الصلوات:

وفي مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْهﷺ : «**مَنْ سَبَّحَ اللهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ ثَلاَثاً وَثَلاَثِينَ، وَحَمِدَ اللهَ ثَلاَثاً وَثَلاَثِينَ وَكَبَّرَ اللهَ ثَلاَثاً وَثَلاَثِينَ فَتِلْكَ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ وَقَالَ تَمَامَ الْـمِائَةِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ... إلخ، غُفِرَتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ**»(٤). وفي الحديث: «**لاَ يَضُرُّكَ بِأَيِّها بَدَأْتَ**».

وفي حديث آخر جواز تلاوتها مجتمعة في ختم الصلاة، فيقول (**سبحان الله والحمد لله والله أكبر**) متصلة (٣٣) مرة.

قلنا: وقد صحت رواية التسبيح والتحميد والتكبير بعد الصلاة من

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٨٢) ومسلم (٢٦٩٤/ ٣١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٣١/ ٨٥) عَنْ أَبِي ذَرٍّ بلفظ «إِنَّ أَحَبَّ الْكَلاَمِ إِلَىٰ اللهِ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ».

(٣) أخرجه البخاري برقم (٦٤٠٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

(٤) أخرجه مسلم برقم (٥٩٧/ ١٤٦).

كل واحدة خمسة وعشرين مرة ، غير أنه إن فعل ذلك هلل كذلك خمسة وعشرين مرة فتلك مائة .

رواها أحمد والنسائي والدارمي بسند صحيح .

وعند مسلم صح أن يجعل التسبيح والتحميد بعد الصلاة من كل واحدة أحد عشرة مرة أو عشر مرات ، فهي ثلاثون أو ثلاثا وثلاثون مرة .

ومفهومنا أن ذلك محكوم بسعة الوقت وضيقة ، فإن وسع الوقت لمائة فعلها ، وإلا جنح إلى ما دون ذلك حتى لا يدع هذا الفضل العظيم ، فهي بعد الصلاة أشبه بجوابر النقص فيها وبالعمل الصالح الذي يرفعها إلى ربِّها .

ثم لفضل التسبيح والتحميد والتكبير أذن النبيﷺ به ابنته فاطمة أن تلازمه عند النوم ، حيث يسترخي الجسم ، وتنشط الروح ، فيكون أدنى إلى التحقق بِهذا السر .

وحديث (**أهل الدثور**) في هذه الصيغة معروف مشهور[1] .

١٣ - الذكر الجامع أو سيد التسبيح :

---

(١) أخرجه البخاري (٨٤٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : **جَاءَ الْفُقَرَاءُ إِلَى النَّبِيِّ فَقَالُوا ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ مِنَ الأَمْوَالِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلاَ وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي ، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ ، وَلَهُمْ فَضْلٌ مِنْ أَمْوَالٍ يَحُجُّونَ بِهَا ، وَيَعْتَمِرُونَ ، وَيُجَاهِدُونَ ، وَيَتَصَدَّقُونَ قَالَ : « أَلاَ أُحَدِّثُكُمْ بِأَمْرٍ إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ أَدْرَكْتُمْ مَنْ سَبَقَكُمْ . . . تُسَبِّحُونَ وَتَحْمَدُونَ ، وَتُكَبِّرُونَ خَلْفَ كُلِّ صَلاَةٍ ثَلاَثاً وَثَلاَثِينَ » . فَاخْتَلَفْنَا بَيْنَنَا فَقَالَ بَعْضُنَا : نُسَبِّحُ ثَلاَثاً وَثَلاَثِينَ ، وَنَحْمَدُ ثَلاَثاً وَثَلاَثِينَ ، وَنُكَبِّرُ أَرْبَعاً وَثَلاَثِينَ . فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ : «تَقُولُ سُبْحَانَ اللهِ ، وَالْحَمْدُ للهِ ، وَاللهُ أَكْبَرُ ، حَتَّى يَكُونَ مِنْهُنَّ كُلِّهِنَّ ثَلاَثاً وَثَلاَثِينَ »** . ومعنى الدثور قال ابن الأثير : الدُّثُورَ : جمع دَثْرٍ ، وهو المالُ الكثير .

وهناك التسبيح الكبير الذي يسميه (**المحمديون**) الذكر الجامع أو سيد التسبيح، وهو من أصول تعبداتِهم النافلة مع (**التهليل الكامل أو سيد التهليل**) يلازمونه بعد سيد الاستغفار في كل مناسبة كشعار وخصيصة لوفرة ما ورد في الحث عليهما من أحاديث ثابتة في أعلى درجات الندب والترغيب كما رأيت.

والتعبد بالجمع بين هاتين الصيغتين (**سيد التسبيح وسيد التهليل**) جاء بالنص في البخاري عن عبادة بن الصامت عنهﷺ مبشرا من جمع بينهما باستجابة دعائه، وقبول صلاته . . . إلخ.

وقد روى أحمد والحاكم والضياء - وصححه السيوطي - في التسبيح الكامل قالﷺ: «**إِنَّ اللهَ اصْطَفَى مِنَ الْكَلاَمِ أَرْبَعاً: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، فَمَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ كتبت له عشرون حسنة، وحطت عنه عشرون سيئة، ومن قال الله أكبر مثل ذلك، وَمَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ مثل ذلك، وَمَنْ قَالَ الْحَمْدُ للهِ مثل ذلك**»(١).

وقالﷺ: «**إذا دخلتم المسجد فَارْتَعُوا، قيل وَمَا الرَّتْعُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قال: «قولوا: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ**»(٢).

وروى الطبراني والنسائي والحاكم - وصححه - عن أبي هريرة

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٧) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٠٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ: «**إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا**». **قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: «الْمَسَاجِدُ». قُلْتُ: وَمَا الرَّتْعُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ «سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ**». وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

قالﷺ: «**خذوا جنتكم - بضم الجيم وتشديد النون المفتوحة يعني وقايتكم وَعُدَّتَكُمْ - قالوا: يا رسول الله أَعَدُوٌّ حضر؟ قال: لا، ولكن جنتكم من النار، قولوا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فإنّهن يأتين يوم القيامة منجيات ومعقبات - يعني حافظات ومحيطات - وهن الباقيات الصالحات**»(١).

وفي رواية البزار عن أبي المنذر قالﷺ: «**أكثروا من: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله فإنها ممحاة للخطايا**». قال الراوي: أحسبه قال: موجبة للجنة(٢).

وفي مسلم عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ قَالَ قَالَﷺ: «**أَحَبُّ الْكَلاَمِ إِلَىٰ اللهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لله، وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ. لاَ يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ**»(٣).

وفيه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أن هذه الكلمات أحب إليهﷺ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وغربت(٤).

وفي الترمذي عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أن نبي الله إبراهيم قال للنبيﷺ ليلة الإسراء: «**يَا مُحَمَّدُ أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلاَمَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ**

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٩٢ رقم ٢٩٧٢٩) والنسائي في الكبري (٦/ ٢١٢ رقم ١٠٦٨٤) والحاكم (١/ ٧٢٥، رقم ١٩٨٥) والطبراني في الأوسط (٣/ ٢٨٩، رقم ٣١٧٩).

(٢) أخرجه البزار كما مجمع الزوائد (١٠/ ٨٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢١٣٧/ ١٢).

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٩٥/ ٣٢) بلفظ: «**لأَنْ أَقُولَ سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ**».

التُّرْبَةِ عَذْبَةُ الْـمَاءِ وَأَنَّهَا قِيعَانٌ - يعني أرض غير مزروعة- وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبْحَانَ اللَّهِ ، وَالْحَمْدُ للَّهِ ، وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّه ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ»(١) .

ومن الطرائف في هذا الحديث أن رسول اللهﷺ لم يرو حديثا عن بشر أبدا إلا هذا الحديث(٢) رواه عن جده إبراهيم ، وفيه فضل مزية جديدة لهذا الذكر العظيم .

وروى الطبراني عن أبي الدرداء قالﷺ : «**قل سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، فإنهن الباقيات الصالحات ، وهن يحططن الخطايا كما تحط الشجرة ورقها**»(٣) .

وفي رواية ابن ماجه عن أبي هريرة مرفوعا : «**من قالها يغرس له بكل واحدة شجرة في الجنة**»(٤) .

وفي مسلم عَنْ أَبِي ذَرٍّ مرفوعا : «**كُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ**»(٥) .

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٦٢) وقال : حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ .

(٢) وروى أيضا حديث الجساسة عن تميم الداري كما في مسلم (٢٩٤٢/ ١٢٢) عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِﷺ قَعَدَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ : «**أَيُّهَا النَّاسُ حَدَّثَنِي تَمِيمٌ الدَّارِيُّ أَنَّ أُنَاساً مِنْ قَوْمِهِ كَانُوا فِي الْبَحْرِ فِي سَفِينَةٍ لَهُمْ فَانْكَسَرَتْ بِهِمْ فَرَكِبَ بَعْضُهُمْ عَلَى لَوْحٍ مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ فَخَرَجُوا إِلَى جَزِيرَةٍ فِي الْبَحْرِ**» . وَسَاقَ الْحَدِيثَ .

(٣) أخرجه الطبراني كما في مجمع الزوائد (١٠/ ٩٠) وقال الهيثمي : رواه ابن ماجه (٣٨١٣) باختصار ورواه الطبراني بإسنادين في أحدهما عُمَر بن راشد اليمامي وقد وثق على ضعفه وبقية رجاله رجال الصحيح .

(٤) أخرجه ابن ماجه (٣٨٠٧) .

(٥) أخرجه مسلم (٧٢٠/ ٨٤) .

وفي رواية ابن السني وآخرون زيادة : وتبارك الله .

وفي رواية أبي عاصم وأبي يعلى وابن السني زيادة : وأستغفر الله . فتكون الصيغة الكاملة لهذا **الذكر الجامع أخذا من كل الروايات هي : «سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، وتبارك الله ، وأستغفر الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»** . فقد جمعت الخير من كل الأطراف .

واستقصاء الوارد في الندب إلى لزوم هذا الذكر يوشك ألا ينتهي بـما له من الخصائص والميزات ، التي ربـما غفل عن التخصص لها والاختصاص بها بعض ساداتنا من سلف الصوفية ، فكأن الله ادخرها خصيصة مباركة للطريقة المحمدية ، فجعلت سيد التسبيح وسيد التهليل من أكبر أركان الذكر الفردي والجماعي بها ولله الحمد والمنة .

في مجالات ذكر الله

١ - مشروعية قولهم عدد كذا وقدر كذا :

روى أبو داود والترمذي - وَحَسَّنَهُ - عن سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ : أَنَّهُ دَخَلَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلى امْرَأَةٍ وَبَيْنَ يَدَيْهَا نَوًى أَوْ حَصًى تُسَبِّحُ بِهِ ، فَقَالَ ﷺ : «**أَلا أُخْبِرُكِ بِمَا هُوَ أَيْسَرُ عَلَيْكِ مِنْ هَذَا أَوْ أَفْضَلُ؟**» . ثم قَالَ ﷺ : «**سُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ مَا خَلَقَ فِي السَّمَاءِ وَسُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ مَا خَلَقَ فِي الأَرْضِ وَسُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ مَا خَلَقَ بَيْنَ ذَلِكَ وَسُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ مَا هُوَ خَالِقٌ وَاللهُ أَكْبَرُ مِثْلُ ذَلِكَ وَالْحَمْدُ للهِ مِثْلُ ذَلِكَ . وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ مِثْلُ ذَلِكَ . وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ مِثْلُ ذَلِكَ**»(١) .

وروى مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عَنْ جُوَيْرِيَةَ أم المؤمنين رضي الله عنها : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى وَهِيَ جَالِسَةٌ فِي مُصَلاَّهَا ، فَقَالَ لَهَا : «**مَا زِلْتِ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا؟**» . قَالَتْ نَعَمْ . قَالَ ﷺ : «**لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ، لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ**»(٢) .

وأخرج ابن عساكر نحو ذلك ، وجاء في آخر روايته : فذلك خير له من أن يجمع ما بين المشرق والمغرب ، ويدأب الملائكة يكتبون ، ولا يحصون ما قال .

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥٠٠) والترمذي (٣٥٦٨) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٢٦/ ٧٩) وأبو داود (١٥٠٣) والترمذي (٣٥٥٥) والنسائي (١٣٥٢) وابن ماجه (٣٨٠٨) .

ففي هذين الحديثين والكثير من أمثالهما ما يفيد أن قول أشياخنا في أذكارهم عدد كذا، أو قدر كذا، أو نحوه إنما هو من السنة الثابتة، وأن تبديعهم في ذلك هو البدعة الشنيعة، أما مسألة تحديد عدد الذكر بقدر معين عند السادة فهذا راجع إلى التجارب والروحانيات، ثم إلى أشياء منها ما يأتي:

أ- حساب الْجُمَّل والتلقي:

منهم من رجع في هذا إلى حساب الجمل(١) وهو مراتب ثلاثة، كما يقرر الأخ العابد المجاهد السيد عبد المقصود سالم، فقد ضرب لذلك مثلا باسمه تعالى لطيف فجمل الاسم (١٢٩) وهو المرتبة الأولى، فإذا أردت المرتبة الثانية ضربت الجمل (١٢٩) في عدد حروف الاسم، وهي أربعة فالناتج هو (٥١٦) فإذا أردت المرتبة الثالثة والنهائية ضربت جمل الاسم في نفسه فينتج (١٦٦٤١).

وحساب الجمل: نقل خبره ابن إسحاق وغيره من أصحاب السير والطبقات عن ابن عباس، وعن جابر بن عبد الله في قصة حيي بن أخطب وأخيه، وأنهما استخدما هذا الحساب في شأن فواتح سور القرآن، وأن النبيﷺ لم ينكر عليهما ذلك.

والجمل بضم الجيم وتشديد الميم.

وللسهيلي وغيره تعليق طيب على هذا الموضوع ختمه بقولهﷺ في هذا

---

(١) قال السيد الرائد ﷺ: هو حساب قديم متوارث في مختلف الأديان يجعل أمام كل حرف من الأبجدية عددا وله استخدامات شتى.

الموضوع : لا تصدقوا أهل الكتاب ، ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالله .

ولابن خلدون فيه قول طويل فيه اعتبار طيب لعلم هذا الحساب وكذلك كثير من علماء السلف .

ومذهبنا اعتبر هذا العلم مباحا واستخدمه كثير من الصالحين ، وانتفعوا به ولا يزالون ، فليس كل ما سبق إليه اليهود أو النصاري أو غيرهم يعتبر من الحرام .

ومن الأشياخ من يرىٰ أن يكون للمريد - مع ما يؤذن به - ورد ثابت لا يتغير ، وهذا الورد من أسماء الله الحسنىٰ ، يؤخذ مناسبا لجمل اسم الذاكر ، وقد شرحنا ذلك في رسالتنا عن الأسماء الحسنىٰ في (**المحمديات**) كما شرحه بعض الصالحين من قبل .

ومنهم من يعود بعدد الذكر إلى التلقي الروحاني ذاتيا ، أو نقلا عن الأشياخ .

ب- من سر العدد :

وللأعداد سر خاص يستفيضه من يكابده ، وأنت ترىٰ هذا السر فيما ورد في السنة الشريفة ، فمثلا نجد استغفار الصلاة ثلاثا ، والتهليل الكبير بعد الفجر والمغرب عشرا ، والاستعاذة من النار سبعا ، والتحميد والتسبيح والتكبير ثلاثا وثلاثين ، أو خمسا وعشرين مع التهليل المعتاد ، ونرىٰ الإذن بالاستغفار سبعين أو مائة ، وللصلاة على النبيﷺ أعداد ثابتة في السنة ، منها حديث : من صلىٰ علىٰ صلاة صلىٰ الله عليه بها عشرا إلىٰ آخره ، وهكذا مما يدل علىٰ أن للأمر معيارا غيبيا له قدره وخطره ، وإلا

كان التحديد النبوي للأعداد عبثا ، وحاشاه . ولك دليل عظيم في عدد ركعات الصلاة .

وربما أشبه الذكر المحدد العدد الدواء ، تنعدم فائدته عند الزيادة فيه أو النقص عن مقداره . ولسر العدد والحرف مقال يعود إلى التلقي والكشف والتجربة .

جـ- تكرار الذكر :

ولتكرار الذكر حكمة نفسية ، فالتكرار - بالإضافة إلى تحصيل مزيد من الثواب - يجهز النفس للحضور مع الله ، ويحصر الفكرة ، ويصهر القلب ويصقله ويرققه ، ثم هو يوجهه إلى المعنى ، ويستجلب الإخلاص ، ويعد القلب لتلقي النور والاستغراق ، والتمتع بأسرار الذكر وغيوبه المقدسة ، وربما صادفت مرة إخلاصها ومكانها الإلهي ، فكان فيها السر كله والفتح كله ، ولعلها المقصودة من الذكر جميعا ، وربما أدرك الذاكر في التكرار متعة روحية ، وإشراقا باطنيا يعجز عن التعبير عنه فينفعل بالمزيد من الاندماج والاستغراق ، مما لا يذوقه إلا أهلوه .

د- روحانيات الأسماء :

وقد جربنا ما قرره السادة من أن لكل اسم أو صيغة روحانية وخاصية تهيمن على الذاكر حتى تستغرق ذاته وكليته ، فيفاض عليه من عوالمها وفاعليتها ، فهو يعيش عند ذكر (**القهار**) مثلا في جو روحي يخالف تماما ما يعيشه عند ذكر (**الرحيم**) بل وربما تأثر بتجليات الأسماء تأثرا ينعكس منه على ما يتصل به من الأكوان حتى تنفعل به ، في مقام التحقق والتخلق والفناء (**كما قدمنا**) .

والشأن في الأسماء هو الشأن في الأحزاب والصيغ، وهنا كلام لا يطيقه إلا من مارس وعانى، وأحس ووجد، وذاق فعرف.

٢- هيمنة الأسماء والصفات:

ثم إن الأسماء الحسنى هي صفات الله، وصفات الله كلها سرمدية عاملة غير عاطلة، فكل ذرة في خطرة بالكون الأعظم إنما هي تحيا في هيمنة فلك اسم معين من أسماء الله، سواء في ذلك عوالم الْمَلَك أو الإنسان، أو الجن أو الحيوان، أو النبات أو الجماد أو عالم الغيب، وما يتميز وما لا يتميز.

فكل مرئي أو مسموع أو منظور أو معقول أو مغيب، فهو يسري في مقتضى حكم صفة من صفاته تعالى، والعوالم كلها تنتقل من تجلٍ إلى تجلٍ آخر، علمت أو جهلت، والموجودات كلها تمضي إلى غاياتها في ظلال لوازم هويات الأسماء والصفات، وماهياتها المقدسة ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣] وكل ذلك اقتضاء ذاتي لا يسأل عنه بكل كلمات الاستفهام، فوجود صفة الخالق تقتضي وجود مخلوق، وصفة الرزاق تقتضي وجود مرزوق، وهكذا.

٣- معارج الأذكار:

نقول: والذكر مراسلة، فمعاملة، فمواصلة، فمنازلة:

فالمراسلة ذكر اللسان وهو البداية.

والمعاملة ذكر القلب مع اللسان، فهو السلوك.

والمواصلة ذكر الروح مع القلب واللسان فهو القرب .

والمنازلة ذكر السر مع القلب واللسان والروح فهو الحضور ، ويسمىٰ ذكر الذات ، وهو الذي يكون فيه الفناء عن الفناء عند الفرق وبعد الجمع في قدس الوصول والمعرفة .

ونكرر أنه لا بد من الدليل الهادي والرائد المرشد حتىٰ يأمن السالك التيه وعثرات الطريق ، فلا شك أن كل ذاكر صادق مأجور ، كما لا شك أنه ليس كل ذاكر صادق يصل إلىٰ حضرة القدس ، والطريق طويل صعب شائك محفوف بالمتاعب والمخاطر ، وهبنا الله التوفيق إلى التمتع بذكره وسره وشكره علىٰ ذلك بإذنه وأمره .

التعبد بالأسماء الحسنى

١ - تمهيد:

اختلفت الطرق الصوفية - حسب مناهجها ومشاربها - في اختيار الأسماء التي يرجىٰ أن تكون جامعة لمعاني وأسرار بقية أسماء الله الحسنىٰ، التي كلفنا الله أن ندعوه بها، والتي أخبرنا النبيﷺ أن من أحصاها دخل الجنة تخفيفا على الناس وتيسيرا علىٰ غير المستطيع، لسبب أو لآخر.

والإحصاء عندنا: معناه التفقه فيها، والتحقق بأسرارها ومعانيها، والتمتع بلذة التعبد بها، وتحصيل أجرها، والتخلق السلوكي بمقتضىٰ مفاهيمها ومضامينها.

والأسماء الحسنىٰ منها المشهور المتداول بين المتعبدين، ومنها المأثور الذي ورد في بعض الأحاديث والآيات القرآنية، وقد نقل ابن العربي في شرح الترمذي أنها نحو ألف، وقد أفردنا لذلك بحثا مختصرا ملحقا برسالتنا المحمديات.

٢ - الأسماء السبعة، والثلاثة عشر:

وقد رأىٰ بعض الصوفية أن معاني وأسرار الأسماء كلها تلتقي في سبعة أسماء، تدور في أفلاكها مراتب النفوس السبع، على الترتيب الآتي:

أ- النفس الأمارة ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[يوسف:٥٣] وعلاجها في التهليل (**لا إله إلا الله**).

ب- النفس اللوامة ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[القيامة:٢] وعلاجها في الاسم المفرد (**الله**).

جـ- النفس الملهمة واسمها عندنا (**السوية**) ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[الشمس: ٨] وعلاجها في الاسم المضمر (**هو**).

د- النفس المطمئنة ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾[الفجر:٢٧] وعلاجها في اسمه تعالى (**حق**).

هـ-النفس الراضية ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[الفجر: ٢٨] وعلاجها في اسمه تعالى (**حي**).

و- النفس المرضية (ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً) [الفجر :٢٨] وعلاجها في اسمه تعالى (قيوم).

ز- النفس الكاملة ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[التين: ٤] وعلاجها في اسمه تعالى (**قهار**) على خلاف بسيط في ترتيب الأسماء وتوزيعها.

ولكل ذكر من هذه الأذكار مجال وأثر مخصص في عالم السير والسلوك.

وهذا هو مذهب السادات الخلوتية جميعا، وكذلك بعض الطرق المباركة الأخرى كبعض الشاذلية، وهم يسمون هذه الأسماء السبعة (**الأصول**).

وهناك أسماء أخرى تسمى الفروع، وهي مما يختاره الشيخ للمريد في الظروف والمناسبات الخاصة، وفي مدارج السلوك والمجاهدة، كالأسماء الستة التي اختارها الإمام الجيلاني كما سيأتي.

وهذه الأسماء السبعة يلقنها الشيخ لمريده بالتوارث في الأذن اليسرى، فيما عدا الاسم السابع، فيكون تلقينه في الأذن اليمنى، ولهم في ذلك

توجيه وتفصيل تربوي دقيق . مرتب على أعداد وأوقات معينة ، وتجارب صادقة مكررة .

وربما اكتفى الشيخ بتكليف المريد ، أن يذكر كل اسم منها مائة ألف مرة ، أو أقل أو أكثر ، كما يرى بنور الله ، ثم ينتقل المريد تلقائيا بعد استكمال العدد المكلف به إلى الاسم الذي يليه ، بالإذن العام - دون حاجة إلى تلقين جديد - مع كل اسم ، حتى يكون الفتح والوصول بالالتزام وكثرة التكرار ، والاستغراق في نور ذكر الله بعد الرابطة الروحية .

وهم يجعلون التعبد بالاستغفار والصلاة على النبي ﷺ مفاتيح ومداخل لذكر الأسماء المقررة ، فلا بد منها ولو في كل يوم مرة .

ولكن الإمام الجيلاني ﷺ جعل الأسماء ثلاثة عشر ، فزاد على الأسماء السبعة المذكورة اسمه تعالى :

١- واحد	٢- عزيز	٣- ودود
٤- وهاب	٥- مهين	٦- باسط

على أصول اجتهاده الروحي والتربوي .

وعلى هذا المذهب سار السادة الخليلية ، وطرق أخرى مباركة كبعض الشاذلية أيضا . بالإذن الروحي المسلسل إلى أبي الحسن .

٣- مراتب النفوس والأذكار عند الطريقة المحمدية :

وقد اختصر بعض الأئمة المحمديين الأمر ، ومنهم السيد الوالد ﷺ فجعل مراتب النفوس ثلاثا لا سبعا بحسب كشفه واجتهاده واكتفى

بالقول بالنفس الأمارة، ثم اللوامة، ثم السوية التي تسمى الملهمة، لقوله تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ - ٨] وألهمها يعني بَيَّنَ لها وعرفها.

وجعل السيد الوالد ذكر الأمارة: الاستغفار، وذكر اللوامة: الصلاة على النبي ﷺ وذكر السوية: التهليل. فكأن المريد يقطع المراتب الثلاث كلما قرأ الورد اليومي.

أما بقية مراتب النفس بعد السوية والملهمة، فهي عنده مدارج للترقي الذاتي في فلك هذه النفس السوية، فهي مرتبة واحدة ذات مقامات ومدارج ذاتية، فالنفس المطمئنة مرتبة من النفس السوية، ثم إن النفس المطمئنة عندنا قسمان:

١- **مطمئنة راضية**: وهذا هو مقام الحبية، وذكرها الاسم المضمر والمفرد معا أي (**هو الله**) في مجال الشوق ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وشأنه الخوف والقبض والتذلل والحذر والاحتياط. ومشهد هذه النفس (**الجلال الإلهي**).

٢- **مطمئنة مرضية**: وهذا هو مقام المحبوبية، وذكرها الاسم المضمر وحده (**هو**) في مجال الوله ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] وشأنه الرجاء والبسط والتدلل، والأمل في سعة الفضل الإلهي، وأكثر ما يذكر الاسم المضمر مع ياء النداء، فيقال (**يا هو**) ومشهد هذه النفس (**الجمال الإلهي**).

ثم تأتي درجة التمكين مع النفس الكاملة، وذكرها الاسم المفرد الجامع[١] (الله) فهو وعاء أسرار جميع الأسماء والصفات ما علم منها وما لم يعلم، والذاكر به ذاكر بها جميعا لأنها ترجع إليه، وكلها صفات له، فهي مفصلة لإجمال أسرار وأنواره، ولكل ذاكر به نصيب منه على قدر اجتهاده وإخلاصه، وهو مختار الشاذلية، ومشهد هذه النفس (**الكمال الإلهي**).

٤ - لفظ الجلالة والاسم المضمر:

أما الاسم المضمر (هو) فقد بوب له الإمام الفخر الرازي في تفسير الفاتحة، واستوعب كل ما جاء فيه من العبارات والرموز والإشارات، وأثبت علميا أنه ذكر الخاصة، وأنه مجمع الأسرار والأنوار والإمداد، وأنه ما لم يكن هو الاسم الأعظم، فإنه بابه أو صاحب المرتبة التي تليه لا محالة، فارجع إلى هناك فإنه هام وعظيم.

إن لفظ الجلالة عندنا علم غير مشتق فلا يسمى به بشر، وهو لا يثنى ولا يجمع، وهو يُوصَف ولا يُوصَف به، وكل اسم أو صفة لله ترجع إليه، حتى جزم كثير من السادة بأنه الاسم الأعظم. وبذكره يكتفي كثير من السادة الشاذلية، وفيه كتب ابن عطاء الله رسالته المسماة القصد المجرد في الاسم المفرد.

أساليب الذكر الصحيح

ولا بد في مزاولة ذكر الأسماء المختارة والأسماء الحسنى، بعد تفهم

(١) قال السيد الرائد ﷺ: وبهذا يكون النفس السوية ذات معارج ثلاثة: المطمئنة الراضية، المطمئنة المرضية ثم الكاملة، وهي الجامعة الشاملة.

معانيها ولو إجمالا من صحة نطقها صحة مطلقة، وتحقيق مخارج الحروف، ومراعاة المد والقصر، كُلٌّ في موضعه وبخاصة في ذكر (**لا إله إلا الله**) وفي الصيغ وفي الأسماء الأخرى، فإن الخطأ فيها قد يفضي إلى كبيرة موبقة، كما نراه في تجمعات المتصوفة والمستصوفة.

ولذكر أسماء الله ثلاثة أساليب:

أولها : نطقها مع الألف واللام، فيقال مثلا (**الرزاق، الفتاح، العليم**).

ثانيها: نطقها مجردة من الألف واللام، فيقال مثلا (**رزاق، فتاح، عليم**).

ثالثها: نطقها ملحقة بياء النداء، فيقال مثلا (**يا رزاق، يا فتاح، يا عليم**) ولكل منها سر ومقام وأثر.

١ - الذكر بالاسم المفرد والمجرد في اللغة:

وقد يسف خصوم ذكر الله فيكررون قولهم إن ذكر الاسم المفرد أو المجرد لا يفيد معنى، فهو هدر، وهذا زعم خاطئ وقح، فلن يكون اسم الله هدرا أبدا.

والذاكر الله بلفظ (**الرزاق**) أو (**رزاق**) مثلا، ملاحظ أن هذا الاسم أحد جزأي جملة خبرية، تقديرها مثلا (**الله الرزاق**) أو (**ربي رزاق**) أو نحو ذلك، فالاسم المجرد هنا خبر لمبتدأ محذوف، أو مبتدأ لخبر محذوف كما يجوز أن يكون مفعولا لفعل محذوف تقديره (**أذكر الله الرزاق**) وقد يكون الذاكر ملاحظا ياء النداء، فيكون الاسم المجرد منادي حذفت منه ياء النداء بلاغةً (**إن لم يكن قد نطق فعلا بها**) ولكل ذلك أشباه في القرآن والسنة معروفة عند أهل اللغة.

وفي حديث الصحيحين : «**لاَ تَقُومُ القيامة وعلى وجه الأرض من يقول الله الله**»[١] أي ذكرا أو أمرا ونهيا ، ولو لم يكن في الباب إلا هذا الدليل لكفى .

وفي الحديث الثابت أيضا : كانﷺ يقول في دعائه : «**الله الله رَبِّي لاَ أُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»[٢] . ولم يعترض على هذه الرواية سلف ولا خلف .

وثبت في صحاح السير : أنهﷺ كان يمر على بلال وهو يعذب ويقول (**أحد أحد**) فلم ينكر عليه بل كان يكررهاﷺ وهو الـمُشَرِّعُ الأعظم ، وهذا أوضح الأدلة على صحة هذا الذكر . أعني الذكر بالاسم المفرد .

وفي القرآن الكريم يقول تعالى ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾[الأنعام:٩١] ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[العنكبوت: ٦١] مكررة في عدة آيات وماضية على القواعد اللغوية التي أسلفنا .

والأوضاع اللغوية لفواتح السور وغيرها كلها نقول ثابتة محمولة على ما قدمنا من القواعد اللغوية والبلاغية الأصلية ، فالقول بأن الذكر بالاسم المفرد أو المجرد خطأ أو هدر ، هذا القول هو عين الخطأ وعين الهدر .

٢- الذكر بالاسم المفرد في القرآن :

أ- الله تعالى يقول ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[الإنسان:٢٥] ويقول ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾[المزمل:٨] والاسم الجامع العام

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٨/ ٢٣٤) بلفظ : عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِﷺ قَالَ : «**لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لاَ يُقَالَ فِي الأَرْضِ الله الله**» .

(٢) أخرجه أبو داود (١٥٢٥) وابن ماجه (٣٨٨٢) عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ .

الأشهر لربنا ﷻ هو (**الله**) وإليه تعود جميع الأسماء الحسنىٰ والصفات العليا .

ب- الله تعالىٰ يقول ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠] والدعاء ذكر ، والذكر دعاء . وكلاهما يشمل ترديد اسمه تعالىٰ مفردا مجردا ، كما جاءت الأسماء الحسنىٰ بالنص الصحيح الجاري على الألسن في كل الروايات مفردة مجردة .

ج- الله تعالىٰ يقول ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء:١١٠] أي اذكره تعالىٰ باسمه (**الله**) أو اسمه (**الرحمن**) أو غيرهما من أسمائه الحسنىٰ ، وكلها أسماء مفردة مجردة ، وحكم واحد منها يجري عليها جميعا .

د- الله يقول ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلىٰ:١] يعني قدس اسم ربك عن النقص في الزمان والمكان والإمكان ، والحال والمقال والأفعال ، مفسرا بقوله تعالىٰ في آية أخرىٰ ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨] والتبتل غاية الأدب وتمامه ظاهرا وباطنا .

هـ- ذكرت عبارة (**اسم الله**) في القرآن (١٩) مرة أكثر ما يراد بها الاسم المفرد ، علىٰ ما سبق بيانه .

٣- مراتب الذكر :

ولكن بعض كبار أشياخنا يرون أن الذكر بياء النداء علىٰ جلالته ومدده ، إنما هو نوع من الاستغاثة والطلب ، فكأنه منظور فيه إلىٰ مقابل أجر أو عوض وهو معنىٰ مما يغلب على المبتدئين ، الذين توجههم الآثار

إلى المؤثر ، أما غيرهم من السالكين والواصلين فإنما يشغلهم المؤثر عن الأثر ، فهم يذكرونه بالاسم المجرد من ياء النداء أو غيرها تمجيدا وعبودية ليس إلا (**مخلصين له الدين**) فهو أهل الثناء والمجد .

قالوا : وإنما يحسن الذكر بياء النداء في مقامات الطلب والابتهال والاستغاثة ، أما مقام التعبد فالأمثل الذكر فيه بغير حرف النداء ، وفي هذا المعنى مذاق رفيع .

٤- طريقة الذكر الصحيح:

ولصحة النطق في الاسم المعرف بالألف واللام أو المجرد منها ، إذا كرره الذاكر في سرعة متصلا أن يضم آخر الاسم الأول ، ويقف بالسكون على الثاني ، فيقول مثلا :

(**الرزاق – بالضم – الرزاق بالسكون**) أو (**رزاق ، بالضم والتنوين – رزاق بالسكون**) سواء بدأ هزة جسمه من اليمين إلى اليسار ، أو من أسفل إلى أعلى ، ويحافظ على ذلك حتى لا ينتهي إلى ذكر اسم شيطاني ، منحوت بالسرعة من تلاحم الأسماء المتصلة من حيث لا يدري ، فيفسد عبادته وربما انحرف وضل ، فمثلا اسمه تعالى (**عليم**) ما لم تلاحظ صحة النطق فيه على ما ذكرناه ينتقل بسرعة التكرار والتلاحم إلى (**معلي**) واسمه تعالى (**عظيم**) ينتقل إلى (**معظي**) واسمه تعالى (**لطيف**) ينتقل إلى (**فلطي**) والاسم المفرد (**الله**) ينتقل إلى (**هلا**) وهكذا . . . وربما زين الشيطان ذلك للعابد الجاهل ، فأصر عليه فخسر الدنيا والآخرة . وربما كان هذا طريق إلى عبادة الجن والشياطين .

أما في حالة الذكر بإثبات ياء النداء، فيحسن أيضا أن يضم الاسم الأول ويقف على الاسم الثاني كما قدمنا، فيقول (**يا الله - بضم الهاء - يا الله بالسكون**) وهكذا أو يقف بالسكون عليها جميعا مبالغة في الاحتياط، ففي الذكر مزالق لا يفطن إليها إلا من فقهه الله.

٥- من ذكر الجهلة:

وفي ذكر الاسم المعرف بالألف واللام متلاحما سمعت بعض المتصوفين يذكر اسمه تعالى (**الباسط الباسط**) بسرعة فيقول (**طلباسي طلباسي**) ولو أنه وقف على رأس كل اسمين كما بينا ما وقع في هذا الخطأ، والشأن في هذا الاسم هو الشأن في غيره، وهكذا، وإذا صح أن حسن النية كان شفيعا له فيما مضى فلم يعد هذا العذر قائما بعد النصيحة والبيان.

ولا أذكر مدى ما أصابني من أذي هذا الذاكر الساذج عندما أردت أن أهديه إلى سواء الصراط بالحكمة، وحجته أنه تلقي كيفية هذا الذكر عن شيخه القطب الواصل، وعندما يكون الشيخ جاهلا، أو داعيا، أو مجازفا، أو مشعوذا، أو متعصبا أو غير سابق بالعبادة، تكون بليته على الناس أشد من بلية إبليس.

التعبد بالأسماء الحسنى
لدى الطريقة المحمدية الشاذلية

إن مما اختصت به الطريقة المحمدية التعبد بالأسماء الحسنى التسعة والتسعين كلها سواء قطع الأسماء السبعة أو الثلاثة عشر أو لم يقطعها وذلك على النحو الآتي :

أ- إما أن يضيف إلى ورده اليومي الذي ذكرناه قبلا اسما منها بالترتيب كل يوم ويذكره بالعدد الذي يذكر به الورد حتى تنتهي الأسماء الـ (٩٩) ثم يعود فيبدأ، وهكذا .

أو أن يذكر مجموعة الأسماء الحسنى مرة واحدة في آخر الورد اليومي، منثورة أو منظومة كل ليلة بعد الورد .

ب- فإن لم يستطع خصص لها رجب وشعبان ورمضان وصدر شوال سنويا، بحيث يذكر في كل ليلة اسما مع الورد بالعدد الذي يقدر عليه ويحسن ألا يقل عن الألف حتى تنتهي، وكلما زاد في العدد زاد في الفضل .

جـ- فإن لم يستطع خصص لها رمضان وصدر شوال بحيث يذكر في كل ليلة ثلاثة أسماء مع الورد اليومي، وهذا من أهم ما يحافظ عليه إخواننا مع التأكيد عليه والله المستعان .

أما المجتهدون الذين تمكنهم الظروف من الإخوة والأخوات فلهم أن يكرروا الاسم الواحد من الأسماء الحسنى ما بين ألف وعشرة آلاف مرة،

ويجوز أكثر من ذلك ، بحيث يملأ الذكر كل أو أكثر فراغ الأخ أو الأخت قائما أو قاعدا أو ماشيا وفي كل مكان ، ثم ينتقل إلى الاسم الذي يليه بنفس العدد الذي ذكر به الاسم السابق وهكذا ، حتى تنتهي الأسماء الحسنى ، ثم يعود مبتدئا من جديد - مع توجيه الشيخ ورعايته ما أمكن - على ألا يعطله ذلك عن مطالب دنياه وأسرته .

ملاحظتان :

الأولى : عند ذكر الأسماء المتقابلة أو المزدوجة : يحسن الجمع في الذكر بين الاسمين المتقابلين مرة واحدة ، كل منهما في موضعه فيقال مثلا (**القابض الباسط**) وكذلك (**الخافض الرافع**) وهكذا (**المعز المذل**) و (**المحيي المميت**) و (**المقدم المؤخر**) و (**الضار النافع**) وأمثالها في نفس واحد أثناء التعبد ، سواء كان الذكر بإثبات الألف واللام ، أو بغيرهما أو بياء النداء .

الثانية : أن الله أمرنا بأن نذكره بالأسماء الحسنى كلها قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف :١٨٠] فحافظ على أن تكون من أهل هذا الخطاب ، واسأل الله ألا يحرمك سره ومدده ، أما السادة الذين يكتفون بالأسماء السبعة المشهورة أو الثلاثة عشر فقط كما قدمنا فلهم في ذلك اجتهاد خاص حيث يرون أنّها تجمع معاني وأسرار بقية أسماء الله ، والله أعلم .

قضية الخلوة إلى الله

قضية الخلوة إلى الله

١ - مشروعية الخلوة وأسرارها :

أصل الخلوة عند الصوفية هو استحباب الاعتكاف كما جاء الندب إليه في الإسلام ، والخلوة نوع من الفرار إلى الله ، وقد ألزمنا الله به فقال ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الذاريات :٥٠] وهي هجرة إليه تعالى ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ﴾ أي مهاجر ﴿إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الصافات :٩٩] وقد كان الاعتكاف أو الخلوة سنة ماضية في الأديان السابقة ، فموسىٰ واعد ربه ثلاثين ليلة ، ثم تمت بعشر ، فتم ميقات ربه أربعين ليلة . ومريم ابنة عمران ، وكان لها اعتكافها وميقاتها في المحراب . وكان ليحيى اعتكافه وميقاته ثلاث ليال سويا . وكل ذلك ثابت في كتاب الله فالخلوة ذهاب وفرار وهجرة إلى الله كما قال إبراهيم ولوط من قبل .

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ اختلىٰ قبل البعثة في حراء ، كما كان يختلي بعد البعثة في العشرين أو في العشر الأواخر من رمضان ، وربما في غيرها كذلك ، فأصبحت الخلوة سنة نبوية من سنن الهدىٰ الثوابت .

٢ - الخلوة لماذا ؟

إذن فدين الله أن يخلو العبد القادر المستطيع إلىٰ ربه فترة ترويض ورياضة ، يتخلص فيها من عقده وأزماته ورواسبه النفسية ، ويتطهر فيها من خطاياه وآثامه ونزواته ويتضلع فيها بشحنة الإيمان واليقين والقرب من الله ، فيخرج وقد صفا قلبه ، واستنار باطنه ، وانسلخ من أمراضه القلبية والنفسية والخلقية ، إن صح توجهه إلىٰ الله وخلصت نواياه في

خلوته، بل إنه لينسلخ تبعا لهذا من بعض أمراضه الجسمية والبدنية كذلك، فكأنما ولد ولادة أخرى إن وفقه الله، إضافة إلى الشحنة الإيمانية التي يحصلها.

ومتى ما ثبت أن الخلوة علاج روحي للأمراض النفسية والخلقية، ثم هي علاج للأمراض الجسمية المترتبة على الأزمات والعقد والانفعالات المختلفة. فقد علمت أن الخلوة بالتالي نوع من عزل المريض حتى يشفى، فلا يعدي غيره خلقيا ولا نفسانيا، ولا يتعرض هو للهلاك شأن الأمراض الجسمية المعدية سواء بسواء.

وشر الأمراض أمراض الباطن، وشر الآثار آثارها المدمرة، وشر الموتى موتى الأحياء.

٣- فوائد الخلوة:

أما خلوة السليم فإنما هي لمضاعفة الشحنة الإيمانية، والترقي في معارج القرب وطلب مفاتيح المدد، أو على الأقل زيادة طاقة اليقين والعلاقة بالله في نفس المريد شأن خلوة الرسولﷺ في رمضان، وبهذا تصبح الخلوة ضرورة إنسانية.

وكما يؤكد أطباء الصحة الجسمية والنفسية ضرورة تعيين يوم دوري للراحة والاستجمام، فكذلك يقرر أطباء الأرواح ضرورة تعيين فترة للتخلص من كافة الرواسب والمشاغل والشواغل، والمهام والهموم، والانصراف المطلق إلى الله، والاستمداد من الطاقة المقدسة للتخلص من المتاعب والإجهادات والمعايب المعنوية والعودة إلى مواجهة الحياة بما هي

أهله من حيوية وفهم وطاقة ورشد، ونظافة وإنتاج حسي ومعنوي .

فليس أمر الخلوة كما يفهمه المتحاملون والحمقى نوع من الانطواء والسلبية والضعف، أو الهروب من مواجهة مرارة الواقع أبدا، إنما الخلوة استعداد وتدريب وتربية إيجابية، وقوة ومصابرة وكفاح مرير، لا يعرفه إلا ممارسوه، ولو أن أحدا من أولئك القَوَّالين حاول اعتكاف وخلوة يوم واحد على متعارف الصوفية لما أطاق، ولفر فرار الجدي الجبان من الأسد .

٤ - الشروط العامة للخلوة:

وعند المحمديين : أن شرط الخلوة هو شرط الاعتكاف فقد أخرج البيهقي وأبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت : **السُّنَّةُ عَلَى الْـمُعْتَكِفِ أَنْ لاَ يَعُودَ مَرِيضاً وَلاَ يَشْهَدَ جَنَازَةً وَلاَ يَمَسَّ امْرَأَةً وَلاَ يُبَاشِرَهَا وَلاَ يَخْرُجَ لِحَاجَةٍ إِلاَّ لِمَا لاَ بُدَّ مِنْهُ وَلاَ اعْتِكَافَ إِلاَّ بِصَوْمٍ وَلاَ اعْتِكَافَ إِلاَّ فِي مَسْجِدٍ جَامِعٍ**(١) .

وشرط المسجد الجامع هنا مقيد بما إذا كان الاعتكاف لمدة أيام تتخللها صلاة الجمعة، فإذا اعتكف في غير المسجد الجامع خرج لصلاة الجمعة وجوبا، وإلا فاعتكافه في غير المسجد الجامع صحيح .

وذلك خلافا للمرأة فإنها تعتكف حيث شاءت لعدم فرضية الجمعة في حقها، ومسجد بيتها أولى بها، فإذا فضلت الاعتكاف في المسجد عند عدم الفتنة أو عدم السمعة والرياء ضربت لنفسها خباء خاصا فيه، كما ثبت

(١) أخرجه أبو داود (٢٤٧٣) والبيهقي في الكبرى (٤/ ٣٢١) .

عن أمهات المؤمنين أنهن ضربن الأخبية في المسجد لما أردن الاعتكاف فيه، ولم ينكر عليهن رسول الله ﷺ ذلك.

وكذلك الرجل المعتكف في المسجد أو المتخلي إذا لم يضمن شتات قلبه ونفسه أو خاف الرياء والسمعة، أو نحو ذلك ضرب لنفسه خباء في المسجد كما كان يفعله رسول الله ﷺ وقد رواه أحمد ومسلم وابن ماجه وأبو داود وغيرهم.

ومن المتعين على المختلي أن يؤدي قبل خلوته جميع التزاماته المادية والأدبية نحو عمله ونحو أهله خاصة والناس عامة، فلا تكون خلوته سببا في تضرر غيره بشيء من خلوته ولا في انشغاله هو عن الله بشيء، ولهذا الشرط أهمية لا حد لها.

٥- توقيت الخلوة ووظيفتها الإنسانية:

ثم إن توقيت الخلوة وميقاتها موكول للمرشد الذي يزن جميع ظروف المريد وتحمله واحتمالات حياته، وملابساته الاجتماعية والشخصية والنفسية، والعائلية والروحية العامة والخاصة، وإن كانت السنة في أواخر رمضان.

فالخلوة إذن إحدى وسائل المحافظة على الكرامة الإنسانية وعلى الصحة الجسمية والنفسية، وعلى المعالم الدينية والروحية، وعلى المصالح الوطنية والقومية والتقدمية، وهكذا ينكشف للناس المفهوم الواقعي الأصيل للكرامة الإنسانية والإسلامية في مدلولات التصوف الإسلامي ومجاهداته، كلما عميت عليهم أو كلما استعصت بحكم الجهل والمادية،

فتخبط في إدراكها الناس بين الشباب والمشيب، أو من الجهل والتعصب والتسلف المريب.

٦- أنواع الخلوة:

وكذلك تختلف حال الخلوة عندنا باختلاف حالات الناس وباختلاف ما يراه المرشد الطبيب الرباني ملائما لكل أخ لاختلاف الظروف والمناسبات والقابليات وغيرها، فعندنا:

١- الخلوة الكاملة. ٢- والخلوة الجزئية.

٣- وخلوة الجلوة.

أ- فالخلوة الكاملة:

انعزال مطلق للعبادة إلى مدة ما، ولو في العمر مرة، إن لم يمكن التكرار لتحصيل الفضل، وتكون في مكان صالح لذلك، والمسجد أولى، على أساس الذكر المعهود به إلى المتخلي بشروطه المقررة من شيخه، وأقلها من ثلاثة أيام إلى أسبوع، وأوسطها بين أسبوع وثلاثة أسابيع، وأكبرها بين أربعين وسبعين يوما، فإذا كانت في رمضان فالسنة الثابتة بين عشرة الأيام أو العشرين الأخيرة، وهي ميقات النبيﷺ أما ميقات موسى فكان كما ذكره القرآن أربعين ليلة، وميقات زكريا ثلاث ليال.

ب- والخلوة الجزئية:

هي الانعزال للعبادة يوميا في مكان معين، لوقت معين ولو بعض ساعة، بعد الفراغ من قضاء مطالب الحياة اليومية المعتادة، وشروطها:

حفظ الجوارح والقلب تماما عن محارم الله، أثناء الوجود مع الناس، والإسراع بالتوبة لمجرد الشك في مقارفة خلاف الأولى، مع الانشغال الدائم بالذكر المختار أيًّا كان، وأين كان، إن صمت اللسان فالقلب على ذكره مقيم مع دقاته لا ينقطع، والتدريب على ذلك يسير بإذن الله.

جـ- وخلوة الجلوة:

هي استمرار انشغال القلب بالذكر مع القيام بمطالب الحياة المعتادة، مع عدم مغايرة شيء منها (**قلب مع الخالق، وجسم مع المخلوق**) حتى يكون (**الجمع في جنانه، والفرق في لسانه**) وشروطها: حفظ الجوارح كما أسلفنا أثناء الوجود مع الناس، وليس فيها عزلة على الإطلاق، لا كلية ولا جزئية إلا بقدر مقدور، كلما أمكن ذلك بحسب ظروف المريد وطاقاته، وهذا متروك له، ويكفي أن ينوي العبادة بكل قول وعمل.

عدد الذكر في الخلوة:

وعلى صاحب الخلوة الجزئية، وخلوة الجلوة - إذا كان مكلفا بعدد محدد من الذكر - أن يعمل لنفسه مقياسا، ليعلم متوسط عدد ذكره المعهود به إليه في الساعة الزمنية الواحدة، حتى لا يشغل نفسه بالعد على المسبحة فَيُسْتَهْدَفُ لما لا موجب له أثناء عمله الدنيوي، ووجوده بين الخلق.

نعم إن للعدد سرا خاصا، لكنه يكفي متوسط العدد التقريبي هنا تجاوزًا.

ويكون حساب ذكره بحسب عدد الساعات أو أجزائها مضروبا في متوسط الذكر في الساعة الواحدة كما جربه وعرفه من نفسه، فيسهل عليه الذكر بلا عد على المسبحة.

كيفية دخول الخلوة:

وأهم آداب الخلوة : تمام إخلاص النية ، واستحضار ما يلزمه من طعام وشراب ومتاع ضروري مدة الخلوة، ثم ملازمة الصوم، والاكتفاء بالقليل من الطعام، والمنام والانصراف بكليته عن مشاغل الحياة الدنيا ، اعتمادا على الله وتوكلا عليه وتفرغا لعبوديته ، فإذا عزم :

أولا : حلل نفسه من حقوق الناس عليه .

ثانيا : جهز لأهله كل ما يحتاجون إليه أثناء مدة خلوته ، كأنه بينهم .

ثالثا : دبر أمر عمله أو وظيفته أو تجارته ، حتى لا تتوقف أو تضطرب ، ثم اغتسل بنية الاعتكاف والخلوة، وتعطر ثم صلى ركعتي التوبة، وبقية شروط التوبة هي شروط السنة في الاعتكاف الشرعي والبدء من صباح الجمعة أفضل .

ثم يخرج إلى المسجد منيبا خاشعا ضارعا ، فإذا دخله صلى ركعتيه صلاة مطمئنة متقنة ، وقرأ الكهف لما ورد من أنّها السنة في هذا اليوم ، أو قرأ ما تيسر من القرآن - وعندنا دائما نعني بتكرار سورة الإخلاص في كل مقام لمن لا يستطيع قراءة غيرها من القرآن - لما ورد فيها من ترغيب صحيح جليل .

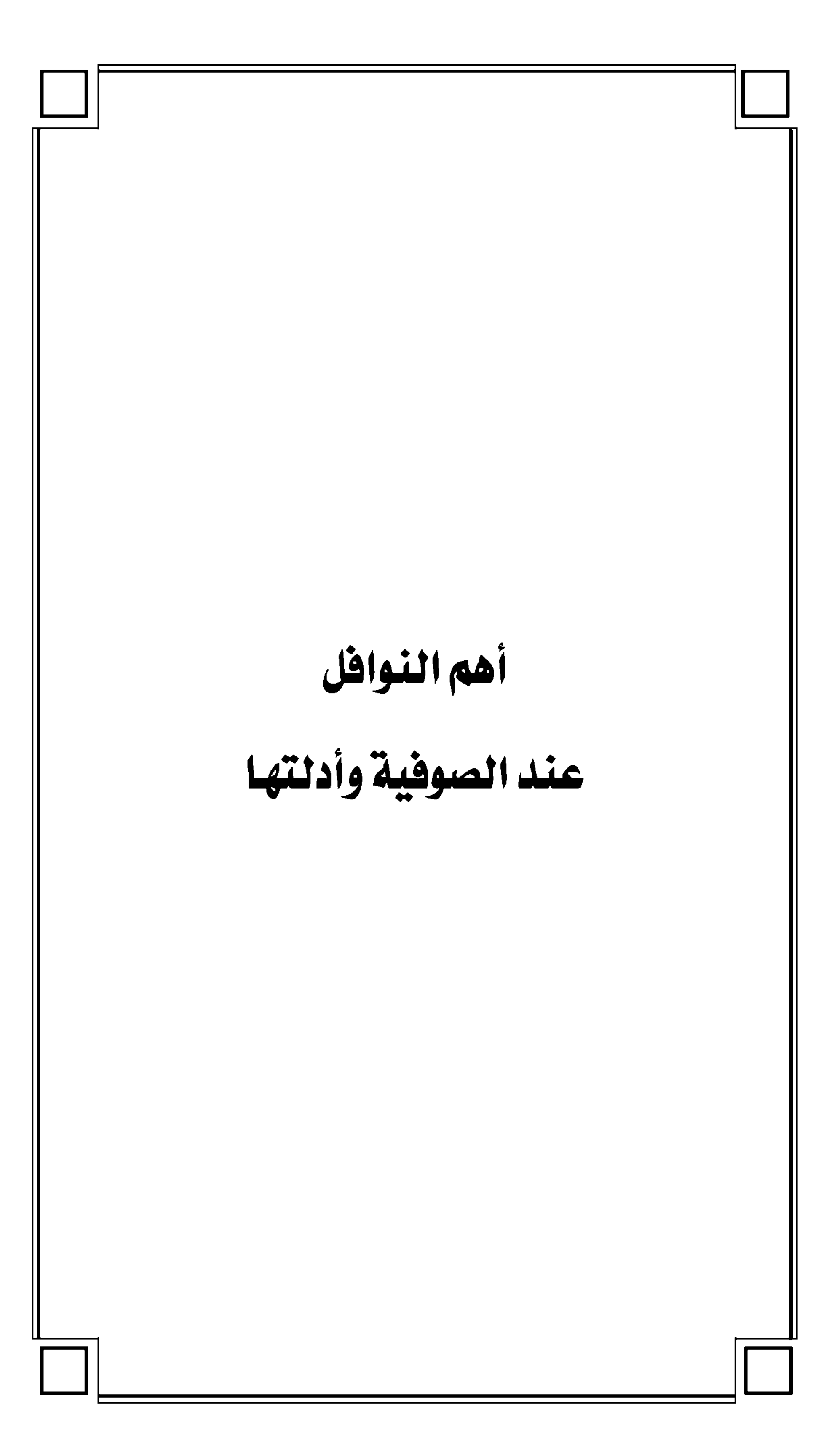
ويلازم العابد بعد قراءة سورة الكهف الصلاة على النبي ﷺ مستحضرا روحه الشريفة وأرواح أشياخه معه مقبلا في موكبهم على الله بلا حجاب، ولا وساطة بينه وبين الله حتى يؤذن للجمعة، وتنتهي شعائرها الإلهية، فيختم الصلاة ويدعو بالمغفرة والتوفيق والقبول، ثم

يودع مرافقيه، ويتجه إلى خلوته **(حيث تكون الخلوة)** محافظا على ألا يقع في مخالفة أثناء الذهاب إليها، ليقضي فيها ما شاء الله.

التعبد في الخلوة:

فإذا كانت الخلوة عامة جعل جوف الليل للتهجد والتسبيح والاستغفار، وبعد صلاة الفجر للقرآن، وبعد صلاة الضحى للصلاة على النبيﷺ وبعد صلاة الظهر للتهليل الأكبر: لا إلا الله وحده لا شريك له... إلخ، وبعد صلاة العصر للذكر الجامع: سبحان الله والحمد لله... إلخ، وبعد المغرب للتنفل بالصلاة المسنونة، وبعد العشاء يذكر الاسم المفرد (**الله**) بقدر ما شاء الله له، ويردد مجموعة الأسماء الحسنى كلها عدة مرات، ما لم يؤذن بعدد مخصوص لبعض الأسماء أو الصيغ فيلازمه ليدرك أسراره وبركاته ويجعل فيما بين كل ذلك فترات للراحة يملؤها بالدعاء والتعبد بالأحزاب لما ورد فيها، والتفكر في خلق السموات والأرض، وفي الآخرة والأولى، وفي نفسه وأسرارها، وما يجب عليه من تزكيتها، وما ينتظره من نعيمها وعذابِها، مستظهرا حق الله عليه، وكيف يؤديه في موكب الحياة جميعا، حتى يقوم برسالته كاملة.

فإذا كان ينوي الخلوة لخدمة اسم معين من أسماء الله، أو صيغة أو ورد خاص اكتفى في خلوته بأداء الفرائض والنوافل والأوراد الحتمية، ثم ملأ كل الوقت بذكر الاسم المختار، وأكثر الشاذلية يختلون بالاسم المفرد (**الله**) وبعض السادة يقسمون الأسماء السبعة أو الأسماء الحسنى على أيام الخلوة، وللشيخ في ذلك نظر وتوجيه ولكل مريد حكم خاص، قد يشابه غيره أو لا يشابِهه، والله الموفق المستعان.



أهم النوافل

عند الصوفية وأدلتها

أهم النوافل عند الصوفية وأدلتها[١]

أولا : صلاة التسابيح

رويت صلاة التسابيح بصورتِها المعروفة عن جماعة عديدة من ثقاة المحدثين يقوي بعضهم بعضا ، ومن أصح وأحسن أسانيدها ما رواه أبو داود وابن خزيمة في صحيحه وابن ماجه عن عكرمة وقد صححه المقدسي والآجري وأبو محمد عبد الرحيم المصري وغيرهم ، وقد رواه الطبراني من هذا الطريق بزيادة دعاء بعد التشهد ، وقبل السلام .

وكذلك وردت صلاة التسابيح من حديث ابن عباس وأخيه الفضل ، وأبيهما العباس رضي الله عنهم .

ووردت كذلك من حديث عليٍّ ، وأخيه جعفر وابنه عبدالله عليهم الرضوان .

ووردت من حديث أم سلمة ، وأنس ، وعبدالله بن عمر ، وأبي رافع ، كما وردت من مرسل إسماعيل بن رافع ، وغيره .

١ - صحة رواياتِها :

وقد نص على صحة حديث صلاة التسابيح أكثر من محدث ثبت ثقة ، منهم : المديني وابن منده ، والسمعاني ، والحافظ المنذري ، وابن حجر ، وابن الصلاح ، والتقي السبكي ، والبلقيني ، والزركشي ، والأذرعي ،

(١) راجع في ذلك رسالة أمهات الصلوات النافلة للسيد الرائد ﷺ .

وابن المفضل، والعلائي، والتاج ابن التقي السبكي، وآخرون.

وقد نقل النووي في الأذكار(١) عن الإمام الدارقطني قوله: أصح شيء في فضائل السور فضل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وأصح شيء في فضائل الصلوات صلاة التسابيح.

قال النووي: وقد نص جماعة من أصحابنا على استحباب صلاة التسابيح، منهم: أبو محمد البغوي، وأبو المحاسن الروياني.

وفي الترشيح قال التاج السبكي: من يسمع عظيم الثواب الوارد فيها، ثم يتثاقل عنها فما هو إلا متهاون في الدين، غير مكترث بأعمال الصالحين ولا ينبغي أن يعد من أهل العزم في شيء.

وقال أبو عثمان الحيري: ما رأيت للشدائد مثل صلاة التسابيح.

وقد ورد أنّها وسيلة مكفرة للذنوب، مفرجة للكروب، ميسرة للعسير، يقضي الله بِها الحاجات، ويؤمن بِها الروعات، ويستر العورات.

وقد أفرد الداراني والخطيب لصلاة التسابيح كتابا أوردا فيه طرق أحاديث هذه الصلاة وثبوتَها.

كما أفرد أبو موسى المديني، وابن منده، لتصحيح حديثها جزءا خاصا وللتاج السبكي في ذلك كتاب الترشيح لصلاة التسبيح من خير ما في هذا الباب.

---

(١) راجع الأذكار للنووي (١/ ٤١٢).

٢- رد الطعن عليها:

ولم يطعن في صحة هذه الصلاة غير ابن الجوزي، وهو معروف بالتعنت، ثم وافقه ابن تيمية، وهو معروف بالاندفاع، ودليلهما هنا أوهي من أن يقاوم أدلة كل من ذكرنا من أئمة الحديث فحكمهما هنا ومن تابعهما ساقط الاعتبار نِهائيا، أما مقلدوهم فلا نظر إليهم، فأكثرهم طلاب شهرة ومال وفتنة وتعصب.

وقد ثبت أن طائفة من أئمة السلف كانت تواظب على هذه الصلاة وتحث عليها، منهم: عبد الله بن المبارك، وأبو الجوزاء البصري، وابن أبي داود، وحسبك بأمثالهما قدوة وإمامة وهذه صلاة نافلة، من شاء فعل، ومن شاء ترك.

أما أن هذه الصلاة تخالف في بعض هيئتها صورة بقية الصلوات، فليس هذا عجيبا لأنّها صلاة خاصة، شرعت لغرض خاص، كصلاة الكسوف والخسوف والعيدين ونحوهما ففيها مخالفة لصورة الصلاة المعتادة، بل إن في بعض الصحاح والسنن جواز أن يكون في كل ركعة من الصلوات الخاصة ركوعان وثلاثة وأربعة وخمسة، لأنّها صلاة مستقلة متميزة شرعت لغرض خاص مستقل.

٣- صفتها وفضلها:

أما صفة هذه الصلاة وفضلها فهي كما جاء في نص حديث ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ ﷺ قَالَ لِلْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ: «**يَا عَبَّاسُ يَا عَمَّاهُ أَلاَ أُعْطِيكَ أَلاَ أَمْنَحُكَ أَلاَ أَحْبُوكَ؟ أَلاَ أَفْعَلُ بِكَ عَشْرَ خِصَالٍ، إِذَا أَنْتَ**

فَعَلْتَ ذَلِكَ غَفَرَ اللهُ لَكَ ذَنْبَكَ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ قَدِيمَهُ وَحَدِيثَهُ خَطَأَهُ وَعَمْدَهُ صَغِيرَهُ وَكَبِيرَهُ سِرَّهُ وَعَلانِيَتَهُ؟ أَنْ تُصَلِّيَ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ - أي بتسليمة واحدة - تَقْرَأُ في كُلِّ رَكْعَةٍ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَسُورَةً - يعني أية سورة شئت - فَإِذَا فَرَغْتَ مِنَ الْقِرَاءَةِ فِي أَوَّلِ رَكْعَةٍ وَأَنْتَ قَائِمٌ - أي بعد القراءة مباشرة وقبل الركوع - قل : سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ خَمْسَ عَشْرَةَ مَرَّةً ، ثُمَّ تَرْكَعُ فَتَقُولُهَا وَأَنْتَ رَاكِعٌ - بعد التسبيح المعتاد في الركوع - عَشْرًا - أي من التسبيح المذكور - ثُمَّ تَرْفَعُ رَأْسَكَ مِنَ الرُّكُوعِ - قائلا سمع الله لمن حمده . . . إلخ - فَتَقُولُهَا - أي التسبيحات المذكورة - عَشْرًا ، ثُمَّ تَهْوِى سَاجِدًا فَتَقُولُهَا - أي بعد التسبيح المعتاد في السجود - عَشْرًا - من التسبيحات المذكورة - ثُمَّ تَرْفَعُ رَأْسَكَ مِنَ السُّجُودِ فَتَقُولُهَا عَشْرًا - أي بعد التسبيحات المعتادة في السجود - ثُمَّ تَسْجُدُ فَتَقُولُهَا عَشْرًا ثُمَّ تَرْفَعُ رَأْسَكَ مِنَ السُّجُودِ فَتَقُولُهَا عَشْرًا - يعني وأنت جالس القرفصاء أو جلسة الصلاة في الاستراحة الخفيفة المأثورة بين السجود والقيام - فَذَلِكَ خَمْسٌ وَسَبْعُونَ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ تَفْعَلُ ذَلِكَ فِي أَرْبَعِ مرات - أي في الأربع الركعات - فيتحصل منها ثلاثمائة .

٤ - تأكيد فعلها :

ثم قال ﷺ للعباس رضي الله عنه : «إِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تُصَلِّيَهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مَرَّةً فَافْعَلْ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَفِي كُلِّ جُمُعَةٍ مَرَّةً فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَفِي كُلِّ شَهْرٍ مَرَّةً فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَفِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَفِي عُمُرِكَ مَرَّةً»(١) .

(١) أخرجه أبو داود (١٢٩٧) .

٥ - القراءات بالسور ذوات الخصائص :

وعندنا يتحسن أن يقرأ المتعبد في هذه الركعات الأربع بعد الفاتحة بسورة مما جاء أنّها نصف أو ربع ، أو ثلث القرآن ليحصل قدر من الثواب .

فمثلا : يقرأ في الركعة الأولى بسورة الزلزلة ، وقد روي الترمذي وجماعة أنّها تعدل نصف القرآن .

ويقرأ في الركعة الثانية بسورة الكافرون ، وقد روي البيهقي وجماعة أنّها تعدل ربع القرآن .

ويقرأ في الركعة الثالثة بسورة النصر ، وقد روي البيهقي أيضا وآخرون أنّها تعدل ربع القرآن .

ويقرأ في الركعة الأخيرة بسورة الإخلاص ، وقد روي البخاري وغيره أنّها تعدل ثلث القرآن .

هذا بالإضافة إلى سورة الفاتحة ، وقد ثبت أنّها أم القرآن ، والسبع المثاني ، والرقية الكبرى ، والشفاء من كل داء ، وأنّها تعدل ثلث القرآن ، كما رواه الترمذي وجماعة ، فيتحصل له من القراءة وحدها ثواب قراءة القرآن مرتين وأكثر من النصف إن شاء الله لمن وفقه الله .

ويستحسن أيضا أن يعين المتعبد بِهذه الصلاة وقتا محددا من كل أسبوع ، أو شهر بحسب سعة وقته في وقت مبارك كليلة الاثنين أو الجمعة أو ليالي الله ، ولو في العمر مرة .

ثانيا: صلاة الحاجة

وهي الصلاة التي يتوسل بِها العبد إلى مولاه فيما أهمه، ليقضي الله حاجته بفضله، ويهيئ السبيل الكوني المتبع بين الناس له بقدرته، فهي من أنواع التوسل بالعمل الصالح.

١- دليلها:

أ- روي الترمذي بسنده عَنْ عُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ أَنَّ رَجُلاً أعمىٰ أَتَي النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إني أصبت في بصري فادْعُ الله لي، قال ﷺ: «**اذهب فتوضأ وصل ركعتين، ثم قل اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، يا محمد إني أستشفع بك على ربي في رد بصري. قال قال: فما لبث الرجل أن رجع كأن لم يكن به ضر قط. ثم قال** ﷺ: «**وإن كانت لك حاجة فافعل مثل ذلك**»[١]. تأمل. وفي بعض روايات الحديث خلاف يسير في الألفاظ، ليس بذي بال.

ب- وأخرج الطبراني في معجمه الصغير والكبير: أن رجلا كانت له حاجة عند أمير المؤمنين عثمان بن عفان، وما كان عثمان يهتم بشأنه - أي في خلافته بعد وفاة النبي ﷺ - فلقي الرجل عثمان بن حنيف، فشكا له، فعلمه صلاة الحاجة المذكورة، ففعل الرجل ثم أتي عثمان ابن عفان، فأكرمه وقضى حاجته، ثم لقي هذا الرجل عثمان بن حنيف، فشكر له ظنا منه بأنه أوصى به عثمان بن عفان. فقال عثمان

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٧٨) بنحوه وقال: حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ.

ابن حنيف للرجل : والله ما كلمته ولكني شهدت رسول الله ﷺ وأتاه ضرير ، وقص عليه القصة السابقة[١] .

والحديث صحيح على شرط الشيخين كما رواه الترمذي وابن ماجه والطبراني والبيهقي والحاكم ، وأقر صحته الحافظ الذهبي وتابعه ابن تيمية نفسه على صحته ، وأخرجه البخاري في التاريخ كما نص على صحته نحو خمسة عشر حافظا رضي الله عنهم .

جـ- وفي كتاب الترمذي وابن ماجه قال ﷺ : **«مَنْ كَانَتْ لَهُ إِلَى اللهِ حَاجَةٌ أَوْ إِلَى أَحَدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ فَلْيَتَوَضَّأْ وَلْيُحْسِنِ الْوُضُوءَ ثُمَّ لْيُصَلِّ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ لْيُثْنِ عَلَى اللهِ - أي بالتحميد والتسبيح والتكبير ونحوه - وَلْيُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ لْيَقُلْ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ ، سُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَـمِينَ ، أَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ وَالْغَنِيمَةَ مِنْ كُلِّ بِرٍّ ، وَالسَّلاَمَةَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ لاَ تَدَعْ لِي ذَنْبًا إِلاَّ غَفَرْتَهُ ، وَلاَ هَمًّا إِلاَّ فَرَّجْتَهُ وَلاَ حَاجَةً هي لَكَ رِضًا إِلاَّ قَضَيْتَهَا يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ»**[٢] .

وله أن يزيد من الأدعية المأثورة ومن غيرها ما يشاء مما يوافق حاجته .

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ٣٠) .

(٢) أخرجه الترمذي (٤٧٩) وقَالَ : حَسَنٌ غَرِيبٌ . وابن ماجه (١٣٨٤) .

٢ - الخلاصة :

فمن كانت له عندالله حاجة لازم هذه الصلاة ولو مرة في كل ليلة ، أو في كل يوم مكررا ذلك ، باحثا عن الأسباب العادية الكونية حتى يهيئ الله له السبب الذي تقضي به حاجته بفضله ورحمته ، فذلك هو حقيقة التسليم والتوكل .

وعليه أن يدعو بعد هذه الصلاة بالدعاء السابق ، ويضيف إليه دعاء الضرير المذكور في الحديث الأسبق مع إلحاحه في الدعاء بحاجته الخاصة .

ومن المستحسن أن يقنت بعد الركوع في الركعة الثانية ، فهو من السنة الثابتة في الشدائد ، وهو هنا أمثل وأفضل .

وكما تجوز صلاة الحاجة انفردا تجوز في جماعة يهمهم الأمر .

ثالثا : صلاة الاستخارة

١ - ثبوت سنتها :

أ- أخرج أحمد والحاكم وأبو يعلى وابن حبان والبزار بسند جيد والترمذي من حديث سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ عنهﷺ قَالَ : «**مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ اسْتِخَارَتُهُ اللَّهَ ، وَمِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ رِضَاهُ بِمَا قَضَاهُ اللَّهُ ، وَمِنْ شِقْوَةِ ابْنِ آدَمَ تَرْكُهُ اسْتِخَارَةَ اللَّهِ ، وَمِنْ شِقْوَةِ ابْنِ آدَمَ سَخَطُهُ فيما قضاه اللَّهُ**»(١) .

ومن الثابت قولهم : لا خاب من استخار ولا ندم من استشار .

وهي صلاة مستحبة عند الجمهور والجمع بين الاستخارة من الله والاستشارة من الناس من تمام الجمع بين طرفي السنة ، قال قتادة : ما شاور قوم يبتغون وجه الله إلا هدوا إلى أرشد أمرهم .

ب- روى البخاري من حديث جَابِرٍ ﷺ قَالَ : كَانَ رسول اللهﷺ يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ في الأُمُورِ كُلِّهَا(٢) .

قال الشوكاني : هذا دليل على العموم وأن المرء لا يحتقر أمرا لصغره ،

(١) أخرجه الترمذي (٢١٥١) وقال : حديث غريب . وأحمد (١/ ١٦٨ ، رقم١٤٤) قال الحافظ في «فتح الباري» (١١/ ١٨٤) : سنده حسن وأصله عند التِّرْمِذِيّ لكن بذكر الرضا والسخط لا بلفظ الاستخارة ، والحاكم (١/ ٦٩٩ ، رقم ١٩٠٣) وقال : حديث صحيح الإسناد . وأبو يعلى (٢/ ٦٠ رقم ٦٠١) والبزار (٣/ ٣٠٥ رقم ١٠٩٧) .

(٢) أخرجه البخاري(٦٣٨٢) .

وعدم الاهتمام به، فيترك الاستخارة، ولذلك قالﷺ: «**وليَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حتى شِسْعَ نَعْلِهِ**»[١].

وقد كان السلف يطلبون من الله حتى ملح الطعام وما هو أقل منه، ثم يأخذون في الأسباب.

٢- كيفيتها والقراءة فيها:

أما كيفيتها كما رواها البخاري عن رسول اللهﷺ قال: «**إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ**». أي يصليهما سنة نافلة بنية الاستخارة، ويقرأ فيهما بما شاء، وقد فضلوا أن يكون ذلك قبل النوم مباشرة فقد تصادفه رؤيا صادقة وهي جزء من النبوة.

قالﷺ: «**ثُمَّ لِيَقُل**». أي بعد الصلاة، وهو على جلستها مستقبلا القبلة، مستحضرا حاجته إلى الله الدعاء الآتي:

٣- دعاؤها:

«**اللهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلاَ أَقْدِرُ وَتَعْلَمُ وَلاَ أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ، اللهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ - ويجوز أن يسمي حاجته أو يكتفي بنيته والله أعلم بها - خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ -**

(١) أخرجه الترمذي (٣٩٦٢) عَنْ أَنسٍ وقال: حديث غريب.

فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ أَرْضِنِي»(١) .

ويجوز تكرار هذا الدعاء في هذه الجلسة فإن النبيﷺ كان يحب تثليث الدعاء، حتىٰ إذا انشرح صدره إلىٰ أحد طرفي الأمر مضىٰ فيه، علىٰ اسم الله وبركته .

٤ - معلومات عنها :

وأباح شيوخنا تكرار عمل الاستخارة إلىٰ ثلاث مرات في ثلاث ليال، بل إلىٰ سبع مرات، كما نقله ابن السني وغيره عن أنس، إذا لم يتضح أمره وينشرح صدره لأحد حاليه، قال الإمام النووي : ينبغي أن يفعل بعد الاستخارة ما ينشرح له، ثم قال : بل ينبغي للمستخير ترك اختياره رأسا، وإلا فلا يكون مستخيرا، وقال : فإذا صدق في ذلك تبرأ من الحول والقوة ومن اختياره لنفسه .

قلنا : وعلينا ممارسة الأسباب الكونية مع الاستخارة، وما قدر يكن .

(١) أخرجه البخاري (١١٦٢) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّه .

رابعا: صلاة التوبة

١- التوبة لمن:

يقول النبي ﷺ: «كُلُّ ابْنِ آدمَ خطَّاءٌ وَخيْرُ الْخطَّائِينَ التَّوَابُونَ»(١).

وفي الحديث: «إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ»(٢).

أي ما لم تبلغ الروح الحلقوم، قال تعالى ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣].

وقد ذهب الجمهور إلى أن قوله تعالى (جَمِيعًا) يشمل الكبائر والصغائر، وهذا هو الأشبه بسعة الرحمة ورحابة عفو الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢].

وهو يتولي تسوية تبعاتهم وتحملها عنهم كما ورد في حديث الرجلين اللذين جثيا بين يديه، وأحاديث أخرى.

وفرق ما بين الولاية والنبوة هو وقوع الخطأ، فالعصمة للنبوة لا الولاية - وإن كان للولاية الحفظ - فما بالك بغيرهما؟

وطبيعة الإنسانية الخطأ ومدعي العصمة كذاب، ولكن فرق ما بين الصالح والطالح أن الصالح يخطيء غير عامد ولا مصر، بل هو يخطيء

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٩٩) عَنْ أَنَسٍ، وقال: حَدِيثٌ غَرِيبٌ.
(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٣٧) عَنِ ابْنِ عُمَرَ، وقال: حَسَنٌ غَرِيبٌ.

آسفا محسورا ثم يتوب، وليس كذلك الفاجر المصر العامد، ولا المجاهر المستهتر المفاخر بمعاصيه.

٢- سنية صلاتها:

ومن ثم فتح الله الباب للصالحين، فقد روى أبو داود، والنسائي وابن ماجه والبيهقي والترمذي وابن حبان، وابن خزيمة وصححاه عن أبي بكر الصديق ﷺ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَا مِنْ رَجُلٍ يُذْنِبُ ذَنْباً ثُمَّ يَقُومُ فَيَتَطَهَّرُ ثُمَّ يُصَلِّي ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللهَ إِلاَّ غَفَرَ اللهُ لَهُ**». ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾[آل عمران: ١٣٥](١).

وقد أخرجه أحمد والطيالسي عن أبي بكر عنه ﷺ بلفظ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يُذْنِبُ ذَنْباً فَيَتَوَضَّأُ، فَيُحْسِنُ الْوُضُوءَ ثُمَّ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ فَيَسْتَغْفِرُ اللهَ تَعَالَىٰ إِلاَّ غَفَرَ اللهُ لَهُ**»(٢).

وأخرج البيهقي مرسلا عن الحسن البصري أن النبي ﷺ قال: «**ما أذنب عبد ذنبا ثم توضأ فأحسن الوضوء، ثم خرج إلىٰ بَرَاز - بفتح الباء يعني فضاء - من الأرض فصلىٰ فيه ركعتين، واستغفر الله من ذلك الذنب إلا غفر الله له**»(٣).

(١) أخرجه أبو داود (١٥٢١) والترمذي (٤٠٦) وقال: حَدِيث حَسَنٌ. وابن ماجه (١٣٩٥).
(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣).
(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٤٠٣ رقم ٧٠٨١).

٣- كيفيتها وعددها :

وصلاة التوبة ركعتان ويجوز أن تكون أربعة كما رواه الطبراني وابن حبان والبيهقي وابن خزيمة، مع الخشوع والتأني والاستحضار الكامل، ولم يرد نص بقراءة خاصة فيها إلا أن بعضهم اختار القراءة بالآيات التي تذكر فيها التوبة كآية الحديث السابق أو ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً ...﴾[آل عمران:١٣٥] أو ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ...﴾[الشورى:٢٥] الآية أو ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ...﴾[الزمر:٥٣] ونحوها .

وبعد الصلاة يدعو ويستغفر وهو على جلسته تضرعا وخيفة، ويكرر استغفار ختام الصلاة، وسيد الاستغفار، وما رواه الحاكم صحيحا عن جابر عنهﷺ : «**اللهم مغفرتك أوسع لي من ذنوبي، ورحمتك أرجى عندي من عملي**»(١) .

فقد قال النبيﷺ لمن كررها :«**قم غفر الله لك**» .

ويحسن أن يكون ذلك بلا عدد مع الاستحضار والاستغراق حتى يطمئن قلبه بإذن الله، ويجوز تكرار هذه الصلاة عدة أيام .

٤- شروط التوبة :

وفي قولهﷺ في الحديث : «**مَا مِنْ رجل يُذْنِبُ ذَنْباً**» . بالتنكير دليل على أن التوبة بهذه الصلاة مرجوة لكل ذنب كبر أو صغر إن شاء الله، ما دام قد

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٧٢٨ رقم ١٩٩٤) وقال : رواته مدنيون ممن لا يعرف واحد منهم بجرح ولم يخرجاه . والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٤٢٠ رقم ٧١٢٦) .

تحقق فيها شرط الندم مع عدم العمد والإصرار ، والاستجابة لله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [الشورى : ٢٥-٢٦] .

فالخطأ قضاء ، والصواب عطاء .

هذا وقد وردت في هذه الصلاة كيفيات أخرى وأذكار وقراءات شتى ، وكلها لم تأت من طريق صحيح سوى ما ذكرناه فيما نعلم .

خامسا: صلاة الضحى

١- سنيتها وفضلها:

روى البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: «**أَوْصَانِي خَلِيلِي ﷺ بِثَلاَثٍ صِيَامِ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَرَكْعَتَي الضُّحَى، وَأَنْ أُوتِرَ قَبْلَ أَنْ أَنَامَ**»[١].

وروى الحاكم والطبراني، وأحمد، والترمذي، والنسائي، وأبو داود: أن الله تعالى في حديث قدسي قال: «**يا ابْنَ آدَمَ ارْكَعْ لِي أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ أَكْفِكَ آخِرَهُ**»[٢].

والمقصود ركعات الضحى.

وروى أحمد وأبو داود عن النبي ﷺ ما معناه: أن صلاة الضحى تجزئ عن ثلاثمائة وستين صدقة[٣]. وهي الصدقات اليومية المطلوبة من كل إنسان بعدد مفاصل عظامه.

وروى أحمد والطبراني وأبو يعلى: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَرِيَّةً - جماعة من الجيش - فَغَنِمُوا وَأَسْرَعُوا الرَّجْعَةَ فَتَحَدَّثَ النَّاسُ بِقُرْبِ مَغْزَاهُمْ

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٨١) ومسلم (٧٢١/ ٨٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٤٧٥) بنحوه عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ وَأَبِي ذَرٍّ وقال حَسَنٌ غَرِيبٌ.

(٣) أخرجه أبو داود (٥٢٤٢) بلفظ: عن بُرَيْدَةَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ: «**فِي الإِنْسَانِ ثَلاَثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ مَفْصِلاً فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَصَدَّقَ عَنْ كُلِّ مَفْصِلٍ مِنْهُ بِصَدَقَةٍ**». قَالُوا وَمَنْ يُطِيقُ ذَلِكَ يَا نَبِيَّ اللهِ قَالَ: «**النُّخَاعَةُ فِي الْمَسْجِدِ تَدْفِنُهَا وَالشَّيْءُ تُنَحِّيهِ عَنِ الطَّرِيقِ فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَرَكْعَتَا الضُّحَى تُجْزِئُكَ**».

وَكَثْرَةِ غَنِيمَتِهِمْ وَسُرْعَةِ رَجْعَتِهِمْ، فَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «**أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَقْرَبَ مِنْهُم مَغْزًىٰ وَأَكْثَرَ غَنِيمَةً وَأَوْشَكَ رَجْعَةً مَنْ تَوَضَّأَ ثُمَّ غَدَا إِلَى الْـمَسْجِدِ لِسُبْحَةِ الضُّحَىٰ - بضم السين أي لصلاتها - فَهُوَ أَقْرَبُ مَغْزًىٰ وَأَكْثَرُ غَنِيمَةً وَأَوْشَكُ رَجْعَةً**»(١).

وفي حديث مسلم: أن صلاة الضحىٰ قد تغني عن سائر أنواع التسبيح والتكبير والتهليل، ويستغنىٰ بها العاجز عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال: إن صلاة الضحىٰ لفي القرآن وما يغوص عليها إلا غواص.

يشير إلىٰ قوله تعالىٰ ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ﴾ [النور: ٣٦-٣٧] وقوله تعالىٰ ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص:١٨] والغدو والإشراق وقت الضحىٰ، والآصال والعشي وقت المساء.

٢- ركعاتها ووقتها:

روىٰ الترمذي: كَانَ رسول الله ﷺ يُصَلِّي الضُّحَىٰ حَتَّىٰ نَقُولَ لاَ يَدَعُهَا وَيَدَعُهَا حَتَّىٰ نَقُولَ لاَ يُصَلِّي(٢).

أي أن سنيتها غير مؤكدة، فهي رغيبة مستحبة بالاختيار، وعدد ركعاتها غير محدود، فلك أن تصلي ركعتين أو تزيد إلىٰ ما شاء الله.

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٥) عَنْ عَبْدِ اللَّه بْنِ عَمْرو.
(٢) أخرجه الترمذي (٤٧٧) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وقال: حَسَنٌ غَرِيبٌ.

وروى أحمد ومسلم والنسائي وابن ماجه والترمذي في الشمائل وصححه السيوطي وغيره عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي الضُّحَى أَرْبَعاً وَيَزِيدُ مَا شَاءَ اللَّهُ[(١)].

وفي حديث أم هانئ: صلاها النبي ﷺ ثمان ركعات[(٢)].

وفي حديث أبي الدرداء: اثنى عشر ركعة.

وعن الحسن البصري: أنهم كانوا يظلون يصلون الضحى إلى منتصف النهار - أي قبل الظهر وبلا عدد - ويقرأ فيها بما يشاء. فتخير في كل مرة ما يناسب وقتك وهمتك.

وروى مسلم والترمذي أن النبي ﷺ سمى صلاة الضحى صلاة الأوابين كالركعات الست بعد المغرب، ثم يدعو بعدها بما يحسه ويهمه، وبلغته التي تعبر عن نفسه، فاللغة وسيلة لا غاية.

ويبدأ وقتها من ارتفاع الشمس قدر رمح إلى وقت الزوال قبيل الظهر، كما سبق.

---

(١) أخرجه مسلم (٧١٩/ ٧٩) وأحمد (٦/ ١٢٤).

(٢) أخرجه البخاري (١١٠٣) عَنِ ابْنِ أَبِي لَيْلَى قَالَ مَا أَنْبَأَ أَحَدٌ أَنَّهُ رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى الضُّحَى غَيْرُ أُمِّ هَانِئٍ ذَكَرَتْ أَنَّ النَّبِيَّ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ اغْتَسَلَ فِي بَيْتِهَا، فَصَلَّى ثَمَانِ رَكَعَاتٍ، فَمَا رَأَيْتُهُ صَلَّى صَلاَةً أَخَفَّ مِنْهَا، غَيْرَ أَنَّهُ يُتِمُّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ.

سادسا: صلاة الليل (التهجد)

١- فضلها:

جعل الله قيام الليل والتهجد فيه من صفات المتقين، فقال تعالى عنهم ﴿كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧-١٨].

وجعلها من صفات عباد الرحمن فقال عنهم ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٤].

ومن صفات المؤمنين فقال عنهم ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦] وبها أمر الله رسولهﷺ ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩].

وأمر النبيﷺ بصلاة الليل فروى الطبراني عنهﷺ: «**عليكم بصلاة الليل ولو ركعة**»[١].

وفي وصية جبريل لرسول اللهﷺ قال: **واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل**[٢].

وروى ابن حبان في صحيحه عنهﷺ قال: صلاة في مسجدي هذا تعدل بعشرة آلاف صلاة، وصلاة في المسجد الحرام تعدل بمائة ألف صلاة، والصلاة بأرض الرباط -أي مجتمع المجاهدين على الثغور-

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٢١٢ رقم ١١٥٣٠) عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤/ ٣٠٦) عن سهل بن سعد.

تعدل بألفي صلاة، وأكثر من ذلك كله الركعتان يصليهما العبد في جوف الليل. فتأمل وفقك الله.

٢- وقتها:

روى الطبراني من حديث إياس بن معاوية المزني عنهﷺ قال: ما بعد صلاة العشاء فهو من الليل[(١)].

قال الحافظ: لم يكن لتهجدهﷺ وقت معين.

نقول: ولكن وقت السحر أفضل لما رواه أحمد عنهﷺ قال لسائله عن أفضل أوقات الليل؟ قال: «**جَوْفُ اللَّيْلِ الْغَابِرِ أَوْ نِصْفُ اللَّيْلِ، وَقَلِيلٌ فَاعِلُهُ**»[(٢)].

وروى مسلم والترمذي والنسائي وابن خزيمة عنهﷺ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العبد من الرب في جَوْفِ اللَّيْلِ الأخير**»[(٣)].

قلنا: وفيه من النفحات والأمداد والبركات ما لا ينكر.

٣- ركعاتها:

روى الطبراني والبزار عن سمرة بن جندب قال: أمرنا رسول اللهﷺ أن نصلي من الليل ما قل وما كثر - أي من الركعات - ونجعل آخر ذلك وترا[(٤)].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١/ ٢٧١ رقم ٧٨٧).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٩) عن أبي ذَرٍّ.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٧٩) عن عَمْرو بْن عَبَسَةَ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ يَقُولُ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ الْعَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الآخِرِ**». وقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤/ ١٣١ رقم ٣٧٩٢).

نقول: وذلك مراعاة لطاقة الإنسان واستعداده، وهو يتغير بتغير الظروف والأحوال، حتىٰ لا يشق الأمر على العابدين.

وقد روىٰ البخاري ومسلم: أن النبيﷺ دَخَلَ الْمَسْجِدَ وَحَبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ سَارِيَتَيْنِ فقَالَ: «**مَا هَذَا؟**». قَالُوا: لِزَيْنَبَ تُصَلِّي فَإِذَا كَسِلَتْ أَوْ فَتَرَتْ أَمْسَكَتْ بِهِ. فقَالَ: «**حُلُّوهُ، لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ فَإِذَا كَسِلَ أَوْ فَتَرَ قَعَدَ**»(١).

وفي البخاري ومسلم قالﷺ: «**خُذُوا مِنَ الأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَمَلُّ حَتَّىٰ تَمَلُّوا**»(٢).

وروىٰ مسلم عنهﷺ قال: «**إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ مِنَ اللَّيْلِ فَاسْتَعْجَمَ الْقُرْآنُ عَلَىٰ لِسَانِهِ فَلَمْ يَدْرِ مَا يَقُولُ فَلْيَضْطَجِعْ**»(٣) يريد الله بكم اليسر، ولا يريد بكم العسر.

٤ - آدابها وكيفيتها:

من آداب صلاة الليل النية قبل النوم، لما رواه النسائي وابن ماجه عنهﷺ قال: «**مَنْ أَتَىٰ فِرَاشَهُ وَهُوَ يَنْوِي أَنْ يَقُومَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ حَتَّىٰ أَصْبَحَ كُتِبَ لَهُ مَا نَوَىٰ وَكَانَ نَوْمُهُ صَدَقَةً عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ**»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم (٧٨٤/ ٢١٩) وأبو داود (١٣١٢) عَنْ أَنَسٍ.

(٢) أخرجه البخاري(٥٨٦١) ومسلم (٧٨٢/ ٢١٥) عَنْ عَائِشَةَ.

(٣) أخرجه مسلم (٧٨٧/ ٢٢٣) عَنْ أبي هُرَيْرَةَ.

(٤) أخرجه النسائي (١٧٨٧) وابن ماجه (١٣٤٤) عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ.

وله أن يصلي مثنىٰ مثنىٰ ، وأن يصلي أربعا أربعا من ركعتين إلىٰ ما شاء الله صلاة طويلة حسنة متعادلة الأركان خاشعة مستوفاة ، موصولة بالله ، كما جاء في حديث عائشة صحيحا : كَانَ يُصَلِّي أَرْبَعاً فَلاَ تَسَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ . الحديث .

فإذا كان قد أوتر قبل النوم فالأولىٰ أن يستفتح صلاته بركعة واحدة ينوي بها ازدواج آخر ركعة في الوتر الذي صلاه قبل النوم ، ثم يتهجد ما شاء الله ، وبعد فراغه من تهجده يعود فيوتر ختاما لصلاة الليل . وصلاتها في جماعة جائز .

سابعا : ليلة النصف من شعبان

الأدلة الحاسمة على مشروعية إحيائها

١ - تمهيد :

أصبح من معتاد الناس أن يستقبلوا شهر شعبان بالمعركة التقليدية المكررة بين القائلين باستحباب إحياء ليلة النصف والقائلين بالمنع في صلف وخشونة وجمود .

ونحن هنا نعيد نشر هذا البحث العلمي المنصف على يقين مسبق بأن خصوم إحياء هذه الليلة لن يزيدهم هذا الحق إلا عنتا وتشنجا وانطلاقا في السباب بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، وإنما هو التغالي والتعالي ، وسرطان حب المخالفة ودعوى الانفراد بالصواب والوصاية على دين الله ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِ﴾ [البقرة : ٢٢٠] .

والدين متين رفيق : «**إِنَّ الْـمُنْبَتَّ لاَ أَرْضًا قَطَعَ وَلاَ ظَهْرًا أَبْقَى**»(١) كأن لم يبق من البدع إلا إحياء ليلة النصف ، رغم ما ثبت في فضلها من الأحاديث والآثار التي سنذكر بعضها إن شاء الله .

٢ - من فضل ليلة النصف :

أ- روى ابن ماجه بسند حسن عن علي كرم الله وجهه قال قال رسول الله ﷺ : «**إِذَا كَانَتْ لَيْلَةُ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ فَقُومُوا لَيْلَهَا وَصُومُوا نَهَارَهَا ، فَإِنَّ الله تعالى يَنْزِلُ فِيهَا إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ أَلاَ**

---

(١) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى (٣/ ١٨) عن جابر بن عبد الله .

مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ، أَلاَ من مُسْتَرْزِق فَأَرْزُقَهُ، أَلاَ من مُبْتَلَي فَأُعَافِيَهُ أَلاَ كَذَا أَلاَ كَذَا حَتَّىٰ يَطْلُعَ الْفَجْرُ»[١] .

قلنا : ولو لم يكن في فضلها غير هذا الحديث الحسن الثابت لكفىٰ في العناية بشأنها، وأنها ليست ككل الليالي، كما يقول بعض خلق الله : وهل كل الليالي وردت فيها أحاديث؟

ب- وروىٰ الطبراني عن معاذ بن جبل قال قال رسول الله ﷺ : «**يطَّلِعُ الله علىٰ عباده لَيْلَةَ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ فَيَغْفِرُ لِجَمِيعِ خَلْقِهِ إلاَّ لِـمُشْرِكٍ أَوْ مُشَاحِنٍ**»[٢] . وفي رواية :«**أو قَاتِلِ نَفْسٍ**» .

جـ- وروىٰ الترمذي في النوادر والطبراني وابن شاهين بسند حسن أيضا من حديث عائشة قالت قال ﷺ : «**هذه ليلة النصف من شعبان يغفر الله للمستغفرين ويرحم المسترحمين ويؤخر أهل الحقد علىٰ حقدهم**»[٣] . وحسبنا هنا هذه الأحاديث الحسنة المعتمدة عند أهل العلم حتىٰ في الأحكام، بله الفضائل .

وحول هذا المعنىٰ تدور عدة أحاديث أخرىٰ تحبب في إحياء هذه الليلة، وتجعل قبول الدعاء فيها أرجىٰ والتعبد أفضل، وتقطع دعوىٰ القائلين بأنها ليلة ككل الليالي، والمسلمون جميعا على اتفاق على الأخذ بالحديث الحسن .

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٣٨٨) .

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٣٩٠) عَنْ أَبِي مُوسَي الأَشْعَرِيِّ .

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٣٨٢ رقم ٣٨٣٥) .

٣- توجيه معاني بعض أحاديث ليلة النصف:

أ- أخرج البيهقي في كتاب الدعوات الكبير عن عائشة: أن النبيﷺ قام يصلي ليلة النصف من شعبان وقال: «**في هذه الليلة يكتب كل مولود وهالك من بني آدم، وفيها ترفع أعمالهم، وتنزل أرزاقهم**».

ونحن نفهم أن الكتابة هنا معناها نزول الأمر من اللوح المحفوظ إلى الملائكة الموكلين بتنفيذه، ولما كان الأمر مستورا، ثم كشف كان كأنه بالنسبة لنا قد كتب في هذه الليلة، وعلى هذا المعنى وما هو منه نحمل ألفاظ الكتابة والنسخ التي تدور في أحاديث فضل هذه الليلة، فتكون ليلة النصف كالتمهيد والتقديم أو الإعداد لليلة القدر، وعليه يحمل رأى عكرمة وغيره توفيقا بين ليلة النصف وليلة القدر.

ب- ومن دليل ذلك ما روى ابن أبي الدنيا عن عطاء قال: إذا كان ليلة النصف من شعبان دفع إلى ملك الموت صحيفة، فيقال اقبض من هذه الصحيفة، فإن العبد ليغرس الغراس، وينكح الأزواج، ويبني البنيان، وإن اسمه قد نسخ في ديوان الموتى[١].

ومفهوم النص أن هذه الصحيفة قد نسخت من اللوح المحفوظ لينفذها الموكلون بها، وعليه يفهم أيضا ما أخرجه الدينوري في المجالسة عن راشد بن سعد.

وقد أخرج ابن مردويه وابن عساكر عن عائشة نحوه.

---

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٤٠٢) في تفسير قوله تعالى ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤] لابن أبي الدنيا.

جـ- وقد أخرج الخطيب في التاريخ من طريق عامر اليمامي عن عائشة من حديث طويل قالﷺ فيه : «**يا عائشة إنه ليس نفس تموت في سنة إلا كتب أجلها في شعبان ، وأحب أن يكتب أجلي وأنا في عبادة ربي**»(١) .

وقد رواه أبو يعلى بنحو ذلك .

د- وأخرج ابن أبي شيبة عن عطاء بن يسار قال : لم يكن رسول اللهﷺ في شَهْرٍ أَكْثَرَ مِنْهُ صِيَامًا فِي شَعْبَانَ ، وذلك أنه ينسخ فيه آجال من ينسخ في السنة(٢) .

هـ- وأخرج الخطيب في رواية مالك عن عائشة قالت سمعت النبيﷺ يقول : «**يفتح الله الخير في أربع ليال : ليلة الأضحى ، والفطر ، وليلة نصف شعبان ينسخ فيها الآجال والأرزاق ، ويكتب الحاج ، وفي ليلة عرفة إلى الأذان**»(٣) .

و- وأخرج الديلمي وابن زنجويه عن أبي هريرة عنهﷺ قال : «**تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان حتى إن الرجل لينكح ويولد له ، وقد خرج اسمه في الموتى**» .

وروى نحوه ابن جرير والبيهقي في الشعب(٤) .

---

(١) تاريخ بغداد (٤/ ٤٣٦) .

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٢/ ٣٤٦ رقم ٩٧٦٤) .

(٣) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٤٠٢) في تفسير قوله تعالى ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤] الخطيب في رواية مالك .

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٣٨٦ رقم ٣٨٣٩) موقوفا على عثمان بن المغيرة بن الأخنس .

ومثل هذا كله لا يقال بالرأي كما هو معلوم عند العلماء، وهذه الأحاديث وإن كان في بعضها ضعف أو لين فهي مجبورة ومتعضدة بتعدد طرقها وشواهدها، وهكذا تأخذ رتبة الحسن على الأقل، فيؤخذ بها فيما هو أخطر من موضوعنا هذا، وقد وجهناها هنا على ما نرجح، ولا نخالف توجيه غيرنا فلا موجب للجدل، والأمر فرعي اجتهادي لا يجوز أن يتفرق عليه المسلمون.

٤ - حول الحديث الضعيف:

وعلى فرض جدلي أن ضعفها غير مجبور فقد جاءت في باب الفضائل، والأمة كلها على أن الحديث الضعيف يؤخذ به في الفضائل ونحوها بلا تثريب، وهو ما نقله النووي وذهب إليه ابن الصلاح، وهو ما جاء عن السلف كالثوري وابن عيينة، وابن حنبل، وابن المبارك، وابن مهدي، وابن معين، وبوب له ابن عدي في الكامل، والخطيب في الكفاية... إلخ.

وذلك الحديث الضعيف في مفهومنا العلمي حديث تحققت فيه بعض شروط الصحة وإن تخلفت شروط أخرى فيه، فهو غير مجرد من الصحة، وهذا هو الفرق العلمي الكبير بينه وبين الحديث الموضوع، وإن جهل ذلك بعض خلق الله.

٥ - فضل الدعاء في هذه الليلة:

أ- روى البيهقي في حديث طويل عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ:
«**أتاني جبريل عليه السلام فقال: هذه ليلة النصف من شعبان، ولله فيها عتقاء من النار بعدد شعور غنم بني كلب - قبيلة كبيرة كانت تعني بكثرة تربية الغنم - لا ينظر الله فيها إلى مشرك، ولا إلى مشاحن**

ولا إلى مسبل ، ولا إلى عاق لوالديه ، ولا إلى مدمن خمر . قالت فسجد ليلا طويلا ، وسمعته يقول في سجوده : أعوذ بعفوك من عقابك ، أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بك منك ، جل وجهك ، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك . قالت : فلما أصبح ذكرتهن له ، فقال : يا عائشة تعلمهن وعلميهن ، فإن جبريل عليه السلام : علمنيهن وأمرني أن أرددهن في السجود» .

وفي هذا الحديث اعتراف بفضل هذه الليلة ، وتوجيه إلى التعبد فيها ، وإلى اختيار جيد الدعاء معها ، فليست إذن ككل الليالي - كما يقولون - وهل كل الليالي فيها مثل هذا القول والمناظرة؟ والترغيب المتلاحق ، الذي يوشك أن يكون أمرا ملزما؟

ب- ثم إن هذا الحديث كغيره معتضد بحديث آخر للبيهقي أيضا عن عائشة قالت : كانت ليلة النصف من شعبان ليلتي ، وكان رسول الله ﷺ عندي ، فلما كان في جوف الليل فقدته فطلبته فإذا أنا به كالثوب الساقط ، وهو يقول في سجوده : سجد لك خيالي وسوادي ، وآمن بك فؤادي ، فهذه يدي وما جنيت بها على نفسي ، يا عظيما يرجى لكل عظيم ، يا عظيما اغفر لي الذنب العظيم ، سجد وجهي للذي خلقه وصوره ، وشق سمعه وبصره . وفي رواية : فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم رفع رأسه ، ثم عاد ساجدا فقال : أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بعفوك من عقابك ، وأعوذ بك منك ، أنت كما أثنيت على نفسك . ثم رفع رأسه فقال : اللهم ارزقني قلبا تقيا ، من الشرك نقيا ، لا جافيا ولا شقيا . ثم انصرف .

جـ- قلنا: فلم يعد للمعترض وجه للاعتراض على إحياء هذه الليلة بالتعبد والدعاء لمن اتقى الله وترك التعصب التقليدي الكريه، ودعوى احتكار الصواب أو الانفراد بالعلم أو خدمة السنة من دون الأمة، أو التحكم فيما اختار المسلمون لأنفسهم من نوافل العبادات بما صح عندهم منها.

د- هذه الأحاديث التي أوردناها على اختلاف المفاهيم والمضامين والمراتب العلمية يشد بعضها بعضا، فلم يبق شك في صحة محصلها، وهو فضل ليلة النصف وفضل الاهتمام بإحيائها، وبهذا أخذ أكثر السلف ممن لا يتهمهم الناس في علم ولا عمل، وحسبك أنه لا يوجد في رجال ما ذكرنا وما ذكر غيرنا من أحاديث فضل ليلة النصف من أجمعوا على ضعفه، ولا فيها راو كذاب وهذا ملحظ علمي له وزنه الكبير.

٦- الركعات الست وقراءة يس:

أما ما تعوده الناس من صلاة ست ركعات أحيانا بين المغرب والعشاء، فقد وردت عدة أحاديث ثابتة في سنية هذه الركعات الست، فإذا توسل العبد إلى الله بهن في رجاء جلب المنافع ودفع المضار فهو متوسل إليه تعالى بعمل صالح لا اعتراض عليه، كما أنها تكون في الوقت نفسه نوعا من صلاة الحاجة المتفق على صحتها بين جميع أهل القبلة.

أ- وقد أخرج الطبراني في معاجمه الثلاثة عن عمار بن ياسر قال: رأيت حبيبي رسول الله ﷺ يصلي بعد المغرب ست ركعات، وقال: «**مَنْ صَلَّى بَعْدَ**

الْـمَغْرِبِ سِتَّ رَكَعَاتٍ غفرت له ذنوبه، وإن كانت مثل زبد البحر»(١) .

ب- وكذلك توسل الناس إلى الله بسورة يس في هذه الليلة وغيرها ابتغاء غفران الذنوب وتفريج الكروب ونحو ذلك، فهو توسل إلى الله بكتابه وكلامه وبصفة مقدسة من صفاته، وسورة مجيدة فيها ترغيب وتحبيب أكيد، فلا جهل ولا ملامة، راجع ما كتبناه عن فضل يس .

والمهم في الأمر ألا يعتقد أن ذلك شرع أكيد من خالفه أخطأ وعصى، وإنما هي فضائل مباحة لمن يشاء بتوفيق الله، والموفقون قليل .

٧- صوم نهار النصف:

أ- روى ابن ماجه عن علي أن النبي ﷺ قال: «**إِذَا كَانَتْ لَيْلَةُ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ فَقُومُوا لَيْلَهَا وَصُومُوا يَوْمَهَا، فَإِنَّ اللّٰه يَنْزِلُ فِيهَا لِغُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَىٰ سَمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ أَلاَ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ، أَلاَ مُسْتَرْزِقٌ فَأَرْزُقَهُ أَلاَ مُبْتَلَي فَأُعَافِيَهُ، أَلاَ كَذَا أَلاَ كَذَا حَتَّىٰ يَطْلُعَ الْفَجْرُ**»(٢) .

وقد قدمنا هذا الحديث من رواية الدارقطني وابن شاهين بإسناد حسن عن علي، فبأى حق نمنع الناس من ذلك؟ وهذه كلها فضائل يؤخذ فيها بالضعيف غير المجبور بالمرة، فكيف بالحديث الحسن الذي نأخذ به في العبادات والمعاملات، وكيف بما يرتقي من الضعيف إلى مقام الحسن؟

---

(١) «المعجم الأوسط» (٧/ ١٩٢ رقم ٧٢٤٥) و«المعجم الصغير» (٢/ ١٢٧، رقم ٩٠٠) .

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٣٨٨) .

ب- نحن نقلد من أجاز وهم يقلدون من منع ، ولكل من الجانبين دليل يطمئن إليه ، فهل من الإنصاف العلمي أن يبيحوا لأنفسهم تقليد من شاءوا ، ويمنعوننا من تقليد من نشاء ، وسنذكر أسماء من أجاز ومن منع فيما بعد .

٨- الدعاء المشهور اللهم يا ذا المن :

أ- أما الدعاء المشهور فقد أخرج ابن أبي شيبة في المصنف ، وابن أبي الدنيا في الدعاء عن ابن مسعود ﷺ قال : ما دعا عبد قط بهذه الدعوات إلا وسع الله في معيشته : يا ذا المن ولا يمن عليه ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا ذا الطول والإنعام ، لا إله إلا أنت ظهر اللاجئين ، وجار المستجيرين ، ومأمن الخائفين إن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب شقيا فامح عني اسم الشقاء ، وأثبتني عندك سعيدا ، وإن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب محروما أو مقترا علي في الرزق فامح حرماني ويسر رزقي ، وأثبتني عندك سعيدا ، موفقا للخير ، فإنك تقول في كتابك الذي أنزلت ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [الرعد :٣٩] (١) .

ب- وأخرجه ابن جرير وابن المنذر والطبراني عن ابن مسعود أيضا بلفظ : اللهم إن كنت كتبتني في السعداء فأثبتني في السعداء ، وإن كنت كتبتني في الأشقياء فامحني من الأشقاء ، وأثبتني في السعداء فإنك تمحو ما تشاء ، وتثبت وعندك أم الكتاب .

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٦/ ٦٨ ، رقم ٢٩٥٣٠) .

جـ- نقول: ومثل هذا الدعاء مع الإخبار بأن الداعي به يوسع عليه في رزقه... إلخ لا يكون أبدا إلا بتوقيف نبوي، فليس من شأن صحابي ولا غيره أن يخبر بجزاء عمل غيبي، وبخاصة أن النبيﷺ حي، والوحي مخصوص به لا ينزل إلا عليه، وآداب الصحابة لا تأذن لهم بأن يقدموا بين يدي الله ورسوله.

كما أن بعض المراجع تسند بعض ألفاظ هذا الدعاء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيكون معنى هذا أنه دعاء كان معروفا للصحابة متداولا بينهم، ولم ينكره منهم أحد.

د- أما بقية الدعاء من عند قولهم: إلهي بالتجلي الأعظم. إلى نهايته فقد زاد الشيخ ماء العينين الشنقيطي وذكره في كتابه نعت البدايات: ولا بأس به، فالاجتهاد في الدعاء سنة نبوية مقررة.

وعلى الداعي أن يتجاوز عن العبارة التي أثارت الخلاف منه، وهي قوله في وصف ليلة النصف، التي يفرق فيها كل أمر حكيم ويبرم، والراجح أنها مدسوسة عليه، أو أنه سار فيها على الرأي غير المشهور، إذ النص القرآني على أن هذا الفرق يتم في ليلة القدر.

والتعبير بالمضارع في (**يفرق**) يدل على الاستمرار، وفيه الرد على من قال: إن ليلة القدر كانت مرة واحدة لا تتكرر، فلا داعي للاهتمام بها أيضا عندهم ونعوذ بالله من تجلط الفكر، ولزوجة الذهن وضيق الأفق العلمي.

٩- الكلام عن ليلة الفَرْق والإبرام:

وقد اختار عكرمة وطائفة أن ليلة الفرق هي ليلة النصف، وإليه مال الملا علي القاري والإمام القرطبي لما أخرجه ابن جرير والبيهقي والدينوري والإمام البغوي بإسنادهم : أن الآجال والأقضية تقطع في هذه الليلة .

وقد حاول الزمخشري والكرماني وأبو الضحى التوفيق بين هذه النصوص فقالوا : إن ابتداء التقدير يكون في ليلة النصف، ويكون الانتهاء في ليلة القدر، وهذا القول ينسب أيضا إلى ابن عباس، ولا نحب أن نخالف في هذا ونذهب إليه، وإنما نتوقف ونسلم، وحسبنا من ليلة النصف البركة وقبول الدعاء، ورفع الأعمال وما بشرت به الأحاديث الشريفة .

١٠ - مسألة المحو والإثبات:

أ- والخلاف في معني المحو والإثبات وأم الكتاب واللوح المحفوظ، وهل هو محو الأقدار أو الشرائع كل هذا لم تجمع الأمة على جانب واحد فيه، فهو أمر اجتهادي محتمل لكل ذلك .

وعندما يدخل الاحتمال فإنه يسعنا ما وسع غيرنا، وهنا يكون لترجيحنا توجيه المحو إلى الأقدار، ومنها الشرائع، اعتبار الحجية والعلم المنهجي، والشمول المناسب لمفهوم الآية .

ب- ذلك لأنه ما من عبد يطلب من الله مطلبا من الخير إلا كان معناه وحقيقته الواقعية هي رجاء الله في أن يمحو عنه مقابله من الشر، فطالب اليسر يسأل الله أن يمحو عنه عسره، وطالب الصحة يسأل الله أن يمحو عنه مرضه، وطالب القوة يسأل الله أن يمحو عنه ضعفه، وطالب الطاعة يسأل الله أن يمحو عنه المعصية .

وهكذا مطالب الإثبات في ناحية هي مطالب المحو بالتبعية في الناحية الأخرىٰ، وحسبك في هذا أن تتدبر بعمق قوله تعالىٰ ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤] وقوله تعالىٰ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان:٧٠] وقوله تعالىٰ ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾[الأعراف:٩٥].

والله يفعل ما يشاء ولا يُسأل عما يفعل، وهو علىٰ كل شيء قدير، وقد ذكر سبحانه وتعالىٰ أنه يبدل السيئات حسنات بغاية الوضوح والصراحة، وفي الحديث الثابت لقولهﷺ أتبع السيئة الحسنة تمحها وأكدت الآية ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وكلها من باب القضاء المعلق علىٰ ما سبق في علم الله، فلم يعد للجاجة هنا مكان.

والذي يراجع أدعية القرآن والسنة لا يجدها تعدو أن تكون طلبا للخير واستعاذة من الشر، فالداعي يسأل الله المحو من ديوان السوء والإثبات في ديوان السعود، فالمسألة في القول الملفوظ وإلا لم يكن هناك معنىٰ لقوله تعالىٰ ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر:٦٠] وقولهﷺ «**الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ**»(١).

وقوله «**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ**». وقرأ قوله تعالىٰ ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦] (٢).

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٧١) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ وقال: حَدِيثٌ غَرِيبٌ.

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٧٩) والترمذي (٢٩٦٩) عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

جـ- والكلام في مسألة القضاء المبرم والقضاء المعلق تؤيدنا، وترغيب المصطفىٰ في قول ما أو عمل ما لجزاء ما أو عطاء رباني معين يؤيد قضية المحو والإثبات فقوله ﷺ: من فعل كذا كان له كذا، ومن أراد أن يكون كذا وكذا، فليفعل كذا وكذا. معنىٰ ذلك: أن الله غالب علىٰ أمره. وأنه فعال لما يريد تعالىٰ عن كل قيد حتىٰ عن قيد الإطلاق نفسه.

والحديث الشريف مفعم بالحث علىٰ ملازمة الدعاء، رجاء استبدال حال بحال، وقد نقل كبار مفسري القرآن هذا الوجه عن أكثرية السلف، فإنه الوجه المناسب لمعقولية الأشياء وفي الصحيحين عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ حين خَرَجَ إِلَى الشَّامِ وقَدْ وَقَعَ بها الْوَبَاءُ - أي الطاعون - فلم يدخلها وقال: نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ الله إِلَىٰ قَدَرِ الله [١].

أي من إثباته إلىٰ محوه، سواء كان على المعنى الحقيقي أو المجازي، وإلا وقعنا في عقيدة الجبر التي لا تجعل للدعاء ولا للعمل أثرا فيما سبق به القضاء، وعندئذ يكون أمر الله ورسوله بالدعاء والعمل نوعا من العبث - ونستغفر الله - وهذا ما وقع فيه المعترضون علىٰ دعاء ليلة النصف.

د- وعلىٰ هذا ينكشف أن الزوبعة المفتعلة حول ليلة النصف وما حولها زوبعة مذهبية مغرضة، وليس في جانبها دليل قاطع، اللهم إلا الهوىٰ، وحب الظهور بالمخالفة وادعاء العلم بتجهيل خلق الله، وادعاء الوصاية علىٰ دين الله، بل على الله، فلو أنهم حاربوا في هذه

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٢٩) ومسلم (٢٢١٩/ ٩٨) عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَبَّاسٍ.

الليلة السهر في البارات والملاهي والسينمات، وعلب الليل والكباريهات والمسارح والانشغال بمغاضب الله وموجبات سخطه، لكان ذلك من المفهوم والمقبول، ولكنهم في شغل عن ذلك بدفع الداعين عن الدعاء ورد الطائعين عن الطاعة وتشكيك العابدين في كل عبادة بإشاعة عقيدة الجبر وأنه لا فائدة في الدعاء لأن ما سبق في علم الله لا يتغير.

أما أنهم يعمون عن هذه المناكر الموبقة، ويتجهون تلقاء رواد المساجد يصدونهم عن السبيل، ويحسبون أنهم مهتدون فذلك ما لا إيمان ولا خلق ولا عقل عاقل.

فأحيوا عباد الله ليلتكم بما يوفقكم الله إليه من الطاعات على أنها من نوافل الخير، وادعوا الله لأنفسكم ومخالفيكم فإن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

١١- السلف وليلة النصف:

يقول ابن رجب في لطائف المعارف: وليلة النصف من شعبان كان التابعون (**كذا**) من أهل الشام كخالد بن معدان، ومكحول، ولقمان بن عامر وغيرهم يعظمونها ويجتهدون فيها في العبادة، وعنهم أخذ الناس فضلها وتعظيمها، إلى أن قال: ووافقهم على تعظيمها طائفة من عباد أهل البصرة وغيرهم، ثم ذكر أسماء العلماء الذين خالفوهم، ثم نقل عن علماء أهل الشام رضي الله عنهم أنهم فريقان:

أ- فريق استحب إحياءها جماعة منهم من يلبسون أحسن الثياب

ويتبخرون ويقومون في المسجد ليلتهم تلك، ووافقهم إسحاق بن راهويه وقال: ليس ذلك ببدعة - كما نقله الكرماني في المسائل - وناهيك بابن راهويه شيخ الإمام البخاري تقًى وعلمًا بالسنة الشريفة.

ب- فريق أجاز إحياءها في المنازل وكرهوا إحياءها في المساجد، وهو قول الأوزاعي إمام أهل الشام وعالمهم الأكبر، واختاره ابن رجب.

وفي إحدى روايتين عن أحمد أنه استحب إحياء هذه الليلة لفعل عبد الرحمن بن يزيد بن الأسود من التابعين، وطائفة من أعيان فقهاء أهل الشام [1] انتهى باختصار.

وناهيك بأحمد وبالتابعين فقها وعلما وورعا.

جـ- فثبت بكل هذا أن السلف اهتموا بإحياء هذه الليلة باتفاق، وإنما اختلفوا في صورة الإحياء وموضعه، وهو اختلاف فرعي على الأصل الْمُسَلَّم به، وبهذا تنقطع حجة القائل بأنها ليلة كالليالي، أو أن إحياءها غير وارد، وكيف يكون ذلك كذلك، وفيها كل هذا الاجتهاد العلمي العريض؟

ثم إنه إذا صح الخبر عن هؤلاء الأئمة المتفق على علمهم وتقواهم ثم جاء خبر مخالف له عن عويلمة هذا الزمان ومتعالميه من المقلدة والمتعصبة وطلاب الشهرة والدنيا، فأي فريق نتبع؟ بعض الحياء أيها الناس.

١٢- بدعية صلاة الرغائب:

---

(١) «لطائف المعارف» (١/ ١٥١).

أما ما يسمى صلاة الرغائب فلا نقول بها ، وقد قال الإمام النووي في المجموع : الصلاة المعروفة بصلاة الرغائب وهي اثنتا عشرة ركعة بين المغرب والعشاء في ليلة أول جمعة من رجب ، وصلاة ليلة النصف من شعبان وهي مائة ركعة ، هاتان الصلاتان بدعتان منكرتان ، ولا يغتر بذكرهما في كتاب قوت القلوب ، أو إحياء علوم الدين ، ولا بالحديث المذكور فيها ، فإن كل ذلك باطل[1] . اهـ .

وبنحو ذلك قال الإمام المقدسي وابن رجب ففي أحاديث هاتين الصلاتين انقطاع وفيها مجاهيل ، وهي موضوعة مكذوبة ، وذكرها في القوت والإحياء كان من قبيل حسن الظن بها وعدم العلم بأنها مكذوبة .

فإحياء ليلة النصف يكون بالأدعية النبوية المأثورة ونحوها من أدعية الصحابة والتابعين والأولياء الصالحين ، وبصلاة الليل المعتادة ، وقراءة القرآن ، والأذكار الشرعية الواردة على اختلاف مراتبها وأسلوبها ، ثم بأوراد وأحزاب أهل الله رضي الله عنهم أجمعين ، وبما يهم الداعي .

ومن شاء تصدق بما استطاع فجمع بين الحسنيين ، وأمر هذه الليلة كله اختيار ، فمن شاء فعل كما فعل السلف فأحياها منفردا أو في جماعة ، والجماعة أفضل فإن يد الله معها ، ومن ترك بلا بغي ولا عدوان .

١٣ - تحويل القبلة وليلة النصف :

وإن مما يضفي على هذه الليلة قداسة تاريخية ذات معنى أن في نهارها

(١) «المجموع» (٤/ ٦١).

حَوَّلَ الله القبلة من بيت المقدس إلى البيت العتيق استجابة لرغبة رسول الله ﷺ حين أكثر اليهود اللغط بسبب اتجاهه ﷺ في صلاته إلى بيت المقدس شأن أبيه إبراهيم، فكان ﷺ يقلب وجهه في السماء، يطلب من الله أن يوليه قبلة يرضاها قطعا للجاجة اليهود.

فبينما كان رسول الله ﷺ يصلي في مسجد بني سلمة صلاة الظهر مستقبلا المسجد الأقصى بالشام إذ نزل قوله تعالى ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٤] الآيات، وكان رسول الله ﷺ قد صلى الركعتين الأوليين من الظهر فاتجه في الركعتين الأخريين إلى المسجد الحرام، ولذلك سمي هذا المسجد مسجد القبلتين، يزوره من زار مدينة رسول الله ﷺ فيما يزور هناك من آثار.

قالوا: وبقي هناك رسول الله ﷺ حتى صلى صلاة العصر كلها بهذا المسجد متوجها إلى الكعبة تأكيدا للحكم، وتثبيتا للمسلمين، وإعدادا لمواجهة حملة أعداء الإسلام على هذا الحدث.

وبهذا يصح التوفيق بين الروايات في أحاديث تحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت العتيق، وهل كانت في جزء من صلاة، أو في صلاة كاملة، وهل كانت صلاة الظهر أو العصر؟ وكلها فرعيات على الأصل الثابت وهو التحويل.

وهنا قال السفهاء من الناس من اليهود والمشركين ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ وكان الجواب الحاسم من السماء ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ

وَٱلْمَغْرِبُ﴾ [البقرة:١٤٢] .

ولم يكن هذا الحدث الكبير ليجري بالصدفة ، فليس في علم الله صدفة ، وإنما كل ما في علمه موقوت بوقته مرهون بحكمته ، محوط بسره ، فدل على ما لهذه الليلة المباركة من منزلة وقدسية وفضل ، وإن أنكره المنكرون وقلدهم العويلمة والببغاوات المتعالمة بلا تمحيص ولا إنصاف .

اتخاذ الشيخ شريعة وطبيعة

اتخاذ الشيخ شريعة وطبيعة

يقول الحق تبارك وتعالى ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد:٧] فدل على أن قضية المعلم الهادي والدليل المرشد ضرورة لزومية، طبعا وشرعا، ومن هنا أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء:١٥] ولم يَدَعْ الناس لأفكارهم وحدها وإن سَمَتْ، فإن العقل مهما بلغ فهو محل للخطأ، ولأن العلم وحده قد يكون طريق الهلاك، والأدلة شتى في تواريخ الفلاسفة والمفكرين العقليين والعلميين وأصحاب المذاهب الاجتماعية المختلفة والواقع المكرر.

ومن هنا وجد الإشراف والتوجيه البشري في كل شيء سواء كان وظيفة أو تجارة، أو تعليما أو احترافا أو إدارة، أو حكومة أو غير ذلك.

ومن هنا جاء أمر الله باتخاذ القدوة الصالحة ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١]، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤] ولا تكون القدوة حسنة إلا إذا كان الله غايتها ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان:١٥] ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:١٤٢] و﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٣٨]، ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس:٢١] وعندما ذكر الله أنماطا من أهل القدوة الصالحة الداعية إليه تعالى في سورة الأنعام قال لرسوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] ولو شاء الله لأنزل كتابا بغير نبي، ولكنه لم ينزل كتابا إلا ومعه نبيه ﷺ ليبين للناس ما نزل إليهم.

ربما كان الأخذ السليم عن الكتاب السليم فيه الأجر فقط ، أما الأخذ عن الشيخ ففيه الأجر وفيه الوصول معا ، لأن فيه سر الإمداد بالبركة ، وربط المريد بالحبل المحمدي ، وذلك أشبه بالتيار الكهربائي ، لا ينتقل إلا بالموصل .

وفي قضية جبريل والنبيﷺ معنى اتخاذ المرشد الهادي والدليل المعلم ، وإلا فربما كان يكفي النور الإلهي المنقدح في القلب المحمدي عن مصاحبة جبريل ، والأخذ عنه .

وقد طلب موسى الشيخ المعلم المرشد الهادي الدليل وسعىٰ إليه حتىٰ وجده في العبد الصالح وتتلمذ عليه ، ولم يكتف موسىٰ بأنه كليم الله .

وهل يمكن لأي إنسان أن يقرأ القرآن قراءة صحيحة بغير موقف خبير؟ وكذلك شأن جميع الصناعات والفنون .

وقد كان الله هو المرشد الأعظم والمعلم الأكبر ، فخلق الإنسان علمه البيان ، وعلمه ما لم يكن يعلم ، وهداه النجدين .

ثم إن اتخاذ الشيخ مما لا يتم الواجب إلا به ، فهو واجب ، كما رأيت طبعا وشرعا مؤيدا بالواقع العلمي والتاريخي ، والموضوعية التي لا تقبل النقاش .

ومجال اتخاذ الشيخ إن خلا شغله الشيطان بيقين ، والله الموفق .

التعصب للطرق والأشياخ

ولا عصبية في الإسلام، وفي الحديث الثابت: ليس منا من دعا إلى عصبية، مؤمن تقي، وفاجر شقي، كلكم لآدم، وآدم من تراب.

ويوم قال الصحابي وهو يدفع قناته - حربته - في عنق أحد الْـمُشْرِكِينَ: خُذْهَا وأنا الفتى الْفَارِسِيُّ. غضب الرسولﷺ حتى رئي في وجهه وقال: «**هَلاَّ قُلْتَ: خُذْهَا وأنا الفتى المسلم أو الأَنْصَارِيُّ**»(١).

ومن هنا جاءت دعوتنا الموصولة إلى التقارب والتعارف والتعاطف والتعاون، ونبذ التعالي والتغالي بين الصوفية أجمعين، شأن أتباع المذاهب الأربعة، كل منهم على مذهبه محب لغيره مقتد به، معتقد فيه.

وحسب الأمة تمزيقا مذهبيا، فليس من الدين ولا من التصوف أن نستحدث فيها تمزيقا جديدا بالتعصب لولي صالح ضد آخر ولا لطريق شرعي دون سواه ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[الرعد:٧] ونحن لا ندري ماذا وراء الستار، ولعل ضريحا يزار وصاحبه من شر أهل النار.

تحريم زيارة الأشياخ:

ولا أفهم - وعذري قصوري - ما هو السر في تحريم بعض الشيوخ على مريديهم زيارة مشاهد أولياء الله، إلا إن كانوا من طريقهم، فتلك حزبية ضد الموتى وحرب عليهم، ليست من دين الله ولا من التصوف،

---

(١) أخرجه أبو داود (٥١٢٣) بنحوه.

والموتى لا يملكون الدفع عن أنفسهم ولا بيان حقيقة درجاتِهم عند الله .

ربما فهمت سر تحريمهم زيارة الأشياخ أحياء حتى لا تنعقد المقارنة بين الجهل والعلم، والحق والدعوى، والهدى والضلال، فينصرف بعض العقلاء عن بعض الجهلاء أو الأدعياء، وما أقل العقلاء حول هؤلاء .

ولكني أكرر أنني عاجز عن فهم سر تحريم زيارة الموتى من الدعاة إلى الله، ونحن قد سمعنا رسول الله ﷺ يحث على زيارة الموتى والاعتبار بِهم بلا مفاضلة، فهل نتبع قول النبي ﷺ أم أقوال الشيوخ المتحزبين .

وعندما يحاولون فلسفة هذا المنع فلسفة مذهبية سفسطائية فإننا نقر هنا بالعجز كما أقررنا به هناك، لأننا نمقت الجدل، فإن الحلال بين، والحرام بين .

شر مشهود:

وإن بعض شر ما نشهده في أيامنا هذه في بعض مجالس الذكر الصوفي عند بعض الطرق أنه إذا ذكر المنشد أو المتحدث أو غيره اسم الله تعالى تلقاه الحاضرون بالهدوء والصمت والفتور، وإذا ذكر اسم النبي ﷺ تلقوه بمثل ما تلقوا به اسم الله من الهدوء والصمت والفتور، وقد بخلوا حتى بالصلاة عليه ﷺ .

فإذا ما ذكر المنشد أو المتحدث أو غيره اسم الشيخ جن الجنون، واضطربت الأجساد، وتشنجت الأذرع، وتعالت الأصوات في صخب ونصب تتصايح (**بالنظرة والمدد**) هرجا ومرجا غير معقول ولا مقبول، لا عقلا ولا شرعا .

ومعنى هذا أن منزلة الشيخ عندهم أرفع من منزلة الله والنبي الأكرم ﷺ ولو كان هذا المعنى مقصودا لكان كفرا، أو شركا صريحا، فاتقوا الله عباد الله، فالدنيا فانية، والله شديد العقاب، وهو الغفور الرحيم، إن أصلحتم وتبتم إليه.

خطيئة التعصب الجامح:

أجدني مضطرا إلى العودة إلى الإشارة إلى موضوع المفاضلة بين أولياء الله ومأثوراتهم برجاء تخفيف الغلواء التي تُهيمن على بعضهم من جانب مشايخه حتى ليرفعهم زورًا إلى رتبة الألوهية، وينزل بالآخرين إلى أسفل المراتب.

وليس في أي دين ولا في أي مذهب، ولا في أي مشرب أن يتقرب العبدُ إلى الله ببغض أوليائه، وكراهة أحبائه والبعد عن أصفيائه، واستصغار شأن كل ولي أو داعية أو عالم أو حاكم ليس من مذهبه أو مشربه.

إن مجرد التفكير في البغض أو التحقير أو الاستصغار أو حتى في الإهمال، بل الإغضاء أو مجرد التجنب فرع من الخطيئة، التي قد لا تغتفر، وهو نوع من العصبية الحمقاء، أو التحزب التجاري، أو الإقطاعية البشرية التي لا يعرفها دين الله ولا تصوف المسلمين مهما دسوا ذلك عليه، وعللوه بما لا يقبله تشريع ولا تحقيق، وفي يقيني أن كبار الأشياخ من هذا القول برآء.

إن التصوف صفاء، ولا يمكن أن يتفق الصفاء مع الجفاء، فضلا عن

احتقار الناس والسقوط بمنازلهم التي لا يمكن الشهادة على الله بعلمها أو ترتيب مستوياتها .

ولا يكون معنى التعلق بالأفضل - في رأيك - أن تحتقر الفاضل ، فقد يكون هذا الفاضل عند الله هو الأفضل في الواقع ونفس الأمر ، والحكم على الناس بما لا يقين للإنسان به من غيب الله كذب جزاف ، حتى إن وافق الصواب اعتباطا ، ومدد الله دائم مستمر خالد متجدد ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠] .

إن تمجيدك لأبيك ليس معناه احتقارك لعمك ، فبمقدار ما يكون تمجيد الأب فرضا يكون احتقار العم خطيئة موبقة .

وإن القول بأن الولي مهما كانت شهرته في الناس هو أفضل من غيره من بقية أولياء الله نوع من الكذب والافتراء على الله ، لأن مقامات الأولياء غيب لا يعلمه إلا الله وحده .

لكن هناك حماقة يضيق بها العلم ، ويضيق بها الفهم ، ويضيق بها الأدب مع الله ، ومع أولياء الله ، ومع قداسة الغيب الإلهي .

زارنا مرة جماعةٌ من بلاد الشام يحملون إلينا اشتراكات إخوانهم في (**المسلم**) وكانت قد أُهديت إلينا نسخ جيبية لطيفة من طبعة خاصة من الدلائل ، فقدمنا إليهم منها قدرا على سبيل التحية والتكريم والهدية ، فقال كبيرهم ما هذا؟ قلنا : دلائل الخيرات . قال : وما حاجتنا إليها؟ وعندنا الصلاة (**الفلانية**) تلقيناها عن شيخنا ، وكل مرة منها بكذا ألف مرة من الدلائل . قلنا : وما دليلك على هذا؟ قال : كلام المشايخ . قلنا : وكلام

المشايخ لا يكون في ذاته دليلا من غير سند منصوص في كتاب أو سنة أو إجماع أو قياس؟ قال : بل كلام شيخنا نص والإيمان به فرض ، والبحث عن دليله شك وزندقة .

ولقد سمعت مثل هذا ، وقرأته مدسوسا على بعض سادتنا التجانية والإدريسية ، والحامدية ، والدسوقية ، وبعض الخلوتية ، والأحمدية ، وغيرهم ، ولا أنسى ليلة جاءني فيها شاب تكاد تحطمه الأوهام ، فقد أذنه الشيخ أن يكتفي بتلاوة الصلاة المنسوبة للطريقة ، ثم أعجبته صيغة أخرى ، فطلب من الشيخ الإذن له بالتعبد بِها ، فاستشاط الشيخ ، وهدد المريد بالويل والثبور وفواجع الدهور ، إذا هو فكر مرة أخرى في هذا أو فعله وقال له : إن قراءة مرة من هذه الصلاة تعدل قراءة القرآن كله مائة مرة ، وتعدل دلائل الخيرات ألف مرة ، ومن شك في هذا أحيط بالبلايا والمحن ، والعياذ بالله .

فَحَتَّمَ هذا التغالي المسرف في التعصب والحزبية وإهدار حق الشرع والعقل والناس واتِّهام الأشياخ بـما هم منه برآء .

وقد أعاد بعضهم طبع كتاب في الصلوات عليه ﷺ للهاروشي ، وهو يقول فيه : إن هذه الصلاة وحدها تعدل كذا مرة من دلائل الخيرات ، وهذه الصلاة تعدل ألف أو آلاف المرات من الدلائل ، وهكذا ، بل ينقل عن بعض المغالين إن بعض الصلوات تعدل قراءة القرآن مما هو إلى الإلحاد والمروق أقرب ، عياذا بالله .

إن كثرة القياس على دلائل الخيرات هو وحده الدليل على رتبتها وأنها الفريدة غير المكررة ، ولو كان هناك ما هو في مستواها ما كانت هي المثل

الأعلى في القياس والموازنة، ومع هذا نقول: مسكينة دلائل الخيرات، ومسكينة عقول ونفوس كثير من المتمصوفة، وصدق الله تعالى ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦].

إن بين أيدينا رسالة أنوار الحق لأخينا في الله المرحوم الشيخ عبد المقصود سالم، وهي من آيات البيان اللغوي والروحي، ولكن أحدا لم يقل إنها أفضل من الدلائل وإلى الله ترجع الأمور. وكم من ولي مستور أفضل من ألف ولي مشهور، انظر إلى موقف نبي الله موسى المشهور من ولي الله الخضر المستور، ثم انظر إلى شهرة إبليس وعدم شهرة نبي الله اليسع وذي الكفل، ثم اعلم أن تفضيل ولي على ولي مهما كان مشهورا وذاك مستورا ليس من تصوف المسلمين.

ولهذا نقرر عن علم وإيمان أنه ليس بصوفي على الإطلاق من يمنع أتباعه من زيارة أولياء الله، والموتى منهم خاصة، فإن لكل ولي مزية، ولم يأت في عقل ولا شرع أن الله جمع كل مزاياه في شخص واحد، فمن تبعه استغنى به عن كل البشر إلا أن يكون سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ ولا نبي بعده.

بل إن الله ابتلى سيدنا محمدا ﷺ فيما ابتلاه بمن يقول إنه كان خطاء ولا عصمة له إلا في القرآن فقط - ولا قوة إلا بالله - ثم نحن نجد من هؤلاء الجهلة من يقول بالعصمة المطلقة لبعض الأولياء والأشياخ، بل ربما ذهب الجهل والحمق بهم إلى القول بأن أرواح أشياخهم كانت في الأزل تمد أرواح أهل الله، بل ربما ذهب السفه والتغفل بهم إلى القول بأشنع من هذا، ألا

تراهم إذا ذكر الله ورسوله خرسوا وصموا ، وإذا ذكرت أشياخهم تصايحوا وتصاخبوا ، أشبه شيء بها قال الله تعالى ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥] وهو شيء خطير في الدين عنيف رهيب للغاية .

ثم إن في هذا نوعا من الاسترقاق والعبودية والاتجار بالبشر ، وإهدار الآدمية بعد إلغاء حكم الشريعة والحقيقة والطريقة والمعقولية والتاريخ ، الأمر الذي لا يقبله على نفسه إنسان يؤمن بالله ورسوله ، أو مسلم يحس بوجوده وكرامته ورسالته في الحياة ، ولا يغفر الله قط لعالم لا ينبه عليه ولا لصوفي يرضي به .

مرة أخرى مسكينة دلائل الخيرات :

شاء الله تعالى أن يُكْتَبَ لرسالة دلائل الخيرات إقبال من الناس ومحبة وثقة لم تعرف لكتاب ، ولا رسالة في الصلوات على رسول الله ﷺ لسبب أو لآخر على مرور الزمان .

وقد أوقعها هذا في تنافس شديد مع أشباهها ، مما لا نرى به بأسا كلما خلصت النية واتجهت إلى استباق الخير ، فذلك من مطالب الإسلام وفيوض الفتوحات لا تنتهي وعطاء الله ليس له حدود .

في رحاب أهل الله

درجات العارفين:

والعارفون كما قدمنا درجات ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾[آل عمران:١٦٣] ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾[الأنعام:١٣٢]، ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾[الصافات:١٦٤] والعلم بِهذه الدرجات ليس مشاعا ولا مباحا، ولكنه مخصوص بأهله، أهل الكشف والشهود، وهم قلة نادرة، شأنُها الأدب مع الله بالكتمان، والقيام بين مرتبتي الخوف والرجاء، بلا دعاوي ولا دعايات ﴿وَلَلْأَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾[الإسراء:٢١] وإنما صاحب العلم بالدرجات مانحها ومعطيها ربنا سبحانه، والتهجم على علمه المكنون سوء أدب، والحكم على غير المعروف دعوى زور، وشهادة على الله بغير يقين.

ومن هنا وجب التحفظ والاحتياط، كل التحفظ والاحتياط في القول بتفضيل شيخ على شيخ، أو ولي على ولي إلا بعلم يقين. وهيهات هيهات، فقد يوجد اللؤلؤ في المحار، ولا يوجد في بطن الحوت الجبار ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[الإسراء:٢٠].

ثم قارن بين مشهورية موسى ومغمورية العبد الصالح، وأيهما كان التابع يوما، وأيهما كان المتبوع، وأيهما كان الطالب يوما وأيهما كان المطلوب، ثم اعقد المعادلة الفاصلة بين مغمورية إليسع ومشهورية إبليس، وقل: اللهم علمنا الأدب، فالرجال كنوز مستورة، لا أسماء مشهورة.

ومن هنا وجب حسن الظن بجميع أولياء الله، وحسن الظن بالناس من حسن الظن بالله، وهو ثمن الجنة، وكما لا يجوز التفريق بين أحد من

الرسل لا يجوز التفريق بين أحد من الأولياء الذين عرفوا بالولاية، شهروا أم لم يشهروا.

فأحبب أشياخك ما شاء الله، وقدمهم وقدرهم وعظمهم ما شاء الله، ولكن لا تحتقر غيرهم، ولا تستصغر شأن من لم تنتسب إليه منهم، ولا تحرم نفسك مدد التبرك بِهم، ولا تحكم على فضل الله بما ليس لك به علم وتأمل قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠] وهو الذي يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا، ويجعل من يشاء عقيما، سواء في ذلك عطاء الحس والمعنى، وعطاء الظاهر وعطاء الباطن، من مفهوم الحقيقة والمجاز ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [المؤمنون: ٧١].

وأهل الله العارفون به كثير كثير، أنماط وألوان ورتب، مشهور ومستور، وكم من مستور خير من ألف مشهور، مادام على الأرض كتاب وسنة، ويوم تخلو منهم الدنيا فقد آذنت الدنيا بالفناء الأعظم.

وهذه نماذج من علامات الأولياء في الحديث الشريف:

روى النسائي: ثلاث من كن فيه استحق ولاية الله:

١- حلم أصيل يدفع به سفه السفيه.

٢- وورع صادق يحجزه عن محارم الله.

٣- وخلق حسن يداري به الناس[١].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الأولياء» (ص ٤٨ رقم ١١٩) عن ابن عباس.

وروى أحمد : إذا أحب العبد لله ، وأبغض لله فقد استحق ولاية الله .

وروى ابن أبي الدنيا في الأولياء حديثا قدسيا : إن أوليائي من عبادي من يذكرون بذكري ، وأذكر بذكرهم(١) .

وروى الحكيم الترمذي : إن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بكثرة صوم ولا صلاة ، ولكن دخلوها برحمة الله وسلامة الصدور ، وسخاوة الأنفس(٢) .

طريق الاجتباء وطريق الاهتداء :

يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى:١٣] ويقول تعالى ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ [مريم:٥٨] .

فالسلوك أو الهجرة أو الفرار إليه تعالى مكون من وجهين :

الأول : طريق الاجتباء : وهو من فيوضات الفضل الإلهي ، وهو تعالى لا يُسأل عما يفعل ، ولكل شيء منه تعالى حكمته ، والاجتباء معناه الاصطفاء والاختيار ، فهو تعالى يصطفى من عباده من يشاء كما يشاء على ما يشاء ، فيفيض عليه ما يشاء من فضله في ظلال قوله تعالى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٩] .

والاجتباء مقام (**المحبوبية**) لأنه يبدأ منه تعالى تكرما على عبده المجتبي ، فهو من أهل آية ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤] أي يحبونه

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الأولياء» (ص١٥ رقم ١٩) والطبراني في «الأوسط» (١/ ٢٠٣ رقم ٦٥١) عن عَمْرو بن الحمق .

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٤٣٩ رقم ١٠٨٩٢) مرسلا عن الحسن البصري و (رقم ١٠٨٩٣) موصولا عن أبي سَعِيد الْخُدْريّ .

تعالىٰ بحبه لهم، إذ كان البدء هنا من مقام الرضا ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾[المائدة:١١٩] والرضا من منابع الحب بدءا من أعلىٰ ليستقر حيث يشاء الله في أدنىٰ.

وهذا المقام من أعلى المقامات عند الصوفية، لأن صاحبه أغلب ما يكون في رحاب البسط والرجاء علىٰ بساط المواهب والعطايا والنظرة والمدد، وكل الأنبياء من مقام الاجتباء والاصطفاء، فهو من مواريث النبوة الغالية.

الثاني: مقام الاهتداء: وهو مقام العموم وإلىٰ أهله يتوجه خطاب الأمر والنهي، والترغيب والترهيب، والسلوك إلىٰ الله فيه من باب العمل والجهد، والرياضة، والانضباط، والمراقبة، والذكر والفرار، ولأنه يبدأ من العبد، أي من أدنىٰ فصاحبه من أهل آية ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾[البقرة:١٦٥] ولهذا أغلب ما يكون صاحب هذا المقام علىٰ بساط الخوف، والقبض، والتوقع والاحتياط، فإن باب الهداية هو الإنابة، كما جاء في الآية ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾[الشورىٰ:١٣] والإنابة عمل والتزام وعزيمة، وقد يصل العبد من طريق الاهتداء إلىٰ رحاب الاجتباء، فيجمع له بين الفضلين، ويذوق حلاوة ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾[البلد:١٠] وهذا هو مقام (**الْحِبِّيَّةِ**) مقام ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ﴾[التوبة:١٠٥] و﴿وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾[التغابن:١٦].

والعبد في مقام (**الحبية والمحبوبية**) يمضي في ظلال ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[ص:٣٠] فمن لم يكن هنا أو هنالك فهو هالك مع الهالك، وليس ذلك كذلك، وهكذا نجد جميع أهل الله بين طرفي إرادة الاجتباء والاهتداء، والله يفعل ما يشاء.

قضية الأقطاب

تمهيد هام:

كثيرا ما ينكر بعض الناس على الصوفية الأبرار ذكر الأقطاب والأبدال، والأوتاد والأغواث، والنقباء والعصائب والنجباء، وهو نوع من التجني والإسفاف تعصبا وانغلاقا وضيق فقه وأفق.

أما أن يكون جهل الجاهل حجة على علم العالم فهذا من علامات الساعة.

وقد كتب الإمام جلال الدين السيوطي ﵁ في هذا الموضوع جزءا كريما سماه الخبر الدال على وجود الأقطاب والأوتاد والنجباء والأبدال، وقد أجاد وأفاد رفع الله درجاته في الفردوس الأعلى.

وقد جمع السيوطي ﵁ أكثر ما جاء في هذا الباب من أحاديث صحاح وحسان وضعاف ومراسيل مقبولة على اعتبار أن الحديث الضعيف مجبور بما له من شواهد ومتابعات، وبأنه جاء من طرق متعددة، فارتفع إلى مرتبة الحسن لغيره، فيؤخذ به حتى في الأحكام، كما كان الإمام أحمد يأخذ بالحديث الضعيف إذا كان مجبورا بالشهرة.

وحتى لو لم يكن لهذه الأحاديث الضعاف ما يجبرها فهي هنا في باب التواريخ والمناقب، أي في الفضائل التي قد أجمع المحدثون على جواز الأخذ فيها بالحديث الضعيف، إذ إن معنى الضعيف أنه لا يخلو من الصحة، أي أنه صحيح غير أنه لم تكتمل فيه كل شروط الصحة، بينما تحققت فيه بعض هذه الشروط، راجع بحثنا المفصل عن الحديث الضعيف والصوفية.

من هم رواة هذه الأحاديث؟

وقد وردت أخبار ثبوت رجال الله على مراتبهم تلك في الأحاديث المرفوعة والموقوفة عن أربعة عشر راويا أو يزيدون :

١- عمر بن الخطاب .
٢- وعلي بن أبي طالب .
٣- وأنس بن مالك .
٤- وحذيفة بن اليمان .
٥- وعبادة بن الصامت .
٦- وابن عباس .
٧- وعبد الله بن عمر .
٨- وعبد الله بن مسعود .
٩- ومعاذ بن جبل .
١٠- وواثلة بن الأسقع .
١١- وأبي سعيد الخدري .
١٢- وأبي هريرة .
١٣- وأبي الدراء .
١٤- وأم سلمة .

فلم يبق شك في صحة محصل كل هذه الروايات وتأكيد مضمونها ويصبح التشكيك فيها نوعا من المغالطة ، والتعصب الكريه ، والتخريب العلمي لغير وجه الله ، وحين يتهمنا بعضهم بالخرافة ، فأنعم بوراثة رسول الله ﷺ يوم قالوا ﴿ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ [الذاريات: ٥٢] .

نماذج من أحاديث الأبدال والأوتاد وإخوانهم :

١- أخرج ابن عساكر في تاريخ دمشق بسنده عن عمر ﷺ : كان إذا ذكر الشام قال : يا ليت شعري عن الأبدال ، هل مرت بهم الركاب؟ وفي رواية إذا ذكر العراق قال : ليت شعري كم في هذا الحي من الأبدال[١]؟

(١) «تاريخ دمشق» (١/ ٢٩٥-٢٩٦) .

٢- وأخرج الإمام أحمد في مسنده عن علي قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«الأَبْدَالُ بِالشَّامِ وَهُمْ أَرْبَعُونَ رَجُلاً، كُلَّمَا مَاتَ رَجُلٌ أَبْدَلَ اللَّهُ مَكَانَهُ رَجُلاً، يُسْقَىٰ بِهِمُ الْغَيْثُ، وَيُنْتَصَرُ بِهِمْ عَلَى الأَعْدَاءِ»**[١]. رجاله رجال الصحيح غير سرح فهو ثقة.

ووجود الأبدال بالشام أخرجه كذلك الحاكم في المستدرك وقال: صحيح، وأقره الذهبي في المختصر، وأخرجه غيرهم، ومعنىٰ وجودهم بالشام أي وجود أكثريتهم، والعدد هنا مراد به الكثرة لا التحديد الحسابي.

٣- أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء وأخرجه الخلال في الكرامات أيضا عن علي قلت: يا رسول الله من الأبدال؟ قال: هم ستون رجلا. قلت: يا رسول الله جلهم لنا. قال: ليسوا بالمتنطعين ولا المبتدعين، ولا المتفيهقين لم ينالوا ما نالوا بكثرة صلاة ولا صيام ولا صدقة ولكن بسخاء الأنفس، وسلامة القلوب والنصيحة لأئمتهم. وفي رواية: للمسلمين[٢].

٤- وأخرج ابن عساكر بسنده عن علي: أن الأبدال من الشام، والعُصَب - بضم العين وفتح الصاد أي العصائب - والنجباء والرفقاء والأوتاد من الكوفة[٣].

وقد جاء ذلك من طرق متعددة.

(١) أخرجه أحمد (١/ ١١٢).
(٢) «الأولياء» (١/ ١٢ رقم ٨).
(٣) «تاريخ دمشق» (١/ ٢٩٧).

وأخرج الخلال بسنده عن علي قال: النجباء بمصر، والأبدال بالشام، وهم قليل.

وأخرج ابن عساكر من طريق آخر عن علي قال: الأبدال من الشام، والنجباء من مصر، والأخيار من العراق.

٥- وأخرج ابن عدي، والديلمي، وابن شاهين، والخلال عن أنس بن مالك مرفوعا قال: «**الأَبْدَالُ أَرْبَعُونَ رَجُلاً، وأربعون امرأة، كُلَّمَا مَاتَ رَجُلٌ أَبْدَلَ اللهُ مَكَانَهُ رَجُلاً، وكلما ماتت امرأة أبدل الله مكانها امرأة**».

جاء ذلك من عدة طرق وبعدة ألفاظ متقاربة.

وعن أنس أيضا من عدة طرق مرفوعا: «**إن دعامة أمتي عُصَب اليمن، وأبدال الشام. ثم وصفهمﷺ بأنهم ليسوا بالمتماوتين، ولا بالمتهالكين، ولا المتناوشين**»(١).

٦- وأخرج الطبراني في الأوسط عن أنس قالﷺ: «**لن تخلو الأرض من أربعين رجلا مِثْل خَلِيلِ الرَّحْمَنِ، فبهم يسقون، وبهم ينصرون**». قال في مجمع الزوائد: إسناده حسن(٢).

٧- أخرج الإمام أحمد عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ مرفوعا قالﷺ: «**الأَبْدَالُ من أمتي ثَلاثُونَ مِثْلُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ**»(٣).

---

(١) «تاريخ دمشق» (٢٦/ ٤٣٥).
(٢) «الأوسط» (٤/ ٢٤٧) وراجع كلام الهيثمي في المجمع (١٠/ ٦٣).
(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣٢٢).

ورجاله رجال الصحيح غير اثنين .

٨- أخرج أحمد في الزهد والخلال عن ابن عباس : ما خلت الأرض من بعد نوح من سبعة ، يدفع الله بهم عن أهل الأرض البلاء .

٩- وأخرج الطبراني عن ابن عمر مرفوعا قالﷺ : **«خيار أمتي في كل قرن خمسمائة ، والأبدال أربعون ، فلا الخمسمائة ينتقصون ولا الأربعون ، كلما مات رجل أبدل الله من الخمسمائة ، وأدخل في الأربعين مكانه»** .

وأخرج نحوه أبو نعيم[١] وابن عساكر وتمام باختلاف يسير في الألفاظ .

١٠- وأخرج الخلال في كتاب الكرامات عن ابن عمر مرفوعا قالﷺ : **«لا يزال أربعون رجلا يحفظ الله بهم الأرض ، كلما مات رجل أبدل الله مكانه آخر ، وهم في الأرض كلها»** .

١١- أخرج ابن عساكر من طريق أحمد بن أبي الحواري قال سمعت أبا سليمان يقول : الأبدال بالشام ، والنجباء بمصر ، والعصائب باليمن ، والأخيار بالعراق .

١٢- أخرج الخلال عن إبراهيم النخعي قال : ما من قرية ولا بلدة إلا يكون فيها من يدفع الله به عنهم .

وهم الأغواث عند الصوفية .

---

(١) «حلية الأولياء» (١/ ٨) .

١٣- وأخرج الخلال عن أبي هريرة قال : **دخلت على النبيﷺ فقال : يا أبا هريرة يدخل عليَّ من هذا الباب الساعة رجلٌ من السبعة ، الذين يرفع الله بهم عن أهل الأرض . قال : فإذا حبشي قد طلع من ذلك الباب أقرع أجدع**[١] **على رأسه جَرة من ماء فقالﷺ يا أبا هريرة هذا هو . ثم قالﷺ مرحبا بيسار ، ثلاث مرات . وكان يرش المسجد ويكنسه .**

١٤- أخرج أبو نعيم عن عبدالله بن مسعود قال قال رسول اللهﷺ : **«إن لله ﷻ في الخلق ثلاثمائة ، قلوبهم على قلب آدم عليه السلام ، ولله في الخلق أربعون قلوبهم على قلب موسى عليه السلام ، ولله في الخلق سبعة قلوبهم على قلب إبراهيم عليه السلام ، ولله في الخلق خمسة قلوبهم على قلب جبريل عليه السلام ، ولله في الخلق ثلاثة قلوبهم على قلب ميكائيل عليه السلام ، ولله في الخلق واحد على قلب إسرافيل عليه السلام ، فإذا مات الواحد أبدل الله مكانه من الثلاثة ، وإذا مات من الثلاثة أبدل الله مكانه من الخمسة ، وإذا مات من الخمسة أبدل الله مكانه من السبعة ، وإذا مات من السبعة أبدل الله مكانه من الأربعين ، وإذا مات من الأربعين أبدل الله مكانه من الثلاثمائة ، وإذا مات من الثلاثمائة أبدل الله مكانه من العامة»**[٢] .

١٥- في كفاية المعتقد لليافعي : إنما سمى الأبدال أبدالا لأنهم إذا غابوا

(١) قال السيد الرائد ﷺ : أقرع يريد أصلع الرأس لا شعر له ، وأجدع أي أنفه أفطس .

(٢) «حلية الأولياء» (١/ ٨ - ٩) ، و«تاريخ دمشق» (١/ ٣٠٣) .

تكون في مكانهم صورة روحانية تخلفهم . ثم ذكر بعض ما كان من هذا الشأن عند المحققين .

خلاصة وختام:

قلنا - وقد اعترف العلم المعملي الحديث المعروف بالاسبرتزم - أي استحضار الأرواح بالبدلية على هذا المعنى ، وسماها **(الطرح الروحي)** وترجم المرحوم الأستاذ محمد فريد وجدي عن كتب هذا العلم وقائع شتى في كتابه **(على أطلال المذهب المادي)** كما روى المرحوم المفسر الكبير الشيخ طنطاوي جوهري في كتابه **(الأرواح)** وقائع متعددة ، كما أثبت المرحوم الأستاذ فهمي أبو الخير ذلك في أكثر من كتاب له ، وكثير من العلماء المعاصرين .

ولا نزال نسمع من الصالحين الصادقين أمثال هذه القصص الروحية المكررة في عوالم الصوفية الأبرار ، ولعلنا شاهدنا شيئا من ذلك ، والله يشهد .

وخلاصة القول كما قدمنا:

١- هذه الأحاديث يشد بعضها بعضا ، ويأخذ بعضها برقاب بعض ، مما لا يدع ظلا من الشك في حقيقة موضوعها ، وإن اختلفت الألفاظ والرواة . ومعنى هذا أن هناك عالما روحيا ربانيا قائما بالفعل هو الذي نسميه عالم الغيب .

وأن منه الرجال والنساء كما نصت عليه الأحاديث ، وكما جاء في القرآن عن : مريم ، وآسية ، وأم موسى ، وزوج إبراهيم ، وامرأة عمران .

٢- أن العدد هنا لا مفهوم له ، أي أنه غير مقصود بحدوده الحسابية ولو

فرضنا أنه مقصود فالتوفيق بين الروايات أمر يسير .

٣- يتحصل من هذه النصوص أن هناك :

أ- أخيارا　　　ب- وأبدالا　　　ج- وأوتادا

د- ونجباء　　　هـ- ونقباء　　　و- وعصائب

بالإضافة إلى ما جاء في القرآن من ذكر السابقين والمقربين ، وأصحاب اليمين ، وغيرهم من درجات أهل الله .

٤- هؤلاء هم الذين يسميهم الصوفية بالأقطاب ، أما الأغواث فقد أشارت إليهم الأحاديث التي تقول (**بهم يغاث الناس ، وبهم ينصرون**) إلخ وهم كثرة في الضعفاء ، وفي مستويات أهل الله .

٥- أنه ليس المراد بأن الطائفة الفلانية في المكان الفلاني في الحديث الشريف حصر هذه الطائفة في هذا المكان فلا توجد قط في غيره ، بل المراد أن أكثرية هذه الطائفة تكون بهذا المكان ، وإلا فهم منتشرون في الأرض كلها كما جاء في بقية الأحاديث .

وقد يكون المعنى أن أقطاب الناحية الفلانية يسمون كذا ، والناحية الأخرى يسمون كذا ، وهذا إلى النفس أقرب .

٦- ترتيب هذه المستويات من أصحاب هذه الأسماء وغيرهم بعد ثبوت وجودهم كما رأيت أمر ثانوي إضافي ، يرجع إلى ضرورة التنظيم الكوني ، فليس من شيء في الكون إلا وهو يمضي على دستور وقانون نظامي معين ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[الرعد : ٨] ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ

ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣] ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

٧- قد تختلف مراتب الشهود في عالم الغيب، ولكنها لا تتعارض ولا تتصادم، بل هي تتوافق وتتنسق، كالشيء الواحد يراه أكثر من شخص من جهاته المتعددة، فتختلف الرؤية ولا يختلف الشيء في الحقيقة ونفس الأمر.

الفيروزآبادي والزبيدي مع الأقطاب

بعض المصابين بداء كراهية أئمة الإسلام السابقين لا يفتأ بحقد أسود أزرق يشغب على الإمام السيوطي، وبخاصة فيما ناصر به السادة الصوفية رضي الله عنهم ثم بالأخص في قضية الأقطاب، وهنا نضيف إلى هذا الإجمال ما جاء عن الإمامين العظيمين الفيروزآبادي والزبيدي فنقول:

في القاموس المحيط للفيروزآبادي يقول ما نصه (بدل) والأبدال قوم بهم يقيم الله ﷻ الأرض، وهم سبعون: أربعون بالشام، وثلاثون بغيرها، لا يموت أحدهم إلا قام مكانه آخر.

نقول: ومعنى يقيم الله بهم الأرض أي يرأف بالعباد ويلطف بهم ببركة هؤلاء وصلواتهم ودعائهم.

والفيروزآبادي صاحب القاموس هو: قاضي القضاة محمد بن يعقوب، وتشهد الدنيا أنه ليس من أهل الخرق والمخرقة، بل من أئمة المحققين: ولا يتهم بالتشيع للصوفية، وإن كان الشوكاني في البدر الطالع قال إنه أكثر النقل عن ابن عربي في شرحه للبخاري، وذلك أن الحق هنا هو الحق هناك.

دخل الديار الشامية والمصرية، وطاف البلاد الشرقية والشمالية وختم بالأقطار الحجازية، ودخل الهند وما والاها، واعتنى بالحديث أعظم عناية، ومن تصانيفه: تسهيل الوصول إلى الأحاديث الزائدة على جامع الأصول، وشرح مطول للبخاري، بلغ عشرين سفرا طويل الذيول كثير الغرائب

والشوارد والنقول، وكتاب الصِّلات والْبِشَر في الصلاة على خير الْبَشَر.

ولم يدخل بلدا إلا أكرمه سلطانها، وأخذ عنه الحافظ ابن حجر أمير المؤمنين في الحديث، وكان بينهما محاورات ومكاتبات ومطارحات ومباريات، وسمع منه المسلسل بسماعه من شيخ الإسلام التقي السبكي، وشدت إليه الرحال من أكثر الأقاليم، وكان مرجع عصره في اللغة والحديث والتفسير، وله بصائر ذوي التمييز، والدرر الغوالي في الأحاديث العوالي، و...

وقد وافقه شارحه صاحب تاج العروس على ما قاله عن الأبدال وشارح القاموس هو: السيد محمد بن محمد بن محمد الحسيني المشهور بالشيخ مرتضي الزبيدي، علامة اللغة والحديث والرجال والأنساب، كاتبه ملوك الحجاز والهند واليمن والشام، والعراق والمغرب الأقصى، والترك والسودان والجزائر، وكان يحسن التركية والفارسية، وشيئا من لسان الكرج، وهو من كبار المصنفين في الحديث والتصوف واللغة وغيرها، ولم يتهم بتخريف، ولا انحراف، ولا تشيع.

فمَنْ مِنَ المنكرين اليوم للأبدال يرقى إلى هذا المستوى المعجز؟ رحم الله امرأ عرف قدر نفسه.

قضية الأقطاب بين العقلانية والربانية

مقدمة هامة :

هذا الباب أصله الكشف والإلهام ومقامات الشهود والشفافية في رياض الأذواق والمواجيد ، على ما قدمناه في الباب السابق من القوانين .

ثم إن تصديقه أو التوقف فيه أو تركه ليس بذي بال ، فإنما هو خاص بطائفة روحية ربانية من أهل السلوك ، بل ليس هو شرطا في سلوك ولا قرب ولا وصول ، فلعل الانشغال به يكون من معوقات السير إلى الله .

ثم هو لا يتعارض مع كتاب ولا سنة ، ولا مع معلوم من الدين بالضرورة ، فهو من العفو المباح لمن جاهد فشاهد ، ولمن أحسن الظن بأهله فصدقهم .

ومعارج الغيب لا نهاية لها ، وعوالم الغيب نظام دقيق بالغ ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٦٣] ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الأنعام:١٣٢] ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾ [الصافات:١٦٤] ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا﴾ [الإسراء:٢١] .

وعلى هذا الأساس أثبتنا هنا ما رجحنا قبوله وإمكانه ، وجواز صحة وجوده في العالم الروحي المجرد للتثقيف ، والإحاطة بلون من الفكر الشريف حول واقع أشرف .

وهذه المشاهد والكشوف والمنازلات أمور تجريبية عملية لا تخضع للنظر والتمنطق ، وليتذكر المرء المنصف أن العالم يتكشف كل يوم عن غيب جديد ، حتى أصبح مستحيل الأمس واقعا تطبيقا اليوم ، وليكن في

العلم دائما قوله تعالى ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾[الإسراء:٨٥] وعالم المجهول المستور أضعاف عالم المعروف المشهور .

وليتذكر الناس كيف كان الإمام أبو حامد الغزالي فيلسوفا ينكر كل هذه الجوانب ، حتى إذا كابدها وعاناها وشاهدها قال قوله المعروف :

قد كان ما كان مما لست أذكـره   فظن خيرا ولا تسأل عن الخـبر

ويقول السيد الوالد في هذا المجال الروحي :

يقول سادات التـصوف العـلي   مـن كـل عـارف حكـيم وولي

وشرحــه في الكتــب لا يجــوز   بل هـو كنـز في النهـي مكنـوز

فاكتمــه ، أو فقلــه بالإشــاره   لأهلـــــه ، ولا تـــــذع أسراره

فيتهمك العمي أو ذوو السفه   بالزندقات والدعاوي المؤسفه

شـــأنهم التقنـــيط والتنبـــيط   والله مـــــن روائهـــــم محـــــيط

فليتق الله من يتهم السادة بالتخريف والأوهام والشطح والخيال ، فهو وغيره لم ولن يحيط بسر الكون الأعظم وعليه أن يجرب ، فليس هذا مجال التنظير والمقاولة ، أو فليتوقف ، وليدع أمرهم لمن هو أقرب إليهم وإليه من حبل الوريد ، وهو القاهر ذو البطش الذي لا يطاق انتقامه .

﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولاً﴾[الإسراء:٣٦] .

وهنا ننقل مشهدا روحيا لعالم الغيب من مشاهد الله ، التي قد تختلف ولكنها لا تتعارض ولا تتناقض ولا تتنافى .

العلانية والقضايا الروحية :

إذا فرضنا قيام أهل عصر ما في صعيد واحد، ثم اخترنا أفضلهم ثم عدنا فاخترنا أفضل هؤلاء، وظللنا نختار من كل جمع أفضلهم على الطريقة الهرمية التصاعدية لانتهينا إلى فرد واحد تتجمع فيه فضائل لم تهيأ لغيره .

إذا سمينا هذا الذي فَضُلَ جميع أهل عصره **(الغوث)** تيمنا وأخذا من حديث **(الضعفاء)** الذين يغاث بهم الناس، ويستنزل بهم المطر والرزق والنصر، ثم قلنا إنه الوارث للمقام النبوي الأشرف في عصره لاختصاصه بطوائف الكمالات، التي لم تكن لغيره فأظن، بل أتيقن أنه لا شيء في ذلك على الإطلاق، لأنه النتيجة الطبيعية للصورة .

وحين نتصور أن الذين يلون هذا **(الغوث)** في الترتيب التنازلي رجلان مثلا، وأن الذين يلون هذين الرجلين أربعة، ثم الذين يلونهم والذين يلونهم، وسمينا كل جماعة باسم : كالأوتاد والنجباء والأبدال والأخيار . . . إلخ تيمنًا وأخذًا من الأحاديث والآثار التي حملت إلينا هذه الألفاظ بالنص، فلا أظن بل أتيقن أنه لا شيء في هذا على الإطلاق .

ثم تأتي مسألة تعيين العدد، وكذلك مسألة المجالات الروحية الخاصة بكل طائفة، فهي مسائل فرعية على هذا الأصل الْـمُسَلَّم به، فلا قيمة للاختلاف فيها، وقد قررنا أننا ننقلها عن **(أهل الكشف)** واجتهادات الصوفية في مذهبهم، ومقام أهل الكشف مقام تطبيق تجريبي عندهم، لا يتأتى إدراكه بالملاحاة[1] النظرية وهو مما لا تنكره المعاناة الفعلية، ولا يخذله

(١) أي الجدل والمناظرة .

الاستقراء الشخصي عمليا في بعض الصالحين وتشهد له آيات منها ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾[التغابن:١١] ومنها ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾[الأنبياء:٧٩] ومنها ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[الأنفال:٢٩] وفي المقابلة آيات الختم على السمع والبصر والتغشية على القلوب، ويؤيده حديث (**فراسة المؤمن**) وحديث التحديث وعمر، وغيره مما هو في بابه.

اجتهاد أئمة التصوف:

وكما اجتهد أهل كل علم في تطبيق علومهم اجتهد هؤلاء السادة، فطبقوا قواعدهم هذه المؤيدة بالنقل والعقل والكشف والذوق والتجربة، وسلكوا بعض كبار الصالحين من السلف في سلك الترتيب الذي صح عندهم، كالأصحاب الأربعة في مقابلة الأملاك مثلا، إلهامًا وربطًا بين عالمي الملك والملكوت.

وكان هذا مما كشف لهم عنه التقاءُ الأرواح الكبرىٰ في عوالم الشهود والمكاشفة، والأرواح عالم حي صاخب مشحون بالنظام بالحركة، علىٰ ما قرره كبار علماء الإسلام وغيرهم، وهكذا لا ترانا خرجنا عن مضامين الكتاب والسنة.

ولما كانت القضية كما ترىٰ جامعة بين طرفي العلم العقلي والوجدان الروحي كان أساسها التجربة، وما كان أساسه التجربة لم يقع تحت سلطان الأحكام النظرية المجردة، ولا شك أن عدم التسليم بشيء لا ينهض قط دليلا علىٰ عدم وجوده، ولا يغير شيئا من الحقيقة عند أهلها، ودعوىٰ الإحاطة بكل العلوم لا يطيقها عالم ولا يقبلها دين، والتجني على الناس فيما رجح عندهم بدليله لا علاقة له بمناهج العلم والعمل عند المصلحين.

وها نحن لا تزال تتكشف لنا بين اليوم والليلة حقائق كونية علمية وروحية، كان مجرد التفكير فيها كافيا لإسكان صاحبها شهورا في سراي المجانين، وكانوا يسمونها أوهاما، وشعوذة وتخريفا وتوهيما، فأصبحت حقائق لا شك فيها .

مشهد من المقامات الكبرى:

أولا : قالوا : المقامات الكبرىٰ في العالم الروحي خمسة (**المقام الأكبر**) فيها هو المقام المحمدي، ويمتاز بأنه لم يسبقه قدم إلى الله، ثم تأتي (**المقامات الأربعة**) الباقية، وهي على أقدام كبار الملائكة الأربعة : جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وهي بعد (**مقام الإمامين**) وهما على قدم مالك ورضوان، اللذين يمثلان صفتي الجمال والجلال، قالوا : وقد ثبت هذه المقامات للسادة الخلفاء الأربعة : أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي .

فكان كل منهم في حياته الروحية على أكثر خصائص ملك من الملائكة الأربعة، وقد سبق إليها أولو العزم الأربعة من الأنبياء (**نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ**) كما قد ثبتت هذه المقامات من بعد لأئمة المذاهب الأربعة ثم لغيرهم .

ثانيا : أما بقية خواص الصحابة رضي الله عنهم كأهل البيعة، والعشرة المبشرين بالجنة وأهل بدر، وأصحاب مراتب الفقه بالدين من أمثال كُتَّاب الوحي، ورجال الفتوىٰ والمرشدين الموجهين إلى تعليم القبائل، وأصحاب المميزات الشخصية الخاصة ونحوهم،

فكل منهم عند السادة على قدم نبي سابق ، وكل نبي سابق يقوم على قدم ملك من كبار ملائكة الله في العالم الأعلى ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر : ٣١] .

قالوا : أما كافة الصحابة فهم على أقدام صفوف من الملائكة ، وراثة عن صالحي الأمم السابقة يرتبطون معهم بمناسبات روحية وعلائق غيبية ، يعلمها الله وحده بحكم ارتباط عالم الغيب بعالم الشهادة .

فالنقباء الاثنى عشر كانوا على أقدام الحوارين ، الذين كانوا على أقدام الملائكة الموكلين بالبروج الاثنى عشر .

ثالثا : وهكذا كلما خلا قدم بموت صاحبه رفع إليه من هو أهله من أحياء المستوى الذي يليه من التابعين فمن بعدهم إلى يوم القيامة ، فلا تخلو المقامات الأربعة الكبرى ، ولا المقامات الخاصة بعدها ، ولا مقامات الكافة من قائم عليها إلى يوم القيامة ، يشتهر منهم من يشتهر ، ويستتر منهم من يستتر ، فلا المشهور بأفضل من المستور يقينًا ، ولا المستور بأكرم من المشهور يقينًا .

إنما ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾[آل عمران :١٦٣] ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾[الأنعام :١٣٢] ﴿وَلَلْأَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾[الإسراء :٢١] ولهذا يجب أن يترك أمر تفضيلهم لمن يعلم حقيقتهم وحده سبحانه ، وحسبنا حسن الظن الكافي بهم جميعا ، مع تمام التقدير والتوقير والإجلال .

رابعا : قالوا : أما (**القطب الغوث الفرد الجامع**) وهو الختم الأعظم فهو عند السادة على (**القدم المحمدي الأقدس**) الذي لم يسبقه قدم إلى (**الدرجة الرفيعة**) ليلة المعراج، ولن يلحقه قدم في (**المقام المحمود**) يوم القيامة .

ثم إن رتبة (**الغوثية**) هذه تستغرق رتبة (**الخضرية**) وهي مرتبة (**الصديقية**) وإن كان بعض السادة يفرق بين درجة الصديقية والخضرية، وعلى كلٍّ فهما مندمجتين معا في طريق الغوثية العظمى، وصاحبها هو (**القائم الظاهر المشهود**) في سلسلة الممهدين للإمام المهدي الموعود، راجع رسالتنا عن المهدي .

خامسا : وهنا لابد من تكرار تقرير القاعدة الآتية منعا من اللجاجة بعلم أو جهالة .

عوالم ما وراء المنظور:

إن هذه المسائل كلها من عوالم الفيض وما وراء المنظور، وهي منازل ومراتب غيبية شاملة للكون كله، ولكل سالك فيها إحاطات ومدارك، ومشاهد وأذواق، ومواجيد خاصة أو مشتركة، وهي لا تخضع لقوانين المادة الغليظة التي تحكمنا، وإنما هي محكومة بنواميس واقعية دقيقة محددة من عالمها الروحي، ومادتها المستورة، ولذلك كان أهلها جميعا على حق فيما بلغوا به، فكل منهم يصف ما يرى في مقامه الذي قد يختلف عن مقام

غيره، ولكنه لا يعارضه ولا ينافيه في الحقيقة ونفس الأمر[١].

فالإيمان بها أو التوقف فيها أو تجميدها، أو استبعادها لا يقدح في العقيدة على قواعدها الشرعية المقررة، فإنها خصائص دون الفروع الشرعية، وهي ذاتيات روحية وشخصية تدور في الفلك الإسلامي الرحيب.

ولكن الإنكار عليها، أو نفيها عند أهل الحق معوق عن السلوك مؤخر للوصول، معرض للسلب والاستدراج، موطيء لما قد يكون به سوء الخاتمة - والعياذ بالله - لأنه حكم على مجهول لا يقين عليه لغير العالم به، فيسلم له.

الأقطاب الأربعة:

أما بعد: فإذا علمت هذا فقد علمت أن قصر المقامات الأربعة الكبرى على أصحاب الأسماء الأربعة الشهيرة وإغلاق الباب بعدهم دون سواهم يحتاج إلى وقفة كبرى، فإن التحديد العلمي الصوفي الواقعي أن يضاف لفظ (**أشهر**) إلى أسماء السادة الأربعة، ويكون المعنى أنهم رضي الله عنهم من أشهر من تولى هذه المقامات، كل في عصره، وخصوصا أن الأربعة المشاهير لم يكونوا في عصر واحد.

فمثلا: ولد البدوي بعد الرفاعي بنحو (٨٢) سنة، وولد الدسوقي بعد الرفاعي بنحو (١٣٩) سنة، وولد الدسوقي أيضا بعد البدوي بنحو

(١) قال السيد الرائد ﷺ: وذلك كما لو وقف رجل على الهرم فوصف القاهرة بأن أولها الجيزة، ووقف رجل على القلعة فوصف القاهرة بأن أولها المنشية، ووقف آخر في حلوان فقال أول القاهرة المعادي، وهكذا، فكل منهم صادق بالنسبة لموقفه ومشهده من غير منافاة لسواه.

(٥٧) سنة ، ولكنه أدركه ، وهكذا نجد أن عصر الرفاعي والجيلاني سبق عهد البدوي والدسوقي بنحو قرن تقريبا ، فلم يجمع الأربعة المشاهير عصرٌ واحدٌ أبدا ، مما يؤكد نظريتنا العلمية الروحية التي قررناها ، كما أشهدنا الله في عالم العقلانية والأرواح .

لا حرج على فضل الله :

وليس من حق أحد أن يتحكم في فضل الله ، فيقصره على عدد معين من الناس ، والله تعالى يقول ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[الإسراء:٢٠] فكما لا يمكن الجزم على أي حال بتفضيل ولي على ولي مهما اشتهر وكثر أتباعه كذلك لا يمكن الجزم على أي حال بإغلاق باب المدد بعد الأربعة المشاهير ، والحكم على غيرهم بالتجمد أو الهبوط عن المستوى القطباني الكريم ، فإن هذا اللون من الإقطاع لم يرد في شريعة ولا حقيقة ، ولا ظاهر ولا باطن .

لماذا لا يكون الشاذلي مثلا أحد الأربعة في عصره؟ مَن الذي يملك الدليل على نفي ذلك؟ لماذا لا يكون جلال الدين الرومي ، وشاه نقشبند ، والبكري ، والدردير ، والحفني ، والمجددي ، والمرسي ، والبوصيري ، والحنفي ، والسنوسي ، والرازي ، والطوسي ، واليوسي ، والقشيري ، والغزالي ، وخليل الله ، وأبو عليان ، وأبو علوان ، ومحمد خليل ، وعبد الحليم ، ورضوان ، بل ابن تيمية ، وابن القيم ، والشوكاني ، والصنعاني ، والغيطي ، والعسقلاني ، والهيثمي ، والعُدْوي ، وعليش ، وذو النون ، والمنذري ، والكتاني ، والسيوطي ، والجرجاني ، وابن الفارض ، ومحيي الدين ، والشعراني ، وأمثالهم سلفا وخلفا كالسهروردي ، والجنيد ، والشبلي ،

ومعروف ، والبسطامي ، والألوف من أمثالهم ، لماذا لا يكونون من الأقطاب الأربعة في أزمنتهم؟

ومن الذي يستطيع أن يقول إن الله استحدث هذه المقامات وقفًا خاصا على الأربعة المشاهير وحدهم ، فلم يسبقهم عليه سابق ، ولم يلحقهم فيها لاحق ، وهو يقول ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠] .

الأقطاب الأربعة في كل عصر :

لماذا لا يكون في عصرنا هذا رجال يشغلون بعض هذه المقامات الأربعة فعلاً وبالذات ، وإن لم تكتب لهم الشهرة ، وهم يستمدون من أرواح كل من شغل قبلهم مكانهم إلى قدم الملك العظيم ، كما هو المقرر عند السادة؟

إن هذه المقامات لا تزال بفضل الله مشغولة بأهلها في كل عصر وكل زمن ، كلما انتقل منهم إلى الله سيد قام سيد ، إماما بعد إماما ، على ترتيب خاص أشارت إلى بعضه أحاديث نبوية ، وفصلت إجماله مدارك أهل الشهود والمكاشفة ، في منازل القرب والسير إلى الله .

إن من أهل القلوب من يعرف أربعة عصره معرفة تامة ، كما يعرف بقية أصحاب المقامات المختلفة من أهل الله .

إننا نحب ساداتنا الأربعة المشاهير كل الحب ونتبرك بهم ، ونداقع عنهم ، ونستشفع إلى الله بفضله عليهم ، ومن أجل هذا ننزههم عن الزعم الغريب بأنهم تقاسموا وحدهم السلطة الغيبية في الكون أحياء وأمواتا ، فلم يدعوا ميراثا لورث بعد ، إن النبوة وحدها التي لا تورث ، أما الولاية فموروثة بأنواعها إلى يوم القيامة .

ولقد كان هذا الزعم من أسباب استهداف تصوف المسلمين للطعن، والهمز واللمز والغمز، ونحن الآن مطالبون بعرض هذا العلم الشريف المؤصل عرضا علميا، لا يتعارض مع معقول ولا منقول، ولا ظاهر ولا باطن، ويعطي كل ذي حق حقه.

صورة أخرى أهل الغيب:

وتكملة للفائدة نعود فنذكر: أن الصوفية بحسب مراتب الأذواق والكشوف والمقامات مؤيدا بمفاهيم الآيات والآثار والأحاديث الثابتة أقوال شتىٰ في مراتب السادة (**أهل الباطن**) المعروفون عندهم باسم (**أهل الغيب**) أو (**أهل الديوان**) وتتلخص هذه الصورة تقريبا في الآتي، مع بعض الاختلافات اليسيرة عند بعضهم:

١- الغوث الأعظم، والفرد الجامع، الذي هو علىٰ قدم النبيﷺ ومجاله الروحي حول العرش، والمجال الروحي شيء غير المجال البدني، ومحل الإقامة الجسدية.

٢- ثم الإمامان، وهما وزيرا القطب عن يمينه وشماله، ومجالهما الروحي طرفي الفرش - الفرش بالفاء ما دون العرش بالعين - علىٰ قدم رضوان ومالك كما قلنا.

٣- ثم الأوتاد، وهم الأقطاب الأربعة الكبار مع خاصتهم، ومجالهم الروحي الجهات الكونية الأربع، وهم علىٰ أقدام جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل.

٤- ثم الأبدال السبعة، ومجالهم الروحي السبع الطباق.

٥- ثم النقباء الاثنا عشر، ومجالهم الروحي البروج السماوية الاثنا عشر.

٦- ثم النجباء السبعون، وهم أهل الخلوة والميقات، ومجالهم الروحي الأفلاك والمجرات.

٧- ثم الأخيار، وهم الحواريون وأهل المعارج، وعددهم بين الثلاثين والثلاثمائة، ومجالهم الروحي أقطار الأفق الأعلىٰ.

وأصحاب هذه المقامات السبعة التي ذكرناها هم الأقطاب على اختلاف المراتب والمقامات في كل زمان ومكان، بين مشهور ومستور.

٨- ثم المفردون[1] وهم الأولياء المختارون من صالحي الأمة، وهم الخمسمائة والثلاثمائة، ومجالهم الروحي الأفق الأدنىٰ وأقطار المدن والقرىٰ.

٩- ثم الصالحون وهم أتقياء الأمة وهم درجات شتىٰ، ومجالاتهم الروحية متعددة.

ثم إن لكل صاحب مقام من هذه المقامات خلفاء وعرفاء، فإذا خلا المقام انتقل إليه الخليفة، ثم ارتفع العريف إلىٰ رتبة الخليفة، واختير من المستوىٰ الثاني من هو أهل للعرافة، وهكذا.

وكل من ذكرنا علىٰ قدم سابق من الصحابة الذين هم علىٰ أقدام أهل الغيب من الأنبياء والملائكة كما أسلفنا.

وقد تختلف هذه الصورة عند بعض السادة في التسميات والأعداد وترتيب

(١) قال السيد الرائد ﵁: المفردون بالفاء، وبالغين في بعض الروايات، وفيهم جاء حديث: سبق المفردون. فهم من أهل آية السابقون.

المستويات، وكلها صحيح في ذاته معلل بدليله كما قدمنا، وهو راجع إلى اختلاف نسب المقامات والإفاضات، ومستوى الناظر وزاوية المنظور.

المقامات وأرواح السابقين:

وعندنا أيضا أن كل مستوى من هذه المستويات محفوف بأرواح كل من سبق أن شغله من أهل الله السابقين، وعلى هذا فإن شاغله من الأحياء يعتبر ممثلا للأرواح التي سبقته إلى هذا المقام، فهي تحوطه، ومنها يستمد الكثير من السر والإفاضة.

وكما أرجعنا أقدام الأقطاب الأربعة الكبار إلى نظام أهل الملأ الأعلى، باعتباره مرجع النظام الكوني كله، والتناسب الرابط بينه وبين العالم الأرضي حقيقة مسلمة، فكذلك مقام الإمامين: أحدهما مستغرق في مقام (**الجمال**) على قدم (رضوان الجنة) والثاني مستغرق في (**الجلال**) على قدم (**مالك النار**) ومن هنا صح مقام (**الكمال**) للغوث الأعظم، جامعا فيه بين الجمال والجلال لوراثته للقدم المحمدي.

ثم نجد مقام الإمامين عند أهل الكشف مثلا، هما على قدم: آدم وإدريس، ثم إلياس والخضر، ومن شاء الله من أهل النبوات، ثم من على أقدامهم من الربانيين مشهورين أو مستورين.

وكان على مقام الإمامين السعدان: سيدا الأوس والخزرج، والسعيدان: ابن المسيب وابن جبير، والصاحبان الفقيهان: أبو يوسف ومحمد بن الحسن، والشيخان المحدثان: البخاري ومسلم (**وهكذا يقول أهل الكشف**) وأنت حر في أن تقبل أو ترفض. فليس هذا من الأصول الشرعية، ولكنها مشاهد روحية مؤكدة عند أصحابها من أهل الله.

أهل الديوان :

قالوا : ويجمع **(أهل الديوان)** وهم كبار أصحاب الوظائف الغيبية ، أرواحا وهيولي في المعاهد الثلاثة المقدسة : الحرم المكي ، والحرم النبوي ، وبيت المقدس ، ثم في أماكن مقدسة أخرىٰ يكشف عنها لأهل القلوب[1] علىٰ توقيت وترتيب دقيق ، فليس في الغيب فوضىٰ ، ولا تجمد وعدم ، ولا انفصال مطلق ، أو تعطل خالد .

قالوا : وفي مقابل المجالات الروحية العليا لأهل الله مجالات أرضية ، فمجال الغوث مع العرش **(الكعبة المكرمة)** ومجال **(الإمام الجمالي)** مع أحد طرفي الفرش **(بيت المقدس)** وكذلك شأن كل رجال الله ، لكل منهم مجال سماوي وآخر أرضي .

وفي عالم الجن المسلمين يمضي نظام المراتب الروحية لأهلها من صالحيهم علىٰ نظام مراتب الإنس تماما ، ففي كلٍّ أهلُه من الجن والإنس علىٰ حد سواء ، أما تعاونهم وتعاطفهم مع صالحي الإنس فأمر غير مختلف عليه .

كلمة ختامية :

أما بعد : فعندما يجلس أحدهم - أي أحدهم هنا أو هناك - شبعان متكئا علىٰ أريكته يتمطىٰ ويتجشأ مرة ، ويتثاءب ويتلوىٰ مرة ، ويستقطب ويشمأنط أخرىٰ ، ثم يزعم لنفسه ولأمثاله أن الصوفيين بهذه الأقوال استحمقوا أو أخطأوا أو خرفوا ، فليمسك جهله هذا علىٰ نفسه وحدها ، فليس جهله هو وأمثاله بشيء ما دليلا علىٰ عدم وجود هذا الشيء أو عدم

(١) قال السيد الرائد ﷺ : منها عند بعضهم غار حراء وثور أو ما حولهما .

صحة أخبار أهله به ، والتسليم بالواقع أو إنكاره لا يغير شيئا من الحقيقة اليقينية عند أهلها ، والذي لا يعرف حقيقة كنه حياته ولا نفسه ولا روحه ، ولا عقله ولا فكره ولا نومه أولى به أن يُسَلِّمَ لمن يعرف ، فإن لم يُسَلِّمْ فمقتضى الإنصاف أن يتوقف .

ونحن لا نجبر أحدا أبدا على الإيمان بهذا كله أو بعضه ، فإنها إضافات روحية ذوقية ، لا تتنافى مع التكاليف الشرعية ، بل هي ثمرة لها .

ولكننا لا نسمح أبدا بتكذيبنا فيه بغير برهان مبين ، ولا برهان على الإطلاق إلا أن يكون هرطقة أو شقشقة أو هنبقة ، أو فيهقة باسم الدين المظلوم .

وها نحن أولاء لا تزال تنكشف أمامنا يوميا أسرار مذهلة معجزة من المادة المشهودة ، فكيف بمساتير الغيوب؟ وشرط المؤمن الإيمان بالغيب مادام لا يعارض العقيدة ، ولا يخالف الأصول . فالتوقح والاغتماز والتعالم هنا بالكلمات النظرية في هذه الجوانب العملية التي تحتاج أساسا إلى التجربة التطبيقية - كما قدمنا والممارسة السلوكية الطويلة - يخالف الإنصاف العلمي والعدالة الخلقية ، ومبادئ الدين الذي يأمر بسؤال أهل الذكر ، ويجب أن يكون في الذاكرة دائما قوله تعالى ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٨٥] ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٧٦] .

قصة الخضر

بين

الصوفية والعلماء

قصة الخضر بين الصوفية والعلماء
وموضوع الشريعة والحقيقة
في ميزان الفقه العلمي

موسى والعلم (١)**:**

داخل موسى يوما شعورٌ بشري بأنه أعلم الناس بما أفاض الله عليه من علم النبوة العظيم، ولما كان العلم ضربا من ضروب الكمال وكان الكمال لا يتناهى و﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤] وهو أدرى حيث يضع فضله ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠].

لما كان كذلك ضرب الله لموسى مثلا عمليا تربويا يكون أدبا له ولغيره من بعده، وبخاصة أولئك الذين يقفون على باب الله، وهم القدوة الكبرى للبشر.

وأذن الله لموسى أن يلتقي بالعبد الصالح عند مجمع البحرين **(دجلة والفرات)** أو **(الأبيض والأحمر)** أو ما الله به أعلم.

---

(١) هذا البحث كان قد نشره السيد الرائد ﷺ بمجلة الشبان المسلمين أيام كان أمينا عاما للجمعية العامة للشبان المسلمين، ثم نشر بعد ذلك في مجلة المسلم.

من هو العبد الصالح:

ولم يحدد القرآن شخصية العبد الصالح، ولا رتبته من الله، ولكنه وصفه بأن الله آتاه رحمة من عنده وعلمه من لدنه علما، ومن هنا جاء التعبير بالعلم (**اللدُنِّي**) أي العلم المغيب في مساتير صحائف اللوح المحفوظ (**عند الله**) فاللدنية هي العندية المقدسة ومفاتيح الغيب عند الله، يهب ما يشاء منها لمن يشاء من عباده أما الإحاطة المطلقة بالغيب فهي من خصائص الألوهية وحدها.

وقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة ﵁ وفي بقية من الكتب الستة من طرق عدة: أن العبد الصالح هو الخضر.

وقد كان النبي ﷺ يؤنس أصحابه فيقول: «**ألا أخبركم عن الخضر؟**». كما رواه الطبراني عن أبي أمامة وحسنه بعض الحفاظ وفيه قوله لموسى: أنا الخضر الذي سمعت به[1].

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «**إِنَّمَا سُمِّيَ الْخَضِرُ أَنَّهُ جَلَسَ عَلَىٰ فَرْوَةٍ بَيْضَاءَ - يعني أرضا لا نبات بها - فَإِذَا هِيَ تَهْتَزُّ مِنْ خَلْفِهِ خَضْرَاءَ**»[2] يعني ينتشر فيها النبات معجزة أو كرامة من الله له، وقد أبعد من زعم أن الفروة في الحديث هي جلد الشاة، وهو ما لا يتساوى مع مقتضى الموضوع ولا شرف القصة.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٨/ ١١٢، رقم ٧٥٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٠٢).

العبد الصالح هو الخضر:

وقد روى عبد بن حميد من طريق الربيع بن أنس: قال موسى لما لقي الخضر: السلام عليك يا خضر، فقال: وعليك السلام يا موسى، قال: وما يدريك أنني موسى؟ قال: أدراني بك الذي أدراك بي[١].

ومتي ما ثبت هذا التعريف في الصحاح فقد سقطت دعوى من أنكر أن العبد الصالح هو الخضر، ويقال أن اسمه بليا بن ملكان وجده السابع نوح، وأنه ابن عم إبراهيم عليه السلام، فيكون لفظ الخضر لقبا له.

هل الخضر ولي أم نبي أم ملك:

يقول ابن الجوزي وابن أبي زياد وأبو الحسن الرماني ومحمد بن إسحاق وآخرون: إن الخضر نبي ورسول.

ونقل القرطبي وأبو حيان والبغوي وابن عطية والثعلبي في تفاسيرهم وآخرون أنه نبي فقط، قالوا: وعليه أكثر أهل العلم. وهو رأي ابن عباس وبعض الصحابة.

أما أبو القاسم القشيري وأبو بكر ابن الأنباري وأبو علي ابن أبي موسى وجمهور من الصوفية فعلى: أنه ولي أي عبد صالح، كما هو النص القرآني.

ونقل الماوردي: أنه ملك يتجسد في صورة آدمي، ولكن الحافظ ابن أبي دحية فوض أمره فقال: لا ندري هل هو ملك أو نبي أو عبد صالح - يعني ولي - وهو رأي جمهور من الصوفية.

---

(١) أورده الحافظ في «فتح الباري» (٨/ ٤١٧).

والأصح أنه نبي والله أعلم، لقوله لموسى ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾[الكهف:٨٢] أي بوحي، فإن مثل قتل الغلام وخرق السفينة مما لا يكون أبدا بإلهام مجرد.

وفي حديث الطبراني عن أبي أمامة مرفوعا: قال الرجل للخضر: شققت عليك يا نبي الله[١]. فهذا صريح في نبوته، وقد ذكر في هذا الحديث أيضا أن الخضر باع نفسه من رجل، وهذا غير جائز في الإسلام، وفيه أنه سئل بوجه الله فأجاب، وهو أيضا منهي عنه في الإسلام، والإسلام دين كل نبي ورسول.

فدل هذا على أن الخضر صاحب شريعة، فلما لم يكن رسولا فهو نبي، خصه الله تعالى بعلم سر القدر، وإن كانت حكمة التوجيه والتربية تستوجب أن يكون الخضر أقل مرتبة من موسى، أي أن يكون وليا كما عليه جمهور الصوفية رضي الله عنهم.

قالوا: وهذا المعنى موجود في أن يكون الخضر نبيا فقط وموسى نبي ورسول.

دعوى مخالفة الشريعة للحقيقة:

وقد التمس بعض أصحاب الأهواء من قصة موسى والخضر ما جعلوه دليلا باطلا على مخالفاتهم للمعروف من الدين بالضرورة، فقالوا: إن الشريعة شيء والحقيقة شيء آخر، وإن العبد لا يزال ملتزما حدود الدين حتى ينتقل من مقام الشريعة إلى مقام الحقيقة فتسقط عنه التكاليف

---

(١) أخرجه الطبراني (٨/ ١١٣ رقم ٧٥٣٠).

ويقولون : لأن الله قال ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩] واليقين هنا هو الموت قولا واحدا ، ولكنهم يقولون زورا وكذبا : إن اليقين هو مقام الحقيقة ، فإذا وصل الإنسان عندهم إلى هذا المقام سقطت عنه العبادات ، وذابت أمامه الحدود ، ولا عليه أن يرتكب الكبائر الموبقة باسم السر ، وتحت ستار القياس على الخضر ، ونعوذ بالله العلي العظيم من الضلال .

إن القول بمخالفة الشريعة للحقيقة على أي وجه زندقة ، ربما أفضت بصاحبها إلى الردة بعد الإسلام ، فالإسلام فعلا يعترف بالشريعة على أنها ظواهر الأمور وصور العبادات ، ويعترف فعلا بالحقيقة على أنها روح الأمور وحكمة العبادات ، فهما شيء واحد لا ينفصم ، ولا يقوم أحدهما إلا بقيام الآخر ، كالروح في الجسد ، والماء في العود ، والتمر من الشجرة ، والحرارة في النار ، والحلاوة في السكر ، والروائح في مياه العطور ، والضوء من شعلة السراج ، فلا قيام لأحدها إلا بقيام الآخر .

مثال عملي للشريعة والحقيقة :

فإذا ضربنا مثلا بالصلاة كان القيام والركوع ، والسجود والقراءة والتسبيح شريعة ، وكان التبتل والخشوع وعقل الصلاة ، وإدراك ذل العبودية أمام عز الربوبية والتمتع بالمناجاة والمناداة والتقلب في مقامات القرب ، كل هذه حقيقة ، فلا قيام ولا وجود لهذه إلا بتلك ، فالتفرقة بينهما مستحيلة عقلا ونقلا وواقعا . وديننا الإسلام ونبينا رسول الله المصطفى ﷺ لا قدوة لنا إلا هو ، ولا أسوة لنا إلا به ، وهو مثلنا الأعلى ، وهو لم يَدَّعِ هذه الدعوى ، ولم يحدث منه حتى ما يشير إليها ، فبأي شريعة

وبأي دين وبأي عقل ننتقل من شريعتنا إلى شريعة غيرنا ، فنقتاس عليها ، ولو جاز هذا لاختار كل مسلم دينا لنبي سابق يرضيه ولم يبق بعد هذا إسلام ولا مسلمون .

إن تفسير اليقين - الذي هو هنا الموت قولا واحد - بأنه مقام الحقيقة دسيسة كفرية على التصوف ، وإن التفرقة بين مقام الشريعة ومقام الحقيقة مما دسه الزنادقة على الناس ، ودلسوا تصوف المسلمين بإلصاقه زورا به ، والقائل بهذا القول لا هو مسلم عامي ، ولا هو مسلم صوفي ، والمؤمن به إما مؤمن ساذج مغفل وإما منافق زنديق ، وهو في أشرف أحواله جاهل مفتون .

نحن نسلم بالغيوب والأسرار والْحِكَمِ ، ونسلم بالإلهام والكشف والكرامة ، ولكن على أساس العزيمة في الدين والاعتصام بالسنة ، والاحتياط المطلق في العبادة والأدب ، وهذا وحده هو باب الولاية ومعراج القطبانية ، ومن هنا تظهر الأكذوبة الكبيرة ، والوهم الدخيل في فهم قصة الخضر ، والقياس الفاسد عليها ، وإلحاق الزنادقة بالصوفيين الراشدين .

إن قصة الخضر يجوز أن تكون استئناسا لفهم الأسرار ودعوة إلى الآداب وشرائف المصاحبة ليس إلا .

هل الخضر حي يرزق؟

يرى البخاري ، وابن المنادي ، وأبو بكر بن العربي ، وأبو يعلى ابن الفراء ، وإبراهيم الحربي ، وأبو طاهر العبادي وآخرون (**أن الخضر غير موجود بجسده وأنه مات وإنما وجوده هو وجود بروحه فقط**) لقوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾[الأنبياء:٣٤] وحديث جابر وابن عمر

مرفوعا : لا يبقىٰ علىٰ وجه الأرض بعد مائة سنة ممن هو عليها اليوم أحد .

ويرىٰ ابن الصلاح ، والثعلبي ، والنووي ، والحافظ ابن حجر ، وجماهير الصوفية كافة ، وجمهور العلماء وأهل الصلاح أنه حي بجسده موجود يرزق ، وسيموت آخر الزمان كبشر .

وقد رد ابن حجر في فتح الباري[١] على القائلين بموته ، ووجه معاني حديث جابر وابن عمر المذكور آنفا التوجيه الذي يؤكد حياة الخضر البشرية ، وأنه مخصوص مستثنىٰ من الحديث .

ولنا في ذلك رأىٰ علىٰ قاعدة **(التكامل والوسطية)** التي نعتنقها ونطبقها ، وندعو إليها كوسيلة عملية من وسائل التجميع والتقريب بين مذاهب الأمة فيما يجوز الأخذ بها فيه نقول :

١- إن الخلد معناه عدم الموت ، وبما أن الخضر على القول بأنه حي لابد يوما أن يموت ، فقد خرج من الحكم الآية ما دام سيلحقه الموت يوما ما .

٢- وفي الحديث : قيل المراد **(بالأرض)** القدر المعروف للعرب وقتئذ من الدنيا ، فخرجت أرض الخضر من الحديث لأنها لم تكن معروفة لهم .

٣- وقيل أراد من ذلك انخرام قرنه ﷺ وهو رأي ابن عمر ، أي أنه لن يكون أحد ممن سمعوا تلك المقالة حيا بعد مائة سنة ، وقد تحقق هذا بوفاة أبي الطفيل عامر آخر من بقي من الصحابة علىٰ رأس مائة سنة

(١) راجع «فتح الباري» (٦/ ٤٣٤ وما بعدها) .

من هذه المقالة .

٤- وقيل المراد بقوله (**لا يبقى**) أي ممن ترونه أو تعرفونه أحد ، وقد صح ذلك أيضا .

٥- وقيل إنه حكم أريد به الأغلب بحسب المعتاد ، فقلما تخطى رجل في العادة سن المائة ، وإن كان هناك من يتخطاها فهم قلة من شذوذ القاعدة كما في الأكراد ، والأفغان ، والهنود ، وشرق أوروبا .

الخضر موجود بالجسد وبالتجسيد :

٦- ومن بين هذه الأقوال كلها نستخلص ما يأتي :

إما أن يكون الخضر حيا بجسده وروحه وليس ذلك ببعيد ، والنتيجة أنه موجود .

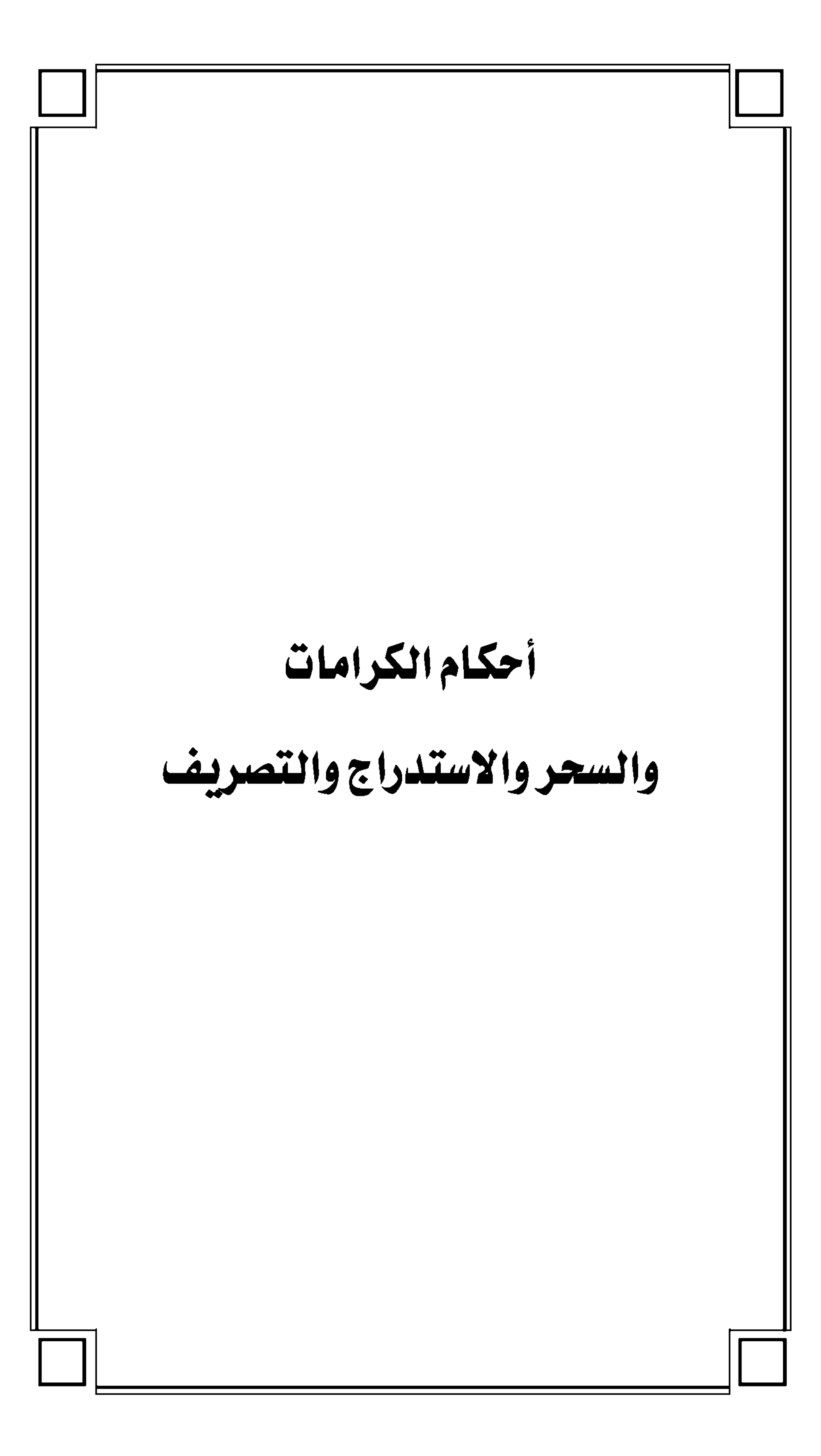
وإما أن يكون حيا بروحه فقط بحكم خصوصيته ، فروحه منطلقة من عالم البرزخ ، طوافة بعالم الدنيا متجسدة فيه ، وليس ذلك ببعيد أيضا ، فالنتيجة أنه موجود .

إذن : فعلى القول بالحياة أو الممات هو موجود إما بالجسد البشري أو التجسد الروحي ، والقول بلقائه أو رؤيته صدق ممحض ، وما يروى عنه على ألسنة أهل الله حقيقة واقعة ، قالوا : وعندما التقى موسى بالخضر ألقى عليه السلام ، فقال له الخضر : وهل بأرضنا سلام؟

وفي حديث رسول الله ﷺ «**رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى مُوسَى لَوْ صَبَرَ مَعَ**

صَاحِبِه لَرَأَىٰ الْعَجَبَ»[١] .

(١) أخرجه مسلم (٢٣٨٠/ ١٧٢) وأبو داود (٣٩٨٤) عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ .



أحكام الكرامات
والسحر والاستدراج والتصريف

أحكام الكرامات
والسحر والاستدراج والتصريف

التعريف بالكرامة في الإسلام:

الكرامة في الإسلام هي أمر خارق للعادة، غير مقرون بالتحدي - أي دعوىٰ النبوة - وسنذكر أدلتها فيما يأتي بعد من الكتاب والسنة إن شاء الله .

وهذا الأمر الخارق يكرم الله به بعض عباده الصالحين، وأوليائه المقربين فضلاً منه تعالىٰ عليهم لا بقدرتهم ولا بإرادتهم، ولكن بما سبق لهم في علم الله، وللحكمة التي يعلمها الله .

وبحكم الناموس الإلهي الأعظم الذي لا تحكمه قوانين الأكوان وكل كرامة يمنحها الله تعالىٰ لمسلم أو مسلمة من الصالحين هي في الواقع معجزة لسيد المرسلينﷺ إذ إنه لولا الإيمان به، وصدق اتباعه ما تحققت هذه الكرامة الشريفة، فإذا حدث الأمر الخارق للعادة علىٰ يد كافر أو مشرك أو نحوهما فإنه يكون أحد أمور ثلاثة:

أولا: السحر التخييلي:

وهذا السحر (تخييلي) كما قال الله عن سحرة فرعون ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾[طه:٦٦] وهذا السحر يهيمن على العيون، كما قال تعالىٰ ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾[الأعراف:١١٦] فهو لا يغير شيئا من الحقائق الكونية علىٰ عكس الكرامة، فإنما هو تأثير على العيون والأعصاب بأسلوب علمي متجدد .

والسحر (**التخييلي**) قائم على أصول من علم الطبيعة والكيمياء وغيرها مع استعمال ما يسمى (**خفة اليد**) ومع قواعد اليوجا، واستخدام الطاقات الروحية التدريبية التي يستخدمها المتخصصون الفنيون في (**التنويم المغناطيسي الذاتي والجماهيري**) ونحوه.

وهذا النوع من السحر هو ما تخصص فيه فقراء الهند بما يقومون به من العجائب أمام الناس، وهو هو الذي يستخدمه (**الحواة**) المهرة الذين يعرضون ألعابهم في دور العرض المسرحي والسينمائي والتلفزيوني، وغيره من التجمعات المختلفة، وهو من بعض سحر الفراعنة والكهنة والمشعوذين، فهو علم متجدد متطور، على قواعد وأصول علمية مادية، لا علاقة لها بالدين ولا بالعقائد، ولا بالروحانيات ولا بخوارق العادات الربانية.

ثانيا: السحر الشيطاني:

وهذا السحر قائم على استخدام الشياطين، والارتباط معهم بوساطة العزائم، والرياضات النفسية المحرمة، والعكوف على الطلسمات، والأوفاق، والبخورات، والأنجاس بأساليب معينة، ونرى ذلك في قوله تعالى ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[الجن:٦] مما يدل على أن هيمنة الجن من الشياطين والمردة على المتصل بهم من الإنس هيمنة مدمرة مرهقة فاتكة بالإنسانيات، حسًّا ومعنى، كما هو مشهود مكرر.

ويقول الله تعالى في تأكيد إمكانية هذا الاتصال، وحدوثه بالفعل ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ . . .﴾ الآية[الأنعام:١٢٨].

وهذا السحر الشيطاني هو (**السحر الحقيقي**) وهو الذي اعتبره الإسلام من الكبائر السبع الموبقة - بل اعتبر مستحله كافرا - وإليه أشار القرآن بقوله ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ . . . ﴾[البقرة:١٠٢] وليس من آثار هذا السحر إلا الشرور، والفتن بكل مراتبها وأنواعها وألوانها في الأفراد والأسرات، يدمر المحسوسات والمعنويات .

فإنكار وجود هذا السحر الشيطاني من بعضهم، أو إنكار وجود شياطين الجن في مواجهة هذه النصوص المحكمة الحاسمة نوع من المكابرة، وداء حب المخالفة على الأقل .

كما أن في هذه النصوص إشارة إلى حقيقة (**المس الشيطاني**) الذي يصيب بعض الناس، وقال في القرآن عن (**أيوب**) ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾[ص:٤١] وفيه ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾[البقرة:٢٧٥]

وفي الأحاديث النبوية الثابتة ما فيه الكفاية لمن يطلب الهداية .

ثم إن الفرق كبير جدا بين (**المرض العصبي والنفسي، والمس الشيطاني**) ولكلٍّ منها علاجه الخاص بالوسائل العلمية الطبية، أو الروحية الشرعية، لا بالشعوذة ولا بالتخريف، أو التحريف أو ما حرم الله .

ثالثا: الاستدراج:

ويسمى الأمر الخارق، الذي قد يقع لغير العبد الصالح (**استدراجا**) ما لم يكن من سحر التخييل أو سحر الشيطان، وذلك أن الله تعالى يأذن بحدوث هذا الأمر الخارق لهذا العبد المارق مكرا به، وإملاءً له كما قال تعالى ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤ - ٤٥].

وإذا كان لكل حق باطل يشبهه، فهذه الأمور الثلاثة (**السحر بنوعيه والاستدراج**) هي الباطل الذي يشبه هذا الحق، الذي هو الكرامة، وإنما يعرف الفرق بينهما بأن الكرامة لا تكون إلا لأولياء الله الصالحين، وللولاية علامات من الإيمان والتقوى والورع والعلم، ومكارم الأخلاق، أي الصلاحية للبلاغ عن الحضرة النبوية مما لا يخفى على أحد، فالولي ممثل شخصي للنبيﷺ فيما عدا الوحي السماوي.

دليل الكرامة من القرآن والحديث:

وقد أثبت القرآن المجيد الكرامة لأولياء الله بما روى من قصة مريم وما كان يجده زكريا عندها من الرزق، وقصة أهل الكهف، وقصة الذي عنده علم من الكتاب، وقصة أم موسى وإرضاعه، وامرأة فرعون، وقصة موسى والخضر، بالإضافة إلى إشارات متعددة.

وقد ثبت في الحديث الشريف قصة عمر وسارية، وقصة أسيد بن حضير وقراءته القرآن، وقصة الرجل الذي أضاء له سوطه أو أصابعه، وقصة أهل الغار الثلاثة، وقصة صاحب جريج، وقصة الساحر والملك -

أو أصحاب الأخدود – وغير ذلك مما يلتمس في مظانه من كتب الرجال، وهو كثير.

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قالﷺ : «**لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ مُحَدَّثُونَ فَإِنْ يَكُ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَإِنَّهُ عُمَرُ**» . ونحوه في مسلم[(١)] .

وفي بعض رواياته زيادة : «**مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ**»[(٢)] .

والمحدَّثون هم (**الْـمُلْهَمُون**) وفي حديث أبي سعيد الخدري من رواية الجوهري في الفوائد قيل : وكيف يُحَدَّثُ يا رسول الله؟ قال : تتكلم الملائكة على لسانه .

وفي البخاري -تعليقا - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قال : **تلقيت عن رسول اللهﷺ جرابين من علم، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَقَدْ بَثَثْتُهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَلَوْ بَثَثْتُهُ قُطِعَ هَذَا الْبُلْعُومُ**[(٣)] .

فلم يبق شك على الإطلاق في جواز حدوث الكرامة، أي الأمر الخارق للعادة من أولياء الله، ولو لم يكن الأمر خارقا للعادة ما كان كرامة، لأنه يكون عندئذ خاضعا للناموس الطبيعي، فترتفع عنه خصوصية الكرامة، والله أعلم .

أقسام الكرامات

(١) أخرجه البخاري (٣٦٨٩) ومسلم (٢٣٩٨/ ٢٣) .

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٨٩ مكرر) .

(٣) أخرجه البخاري(١٢٠) .

والكرامات عند أهل الله قسمان:

١-كرامة موهوبة . ٢- وكرامة مكسوبة .

١- الكرامة الموهوبة : وهي أسمىٰ نوعَيْ الكرامة ، لأنها تكون من الله للعبد ، هبة علىٰ مقتضى الحال والواقع ، وفي الوقت المعين المحدد ، بغير أي طلب من الولي لا بالقلب ولا بالهمة ، ولا باللسان والابتهال ، وإنما بالتفويض المطلق ، والانصراف عما سوىٰ الله ، ولهذا كثيرا ما تقع الكرامة وهو لا يدري بها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج :٣٨] .

وتلك هي الكرامة التي يعتز بها الأولياء ويعتبرون أنها قدم (**سيدنا إبراهيم وسيدنا محمد**ﷺ) وهي المقام الذي يشير إليه الحديث القدسي الثابت : «**مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ**»(١) فضلا من الله ونعمة .

٢- الكرامة المكسوبة : وهي من الدعاء المستجاب ، يطلبها الولي بقلبه أو بلسانه فيستجيب الله له كما وعده ، وفي أهل هذا المقام يأتي قولهم : إن لله رجالا إذا أرادوا أراد . أي إذا طلبوا منه أجابهم فهم من أهل قوله تعالىٰ ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر :٦٠] .

وهو أشبه بمقام اضطرار النبوة (**فَنَادَىٰ . . . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ**) كما جاء في سورة الأنبياء وغيرها . وبرغم شرف هذا المقام كما ترىٰ فإن أهل الله من الكُمَّل يرونه من مقامات المبتدئين إلا عند الضرورة الملجئة كما كان من

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٢٦) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وقال : حَسَنٌ غَرِيبٌ .

الأنبياء، وذلك لأنهم يرون:

١- الانشغال بالكرامة انشغال بالأثر عن الْـمُؤَثِّر سبحانه، وهو عندهم خطيئة، ومن هنا اعتبروا الكرامة المطلوبة عورة حتى قالوا إنها **(حيضة الولي)** فهي في قانونهم نوع من الفتنة والابتلاء يجب ستره والتعفف عنه، إلا في مقام الاضطرار الملجئ كما سبق.

٢- أنها عندهم نوع من الاقتراح على الله بما لا يتصور، فإنه من غير المقبول أن يقترح من لا يعلم على من يعلم، ولا أن يتطاول الأعمى على السميع البصير.

٣- أنها مدرجة إلى النظر إلى النفس بعد النظر إلى الرب فيخشى أن يدخل النفس منها تزكية أو كبر أو ترفع، فيكون الخطر من تسرب خفي الرياء المدمر لكل عمل صالح.

٤- أنها مظنة الغفلة بالالتفات إلى الناس، والقاعدة عند أهل القرب أنه **(من غفل عن ذكر الله طرفة عين فقد خان ربه)** وهل بعد استدبار حضرة القرب إلا السلب والاستبعاد.

ولهذا كان كبار القوم يسألون الله النجاة من هذا المقام: أي من مقام الكرامة المطلوبة إلى مقام الكرامة الموهوبة، خوفا من هذه الأخطار الدقيقة التي لا يدركها إلا أهل **(فقه المعرفة)** وفي مقام الضرورة الملجئة، كما قدمنا فلا بأس من توجه الهمة أو الابتهال ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾[البقرة: ١٧٣] وذلك لأنه لا يتحقق في مقام الاضطرار تلك المخاوف المعنوية التي أسلفناها، ونستغفر الله ونتوب إليه.

مذهب أهل السنة في الكرامة:

مذهب أهل السنة جميعا حتى الغالين والمتشددين منهم كابن تيمية مثلا أن كرامات الأولياء حق، لا مرية فيه، وقد كرر ابن تيمية هذا الرأي عدة مرات في عدة من كتبه، وبخاصة العقيدة الواسطية، ثم ما كتبه ابن القيم وهو كثير جدا، وذلك أن الكرامة في ماهيتها أمر ممكن دائر في محيط الجواز، وحصوله لا يؤدي إلى رفع أصل من أصول الدين، أو معارضته أو إنكاره، واتصاف الله تعالى بالقدرة المطلقة يجعله أمرا مقدورًا، فلا يمنع شيء من وقوعه، وعند الإمام أبي القاسم القشيري في الرسالة: إن القول بوقوع الكرامة من الأولياء واجب لتمام أدلتها، ثم إنها بالتواتر واستمرار حدوثها أصبحت علما قويا قد انتفت عنه الشكوك، ووافقه الإمام المحدث النووي في البستان، ولا أعرف من أهل الحديث من أنكر وقوعها على الإطلاق، وراجع إن شئت الميزان للذهبي، واللسان للحافظ، والإصابة له، والاستيعاب لابن عبد البر... إلخ إلخ.

ويقول الإمام الأصولي السعد التفتازاني في شرحه على النسفي عند الكلام على الكرامة: إنه بعد ثبوت الوقوع بالفعل لا حاجة إلى إثبات الجواز.

وهو رأي إمام الحرمين، والإمام الباقلاني، وبقية من نعرف من علماء الأصول وفقه الدين.

وللتاج السبكي في طبقات الشافعية[1] بحث نفيس متكامل ينبغي

(١) «طبقات الشافعية» (٢/ ٣١٤ وما بعدها).

الرجوع إليه ، لأن استقصاء هذا الباب هنا يطول ، وحسبنا منه ما قدمناه .

الكرامة بعد الموت :

والكرامة منحة إلهية من الله تعالى لعبده الصالح ، حيا كان أو ميتا وسواء أكانت موهوبة أم كانت مكسوبة بصدق اليقين ، وإخلاص التعبد فإنما هي اعتبار غيبي معنوي ، مرتبط بخصائص الروح ، واستعداداتها ، ومجاهدتها في حياتها ، والروح بعد فناء الجسد باقية ، والله تعالى يقول ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون : ١٠٠] .

فالكرامة باقية بعد الموت ببقاء الروح وبخصائصها ، وقد أشار إليها القرآن في قصة أهل الكهف ببناء المسجد على أهله ، وأكدتها السنة الصحيحة ، وبخاصة في قصة الصحابي عاصم بن ثابت ، الذي استشهد فحمى الله جسده بالدَّبْر - أي النحل الجبلي الشرس المتوحش - حتى غيبته الملائكة[١] .

ولهذا يؤكد الصوفية أن الولي الكامل هو من تستمر كراماته بعد مماته كما كانت في حياته ، فإن للأرواح العالية منزلتها الباقية عند الله خالدة مع خصائصها في ظلال فضل الله وهباته ، وعطاياه .

وقد ذكرت كتب الحديث والطبقات والسير منها الكثير الثابت ، ولابن أبي الدنيا مؤلف خاص فيمن عاش بعد الموت ، وللمحدث ابن الصديق الغماري نُقُول ممحصة مقنعة في هذا الباب بكتابه الحجج

---

(١) راجع قصته في البخاري حديث (٣٠٤٥) .

البينات، سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

من معاني قولهم (أهل التصريف)

ومما يلحق ضرورة بباب الكرامات ما يلغط به اللاغطون حول قولهم (**أهل التصريف**) فالقائلون بأن فلانا من (**أهل التصريف**) مثلا: يريدون أنه من أهل الوجاهة عندالله والقبول لديه، وأنه من أهل استجابة الدعاء، سواء كان نطقا باللسان أو توجها بالقلب، أو تحركا للإرادة وكنه الهمة في حدود ما جاء في الحديث القدسي الصحيح: «**وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ**»(١).

وحديث: «**مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ**»(٢) أو كما قالﷺ: «**رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ مَدْفُوعٍ بِالأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ**»(٣).

وهو معنى قول السادة: إن لله عبادا إذا أرادوا أراد، ترجمة لقوله تعالى ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٠] فافهم.

فالمراد بالتصريف هنا هو تفضل الله تعالى على عبده بإيقاعه تعالى الأمر كما سبق في علمه القديم على مراد عبده الظاهر، بما يجيء في دعائه

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٢٦) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وقال: حَسَنٌ غَرِيبٌ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٢٢/١٣٨) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، والترمذي (٣٨٥٤) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ وقال: صَحِيحٌ حَسَنٌ.

القولي ، أو توجهه القلبي ، أو تحرك إرادته الروحية ، وذلك تنفيذا لترتيب الأسباب والمسببات على مقتضى ما في اللوح وأم الكتاب .

التصرف من الله ظاهرا وباطنا :

فليس العبد مصرفا شيئا مع الله تعالى ، ولكن الله تعالى يتفضل فيصرف الأشياء كما هي في علمه ، على مراد أوليائه وأحبائه ظاهرا فقط ، تنفيذا لسبق إرادته .

فأهل التصريف يعنون بهم (**أهل الفضل الإلهي**) الذين يكرمهم الله بتحقيق مرادهم الظاهر ، وهو مراد الله الحقيقي الباطن فيما يطلبونه من الكونيات ، سواء كان الطلب بالقول أو الفعل ، أو الهمة .

والهمة يعني بها كثير من الصوفية : تحرك الإرادة الروحية التي يجعلها الله سببا عاديا من أسباب انفعال الأكوان بقدرته تعالى ، ليحقق بها المطلوب لعباده الصالحين في ظاهر الأمر ، على ما سبق في العلم القديم ، فالمراد مراده ، والأمر أمره ، يجريه كما يشاء على يد من يشاء .

وبمعنى آخر : إن الله تعالى يجعل عبده الصالح نفسه أداة من أدوات تنفيذ المراد الإلهي الأزلي ، الذي قد يظهر في صورة مراد العبد البشري ، فيما يراه الناس .

ومثل ذلك : أن عيسى كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله ، وكان ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم ، وهو ليس إلا عبد أنعم الله عليه ، وليس له من الأمر شيء ككل عبد .

لكن الله جعل إرادة هذا العبد سببا عاديا في سابق علمه، وجعل هذا العبد أداة لتنفيذ سابق المراد الإلهي، الذي انفعلت به إرادة العبد البشرية على مقتضى العلم القديم، ففاضت به من عالم الغيب إلى عالم الشهود.

ومن الكذب المخزي والبهتان الخرافي، ومن ذرائع الكفر والشرك والزندقة أن يقال إن وليا لله مهما كان شأنه يتصرف في الكون كما يشاء، أو إن الله فوض الأمر إلى الولي ليفعل ما يشاء، أو إن الله بعد أن خلق الكون سلمه للأولياء ليدبروه كما يشاءون.

هذا مقام الربانيين:

وهذا المقام خاص بالربانيين الذين هم على أقدام الأنبياء ما يصدر عنهم ليس منهم، فقد ذابت بشريتهم، وفنيت إرادتهم، وبقيت روحانيتهم أثرا لقيامهم في مقام المحبوبية، كما جاء في الحديث القدسي الصحيح عن الله يقول: «**فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ التي يَبْطُشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ التي يَمْشِي بِهَا**»(١).

ومعنى هذا تجرده من كل شيء إلا من مظاهر انعكاس الصفات الإلهية عليه، فتظهر شئونه كأنها منه، وما هي إلا من الله، وهو مقام ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص:٣٩].

وهو معنى قوله السادة رضي الله عنهم على لسان الحق: عبدي أطعني أجعلك ربانيا تقول للشيء كن فيكون. أخذا من حديث: مَا يَزَالُ عَبْدِي... عند البخاري وغيره.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

وقد بين الله طريق الدخول إلى هذا المقام فقال ﴿كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران :٧٩] فالربانية الإسلامية نتيجة العلم والدراسة والتطبيق، وهذا مقام الاهتداء والإنابة، وهو غير مقام الاجتباء والإفاضة، وفي القرآن الكريم ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى :١٣] .

ثم تأمل بعمق قوله تعالى ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال :١٧] وقوله تعالى ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾ [الواقعة : ٥٨-٥٩] وقوله تعالى ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة : ٦٣- ٦٤] وقوله تعالى عن الماء ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة :٦٩] وقوله عن النار ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ [الواقعة :٧٢] إن الفاعل في الحقيقة هو الله، فافهم ذلك لئلا تخطئ أو تضل أو تتجنى، أو تنحرف فتنجرف ولم تكن تعلم .

معني قولهم : مدد يا سيدي

والقائل (**مدد ياسيدي فلان**) فهو إما أنه يطلب المدد من الحي أو من الميت (**مددا معنويا**) مما وهبه الله من الأسرار والطاقات، والمعارف والمقامات، ومختلف العطايا الإلهية والهبات والبركات،

فطلب المدد من الحي معناه طلب دعائه، وإرشاده، وروحانيته، وتوجيهه وتوجهه بشحنته وتربيته، وبركة صلاحه وتقواه وسره مع الله، وما هو من هذه السبيل التي أشرنا إلى بعضها .

وطلب المدد من الميت طلب من روحه الحي بخصائصه في برزخه السامع المدرك الذي له ما يشاء عند ربه كما جاء تفصيل ذلك في الكتاب والسنة، راجع كتابنا عن الوسيلة والقبور، فمعنى المدد هنا هو طلب التوسل به إلى الله، والاستشفاع به إليه تعالى في قضاء الحوائج ودفع الجوائح، والتماس بركة مقامه عند الله، والاستمداد من مدد الله وسره ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

وقد يُحمل طلب المدد بمعنى طلب الدعاء من الروح في عالم الطهر والنور، وقد قرر ابن القيم في كتابه الروح أن للأرواح قوة وطاقة وقدرة لا يتصورها البشر، حتى إن روحا واحدة عظيمة تؤثر في جيش كامل، وإن كنا لا نميل إلى هذا الجانب، إلا أننا نثبته.

وطلب الدعاء أو الشفاعة من الحي أو روح الميت طلب عبودية هنا وهنا، فهو مباح فإن مبادئ الإسلام لا تعرف شيئا إنْ طُلب من الحي كان عبودية، وإنْ طُلب من الأرواح كان عبادة لها.

وفي كتابنا عن الوسيلة والقبور أثبتنا أن التوسل إلى الله بصالحي الأحياء والموتى ليس معناه التوسل بالذات المشخصة من اللحم والدم والعظم والعصب، وإنما هو التوجه إلى الله بالمعنى الطيب في الإنسان الطيب، والمعنى الطيب ملازم للروح، سواء تعلقت الروح بالجسم في الحياة، أو تخلصت من الجسم بالموت، واستقرت في برزخها على مقامها هناك و﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٣] و﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: ١٣٢] ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨] ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٣٤]

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٧٠] .

أما استشهاد بعضهم بآية ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢] فالمراد الرفات لا الأرواح ، وعلى كُلٍّ فالجسم أي اللحم والعظم لا يسمع نداءه في الحي ولا الميت إنما الذي يسمع ويعقل هي الروح في الحياة ، وهي التي تسمع وتعقل بعد الموت ، وترد سلام الزائر للقبر ، وتستأنس به . . . إلخ .

وإذا كان الرسول ﷺ قد حدث المشركين في قبرهم يوم بدر وقال لعمر : ما أنتم بأسمع منهم ، فكيف بالميت الصالح المسلم .

وهذا القدر من العلم البسيط هو الكم المشترك بين الجمهور المسلم ، ثم ينفرد الخاصة من أهل الله بما يقرره الدين والعلم القديم والحديث من إثبات الطاقات والقوى والسيالات ، والتيارات والأسرار الروحية ، التي تنفعل لها الأشياء بقدرة الله في الأحياء والموتى ، كسبب من الأسباب الطبيعية في سنة الله ونواميس الكون .

ولهذه الطاقات والقوي والسيالات الكهربية والمغناطيسية والروحية آثار إيجابية مسلم بها علما ودينا وتوجيها من الإنسان ، أو منه إلى بعض الأكوان ، له ما له من التأثير العجيب عند أهل العلم والمعرفة والتجربة قديما وحديثا ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠] ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]

وها هو ذا العلم الأوربي الحديث بكل إيجابياته يحاول الانتفاع بهذه القوى الروحية في انتقال الأفكار ، والتأثير الشعوري وكشف بعض

المساتير في طاقات الإنسان وقواة الغيبية ، والاتصال عن بعد .

ولنضرب مثلا بالحسد ، أو بالتنويم المغناطيسي ، وأثرهما محسوس مقرر في العلم والقانون والشريعة ، ويشهد لذلك ما نرىٰ من قوة الشخصية وهيبتها ، وضعف الشخصية وتفاهتها ، وانعكاس هذا وذاك على الآخرين ، فهذا شيء من بعض معاني المدد عند المحققين ، ولا يقولن قائل - عالم أو جاهل - إن في هذا دعاء لغير اللّه ، أو طلبا من سواه ، فطالب المدد طالب خير من اللّه ، وملتمس منه مدده بوسيلة مشروعة ، وهو صاحب استشفاع مستحب ، كما أسلفنا ذلك .

وطالب المدد متوجه إلى الله تعالى بثلاثة أسباب مجتمعة :

١- لجوؤه وافتقاره ، وعمله الصالح .

٢- اعترافه بالتقصير باستصحاب الوسيلة .

٣- طاعته لأمر اللّه تعالىٰ في اتخاذ الوسيلة إليه ، ولو لم يكن إلا هذه الأسباب لكفت الإنسان المنصف .

توجيه ومزيد بيان :

وأساليب اللغة من حيث : المجاز والاستعارة ، والكناية ، والبلاغة في نحو الحذف وغيره ، ثم واقع الأمر في ذات طالب المدد ، كل ذلك يحمل عنه وزر الجهل والخطأ وحكم العادة ، والنبيﷺ يقول : «**كفوا عن أهل لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللّهُ ، لا تكفروهم بذنب ، ولا تخرجوهم من الإسلام بعمل**»[1] .

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢/ ٢٧٢ رقم ١٣٠٨٩) عَنِ ابْنِ عُمَرَ .

وبهذا ينضم الدين إلى جانب الجاهل والمخطيء في التعبير بغير عمد ولا إصرار ، وعلى العالم أن يبصر الجاهل إلا مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ

وقد قررنا : أن المتوسل والمستشفع وطالب المدد كلهم معترف بذنوبه مقر بعيوبه ، متجرد من حوله وقوته ، فهو لا يرى نفسه أهلا للمثول في الحضرة العلية بما عليه من الأوزار والأوضار ، وبخوفه حتى من أن تكون طاعته مدخولة مردودة ، فهو يرجو أن يتقبله الله ويغفر له بتجرده من ظلمة علمه وعمله ، ثم ببركة من يعتقد الخير فيه من أهل الله ، فهو كما يتوجه إلى الله بخوفه من نفسه يتوجه إليه تعالى برجائه في حبه لغيره ، وبهذا يجمع أطراف الخير جميعا .

وهكذا يبدأ المتوسل وطالب المدد **(تذللا وتواضعا وانكسارا)** من مقام الخوف من الله والفقر إليه إلى مقام الرجاء فيه والثقة به فانيا عن ذاته وجهده ، فيتردد بين فضلين ربانيين : الخوف ، والرجاء ، لا يخطئه أحدهما بإذن الله .

والأعمال أولا وأخيرا بالنيات ، ولكل امرئ ما نوى ، والحديث النبوي يقول : «**أَلاَ هَلَكَ الْـمُتَنَطِّعُونَ**»(١) .

«**سَدِّدُوا وَقَارِبُوا**»(٢) .

و : «**يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا**»(٣) .

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٠/ ٧) وأبو داود (٤٦٠٨) عَنْ عَبْدِ اللَّه بْنِ مَسْعُودٍ .
(٢) أخرجه البخاري (٦٤٦٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ .
(٣) أخرجه البخاري (٦٩) عَنْ أَنَسٍ .

وقد سئل رَسُولُ اللهِ ﷺ : أين التقوىٰ؟ فأشار إلىٰ صدره ثلاثا يقول : «**التَّقْوَىٰ هَا هُنَا**»(١) . وإذا كانت الحدود تدرأ بالشبهات ، فيكف بما دونها؟ وكيف يقال لطالب المدد إنه قد كفر أو على الأقل فسق؟ إن علينا أن نصحح له عبارته حتىٰ تتسق مع نيته الشريفة .

وفي حديث : «**يا عباد الله أعينوا**» . كما سيأتي دليل قاطع علىٰ جواز ، بل على الندب إلىٰ طلب المدد .

وقد ثبت أن رجلا أتىٰ رَسُولَ اللهِ ﷺ فقال له : أريد مُرَافقَتَكَ في الْجَنَّةِ . فقال ﷺ للرجل : «**أَعِنِّي عَلَىٰ نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ**»(٢) .

أي العبادة ، فتأمل أطراف هذا الحديث فهي شتىٰ تؤكد أهمية مشروعية طلب المدد من الله عن طريق عباده الصالحين .

مدد مدد

أتسخر منا لقول مدد — ولست الفقيه ، ولا المجتهد
أتسخر منا ، بلا حجة — وقد قال ربك كلا نمد
عطاء ، رخاء ، تجلىٰ به — وكل عليه ، به يعتمد
ففيم الملام ، وفيم الخصام — وليس المعقد كالمعتقد
لنا علمنا ، ولكم علمكم — وكل إلىٰ حجة يستند
فقد نتأول إذ نرتجي — وقد نتوسل إذ نستمد
تجاربنا حجة بيننا — وما من أفاد ، كمن لم يفد

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤/ ٣٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ .
(٢) أخرجه مسلم (٤٨٩/ ٢٢٦) عَنْ رَبِيعَةَ بْن كَعْبٍ الأَسْلَمِيّ .

فـإن كنـت تفهمنـا فاعتقـد　　　وإلا فـدعنا ، ولا تنتقـد

ومدد

عـابوا علينـا أن نقـول　　　مـدد وقـالوا : لم يـرد

قلنـا : بـلىٰ ، هـو وارد　　　أو فاحذفوا (كُـلًّا نُّمِـد)

ومدد

عـلىٰ كـل حـال أقـول (مـدد)　　　مـن الله ، لا غـير ، لا مـن أحـد

فإن قـد ألمـت ، وإن قـد سـلمت　　　أقـول (مـدد) يـا إلهـي (مـدد)

ومن معاني قولهم (نظرة)

وما يقال في معنى المدد ، وطلبه من الله عن طريق الأحياء والموتىٰ يقال كذلك في معنىٰ (النظرة) وطلبها من الله ، فالأمر منه وإليه ﴿وَلَلْأَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء:٢١] .

وقد اتفق العلم الحديث والقديم على أن نظرات الناس تختلف باختلاف الانفعالات ، وباختلاف شحنتها من القوىٰ والطاقات الباطنية في الإنسان ، وهذا أمر محسوس فلكل نظرة معنىٰ ، ولكل نظرة تأويل ، ولكل نظرة حديث روحي تفهمه العقول وتتأثر به القلوب والعواطف ، والشاعر يقول :

عيناك قـد دلتـا عيني منـك عـلىٰ　　　أشياء ، لولا هما قـد كنـت تخفيهـا

والعين تعرف من عيني محدثها إن كان من حزبها أو من أعاديها

وهكذا يختلف معنى النظرة في القرآن المجيد باختلاف المضمون والمدلول والمفهوم فمثلا :

قوله تعالى ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [التوبة : ١٢٧] فهي نظرة حقد ونفاق .

وقوله تعالى ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات : ٨٨ - ٨٩] فهي نظرة حكمة تخلص واعتذار .

وقوله تعالى ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ [الواقعة : ٨٣ - ٨٤] فهي نظرة عجز وإشفاق .

وقوله تعالى ﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ [المدثر : ٢١ - ٢٢] فهي نظرة خبث وتماكر وتفكير .

وقوله تعالى ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٢٣] فهي نظرة إيمان وسعادة . . . إلخ .

إن التنويم المغناطيسي الصادق أساسه النظرة .

وإن الانفعال بالحب أو البغض أو السكون أو الخوف أساسه النظرة .

وإذن ففي النظرة سر يُرىٰ ويُفهم ويُحس ، وفي الحديث الثابت : «**الْعَيْنُ حَقٌّ**»(١) .

ومن هنا نفهم قوله تعالى فيمن أحبهم ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا

(١) أخرجه البخاري (٥٧٤٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ .

نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة : ٢٢ - ٢٣] .

في مقابلة قوله تعالىٰ فيمن كرههم ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران :٧٧] .

ولأمر ما قال تعالىٰ ﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا﴾ [البقرة :١٠٤] .

ولأمر ما قال تعالىٰ عن غيرهم ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾[النساء :٤٦] .

ولأمر ما قال موسىٰ ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف :١٤٣] .

فالنظرة إذن نوع من الإمداد الغيبـي تُرْسِلُ به عين البصر أو البصيرة ، وفي إشعاعاتها سيالات قوية وتيارات نفاذة مؤثرة ، وأنت واجد تجربة ذلك مكررة في اختلاف نظراتك اليومية إلىٰ أولادك ومرءوسيك ، والناس كلهم ممن تتعامل أو لا تتعامل معهم في حالتي الرضا والانقباض .

ألا ترىٰ نظرة المنوم المغناطيسي الصادق؟ ألا ترىٰ نظرات قواد الجيوش والحركات الثورية؟ ألا ترىٰ إلىٰ نظرات الخطباء والمحاضرين والممثلين؟ ألا ترىٰ إلىٰ نظرات المجرمين؟ ألا ترىٰ إلىٰ نظرت المحبين؟ ألا ترىٰ نظرات السعداء والمحزونين ، والخائفين والواثقين؟

يقول مولانا الإمام أبو الحسن الشاذلي ما معناه : نحن كالسلحفاة نربي أبناءنا بالنظر .

ويقول : لا والله ما بيني وبين المريد الصادق إلا أن أنظر إليه ، وقد

كفيته .

نظرة القوة الخارقة ، والروحانية النفاذة التي تنفعل لها الأشياء ، وطلب النظرة من الميت الصالح أدخل في هذا الباب ، وأجمع لمتعلقات الغاية لانعدام العوائق والعلائق البشرية واختفاء الحدود والقيود والأزمنة ، وكل ذلك دائر في المجال الإمكاني المحكوم شرعا بالإباحة ، وهو لا يتعارض مع العلم ، ولا مع الناموس الكوني ، ولا مع معقولية الأشياء ، ولا مع معلوم بالضرورة من دين الله ، ولا مع تجارب العلم والتكنولوجيا .

هذا ، وطالب المدد ، أشياخه قائمون جميعا على قدم العبودية في ساحة العطاء الأقدس ، وما منهم إلا من يدندن بطلب النظرة والمدد من ربه في حضرة الْفَرْق ، حتى يَفنى عن النظرة والمدد في حضرة الجمع ، ثم يبقى بعد ذلك بالناظر الحق الممد وحده ﷻ في حضرة البقاء والتجريد الأعظم .

اللهم نظرة ومددا ، وليس إلا منك النظر والإمداد

اللهم وأذق من يظن بنا الجهل والخرافة حلاوة سر النظرة ، نظرته إليك ونظرتك إليه ، وأذقه حلاوة المدد الحق حتى يقول معنا **(إلهي النظرة والمدد)** .

هو الإنسان (روح) ليس إلا حياتيـه بآيـات (الكتـاب)
وما الأبدان فـوق الأرض إلا نتـوء ، وامتـداد للـتراب[1]

(١) من ديوان المثاني للسيد الرائد ﷺ .

أيضا في صحة قولهم مدد ونظرة

من الثابت قول رسول الله ﷺ : «**إذا انفلتت دابة أحدكم في أرض فلاة فليناد يا عباد الله احبسوا ، فإن لله تعالى حابسا في الأرض يحبسه**»[١] .

وفي رواية : «**فإن لله ﷻ حاضرا سيجيبه**» .

قال النووي : إنه جربه هو وبعض أكابر شيوخه ووجد أثره .

وفي رواية : «**إذا أضل أحدكم شيئا أو أراد عونا وهو بأرض ليس بها أنيس فليقل : يا عباد الله أغيثوني ، يا عباد الله أغيثوني فإن لله عبادا لا نراهم**» . قال عتبة ﷺ راوي الحديث : إنه قد جرب ذلك فوجد[٢] .

وهذا بعينه هو ترجمة قولهم مدد ، فإن الإعانة أو الإغاثة كما تكون بالحس تكون بالمعنى ، والله الفعال ، والخلق أداة تنفيذ في الحياة أو الممات .

وقد روى السخاوي عن إبراهيم بن إسماعيل بن غازي الحراني قال : قال لي أبي خرجت من حران إلى الموصل في زمن الشتاء والوحل والأمطار ، وكانت جمال الناس تقع كثيرا ، وقاسى الناس شدة عظيمة ، فكنت أخشى على نفسي لما أعلم من ضعفي ، فنمت فسمعت قائلا يقول : ألا أعلمك شيئا إذا قلته لم يقع جملك وتأمن به؟ فقلتُ له : بلى والله ، ولك الأجر ، فقال لي قل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠/ ٢١٧ ، رقم ١٠٥١٨) عن ابن مسعود .
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٧/ ١١٧ ، رقم ٢٩٠) عن عتبة بن غزوان .

إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر : ٤١] فقلتها فما وقع جمل حتى دخلنا الموصل ، وهلك للناس شيء كثير من سقوط جمالهم وسلم ما معي . وصدق الله ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥] .

وما نشر من كتب السنة ما هو الأقل الأيسر ، فكيف يحكم فلان أو فلان بأن السنة خالية من ذكر عالم الغيب أو الغوث والقطب عبارة أو إشارة أو تخريجا ، والمسألة هنا أيضا مسألة تجريبية لا نظرية ولا جدلية ، ومع هذا فقد ألف فيها السيوطي رسالته العلمية الموثقة المسماة (**الخبر الدال**) فأثبت فيها بالحديث وجود عوالم الأغواث ، والأقطاب والنجباء والعصائب والأوتاد والأبدال .

وقال لي عالم عارف لم يكن يومها صوفيا : لقد وقعت لي شدة ماحقة ، فوقع لي الفرج ببركة (**الغوث**) فعرفت وتيقنت أن في مكة (**غوثا**) على ما قال الصوفية ، ومن ذاق عرف ، ومن أراد وصل بتوفيق الله ، وبالعمل ، كما فعل حجة الإسلام أبو حامد الغزالي من قبل .

ومما قال السيد حسام الدين القدسي :

عالم الروح ليس كل فقيه يدرك السر فيه أو يستهام

بل بمحض الإلهام والكشف فضلا يدرك الحق فيه من لم يناموا

وإن الذين ينكرون الأرواح والغوث والقطب ومن والاهم معذورون لأنهم يرون النبيﷺ فردا كالأفراد - حاشا شئون الوحي - ويرون أصحابه كآحاد الناس ، أما فضل الله ودرجات الناس عنده ومقاماتهم في

غيبه فلا علم لهم بشيء من ذلك، لأنهم وقفوا على السطوح وعبدوا القشور، وحسبوا غرورا أنهم بلغوا نهاية النهاية وغاية الغاية، وهم لم يبارحوا مكانهم.

وفي أربعين السلمي: إن من العلم كهيئة المكنون لا ينكره إلا أهل الغرة بالله.

وفي البخاري تعليقا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: **أوتيت وِعَاءَيْنِ من العلم: أَمَّا أَحَدُهُمَا فقد بَثَثْتُهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَلَوْ بَثَثْتُهُ قُطِعَ منى هَذَا الْبُلْعُومُ**[(١)].

والله تعالى يقول ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨ - ٣٩] أي هناك عوالم أخرى مستورة غير منظورة لها نظامها الدقيق الذي أقسم الله به، وغيب الله أعظم من أن يحيط به أحد مهما اشتهر ذكره، وارتفع عند بعض الخلق قدره.

(١) أخرجه البخاري (١٢٠).

ما هي البركة؟

كثيرا ما يجري على ألسنة السادة الصوفية لفظ البركة بكل معناها الواسع الشامل للحسِّ والمعنى، وكثيرا ما يعترض الآخرون على هذا الجانب بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، ولهذا نكتب هذه الإشارة المجملة ردًّا للموضوع إلى أصله من الكتاب والسنة.

من معاني البركة:

للبركة معان شتى تختلف باختلاف سياقها من الآية أو الحديث، أو الأثر أو الموضوع، وكلها تتحد في الحقيقة، ومن معانيها هنا الزيادة والنماء، وهما يشملان المحسوسات والمعنويات جميعا، والحقيقة أن البركة سر إلهي وفيض زاده الله تعالى ونَمَّى به أعمالَ البر بملازمة القربات الكريمة، فكانت البركة بهذا ثمرة معنوية غيبية من ثمرات العمل الصالح، يحقق الله بها الآمال، ويدفع السوء، ويفتح بها مغالق الخير من فضله، فالبركة بهذا المعنى لون من الرحمة والفضل الإلهي، والخير الشامل والفائدة، واللطف الخفي، الذي يحبو به الله أعمال أوليائه وأحبابه الأبرار، ومحاولة التزام صرف هذا المعنى الروحاني إلى معنى من المعاني الوثنية، والتكلف في حمله على الغايات الحسية نوع من التحكم الذي لا دليل عليه، وما قال به إلا المصابون بالجمود المذهبي والوثنية العقلية.

عقيدة منكري البركة:

ونقول استطرادا وتنبيها: تلك الطائفة التي تصور الله شيئا ذا جوارح وحدود، ومكان وحركة ثم يتناقضون مع البداهة العقلية ومبادئ المنطق

فيقولون مع هذا التمثيل المركب ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشورى:١١] ورحم الله الزمخشري في قوله :

قد شبهوه بخلقه فتخوَّفوا شنع الورى فتستروا بالبلكفة[١]

ولا أعرف ولا يعرف العقلاء كلهم فرقا في الوثنية بين من يصور أمام بصره ربًّا صنما حسيًّا يعبده ، ومن يصور في ذهنه ربًّا وثنا خياليًّا يعبده ، فكلاهما وثني يعبد شيئا محدودا مصورا من نتاج الذهن البشري (**الحادث**) والذي يستحيل عليه حقيقة (**القديم**) وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

ألوان من البركة :

ثم إن الله بارك القرآن في ذاته ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾[ص: ٢٩] وبارك الزمان الذي أنزل فيه القرآن ببركة بيته العتيق ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ﴾[آل عمران:٩٦] .

وامتدت بركة القرآن من مكة إلى حيث نزل النبيﷺ ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا ﴾[المؤمنون:٢٩] .

وبارك الله الأسرة النبوية من إبراهيم ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾[هود:٧٣] .

ذلك أن الذات الإلهية التي أنزلت القرآن مباركة ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الأعراف:٥٤] مباركة الاسم ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾[الرحمن:٧٨] .

(١) قال السيد الرائد ﷺ : البلكفة قولهم إن لله يدا أو رجلا أو عينا حقيقة ، ولكن بلا كيف .

وبالإضافة نرى البركة كذلك في القرآن قد لحقت أشياء شتى ، فمثلا أدركت البركة الأنبياء والصالحين معهم ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾[هود:٤٨] .

ويقول الله على لسان عيسى ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾[مريم:٣١] وبارك الله الماء ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾[ق:٩] وبارك الشجر ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾[النور:٣٥] وبارك التحية ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً﴾[النور:٦١] .

وبارك البقاع ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[القصص:٣٠] وبارك المسجد وما حوله ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾[الإسراء:١] .

وفي التشهد : وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم . فهو قد بارك المحسوسات والمعنويات التي لا تحصى ، وبارك الأشخاص والذوات كُلاً بما يناسبه من مَعِين الفيض الذي لا ينتهي ، فإنكار البركة إنكار لحقيقة قرآنية إلهية ، لا يرتاب فيها مؤمن عاقل .

مشروعية قراءة الفاتحة

للأحياء والموتى

أولا : سورة الفاتحة قرآن والتوسل إلى الله بالقرآن لم يمنعه أحد ، بل هو مستحب مندوب إليه ، ولم يقل أحد إنه بدعة ولا حرام لا من السلف ، ولا من الخلف إلا أهل هذا الزمان المذهل .

ثانيا : قراءة سورة الفاتحة (**نفس حركة القراءة**) عمل صالح ، والتوسل إلى الله بالعمل الصالح لم يمنعه أحد بل هو مستحب ومندوب إليه ، ولم يستنكره مسلم على الإطلاق .

ثالثا : سورة الفاتحة هي الكم المشترك حفظه من القرآن من جميع المسلمين على مختلف الأوطان واللغات وعلى مختلف المستويات ، وما جاء في فضلها لم يجئ في فضل سورة سواها .

ويكفي في جلالها أن تكون أساس كل صلاة ورقية رسول الله ﷺ والسبع المثاني ، وحقيقة مجمل معاني كتاب الله كله ، راجع ما سبق أن كتبناه عنها في هذه الرسالة .

رابعا : قال تعالى ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُ﴾[المزمل:٢٠] وسورة الفاتحة هي القدر المتفق على أنه متيسر لجميع أهل القبلة في المشارق والمغارب بلا خلاف .

خامسا : وهذه القضايا الأربع لم يختلف عليها أحد من الأمة ، وهي أصول هذا الموضوع وملاكه ، فالقائل (**الفاتحة لكذا وكذا**) متوسل إلى الله تعالى بشيء من كتابه ، ثم هو متوسل إليه بعمل صالح ، هو حركة

قراءة هذا الشيء واختياره وقصده، رجاء أن يقضي الله له كذا وكذا مما يهمه من حاجات الدنيا والآخرة .

سادسا : والقائل (**الفاتحة لفلان**) حيا كان أو ميتا متوسل إلى الله بشيء من كتابه، ثم هو متوسل إليه بعمل صالح، هو قراءة هذا الشيء من كتابه واختياره وقصده، رجاء أن يكرم الله الحي بما هو أهله، وأن يكرم الله الميت بما هو أهله، فيقضي الله بنعمته حاجة الحي، ويرحم أو يرفع درجة الميت .

وكما ترى هو أمر من حيث الفقه سائغ مشروع، ومن حديث المنطق بالغ مرفوع، ثم هو مؤيد بالإجماع الجماهيري العام المجدد من الأمة كلها، فإنكاره هو المنكر الشنيع الدال على ضحالة العلم والتعصب وضيق الأفق .

النبي قرأ الفاتحة على الموتى:

أولا : في خصوص قراءة الفاتحة للأموات نرى الحنابلة وعلى رأسهم ابن القيم، وابن قدامة، ومن وافقهم من بقية المذاهب يقررون وصول ثواب قراءة القرآن إلى الأموات بأدلتهم القاطعة التي يرجع إليها في كتابيهما الشهيرين وغيرهما .

ثانيا : ثبت ثبوتا قطعيا أن الرسول ﷺ قرأ الفاتحة بنفسه (**الفاتحة بالذات**) غير مرة على الموتى، وذلك عند الصلاة عليهم، ولذلك اعتبر الشافعي وأحمد وإسحاق وكثير من السلف قراءتَها على الميت أثناء الصلاة عليه ركنا بعد التكبيرة الأولى أخذا من حديث جابر عند البيهقي والحاكم والطبراني في الكبير وغيره .

ثالثا : وقد أخرج البخاري والثلاثة وابن حبان والحاكم والبيهقي وصححه عن طلحة بن عبدالله قال : صَلَّيْتُ مَعَ ابْنِ عَبَّاسٍ عَلَىٰ جَنَازَةٍ فَقَرَأَ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ ، وَقَالَ : إِنَّهَا مِنَ السُّنَّةِ [١] .

وقول الصحابي : إنّها من السنة . يأخذ حكم الحديث المرفوع إلى النبيﷺ ويؤيده حديث النسائي والطحاوي والبيهقي بسند صحيح عن أبي أمامة يقول : السُّنَّةُ فِي الصَّلاةِ عَلَى الْجَنَازَةِ أن يقرأ بعد التَّكْبِيرَةِ الأُولَىٰ بِأُمِّ الْقُرْآنِ [٢] .

ونحو هذا رواه ابن المنذر وآخرون .

رابعا : وبهذا ثبت بما لا مجال للمخاصمة فيه أن النبيﷺ قرأ بالفاتحة على الموتىٰ في صلاة الجنازة على الميت في النعش ، والميت في النعش هو الميت في القبر ، لا فرق بينه هنا أو هناك إذن فلا مجال للإنكار علينا في قراءة الفاتحة لهم في قبورهم ، سواء بنية التوسل إلىٰ الله في المغفرة لهم ورفع درجاتِهم ، أو بنية جعل ثوابِها لهم .

خامسا : ومتىٰ ما ثبت بهذا أنهﷺ قرأ الفاتحة على الموتىٰ ، فقد أجاز بالتالي أن تقرأ عليهم ما تيسر من غيرها من القرآن ، فالحكم هو الحكم في هذا وذاك وفي الحديث الثابت : «**اقْرَءُوا (يس) عَلَىٰ مَوْتَاكُمْ**»[٣] .

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٣٥) وأبو داود (٣١٩٨) والترمذي (١٠٢٧) والنسائي (١٩٨٧) .
(٢) أخرجه النسائي (١٩٨٩) والبيهقي (٤/ ٣٩) والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٥٠٠) .
(٣) أخرجه أبو داود (٣١٢١) .

وهذا يكشف معنى الحديث استحباب قراءة يس وغيرها على الموتىٰ كما في أبي داود وغيره، وللإمام الصنعاني رسالة ضوء النهار في صحة قراءة القرآن على الموتىٰ، إضافة إلى ما جاء في كتاب الروح لابن القيم وكلها صحيحة.

وأنه كما يستحب قراءتها على المحتضر يستحب قراءتها على المقبور، فالقرآن بركة وهي ما لم تصل إلى الميت فلن يحرم منها الحي، والله أعلم وهو المستعان [١].

(١) راجع رسالة بركات القرآن للرائد.

الشرك والكفر والصلاة إلى المقابر

الشرك والكفر والصلاة إلى المقابر

بيان علمي بالغ الأهمية

أولا : موضوع الشرك والكفر :

انتفعت كما انتفع غيري من المسلمين بما نشرته مجلة اللواء الإسلامي بالعدد (٣٩) مما دار في ندوة مسجد الشيخ البدوي ﷺ، وأرجو أن يتسع صدر المجلة وصدر أساتذتنا الأجلاء لتعقيب أزعم أنه مكمل لموضوع الندوة، وأنه هام في ميزان العلم والدين والتاريخ، ولا شك أنه تعزيز لتقديرنا الكبير للمجلة ولرجالها أجمعين .

فقد جاء على لسان بعض رجالها من علمائنا كلام عام قد يحتاج إلى تحديد أو إلى بيان الوجه الآخر، ونحن حين نتحدث في مثل موضوعات الندوة إنما نتحدث في أمر فرعي، حسبنا منه الدليل الظني، إذ إن كل ما انسحب عليه حكم الجواز والمنع محله الفروع، والفروع محلها الخطأ والصواب، وحكمها الحلال والحرام، فنقلها إلى الكفر والإيمان والشرك والتوحيد خروج بالموضوع عن محل النزاع العلمي، وإشاعة للاضطراب الفكري، على الأقل بين الجماهير .

وقد جاء فيما جاء من الأحكام بهذه الندوة أن الصلاة إلى الضريح **(شرك)** وأيضا الصلاة إلى عمود المسجد **(شرك)**، وكانت العلة أنه لو رأي ذلك من لا علم له بالإسلام لظن أن المصلي يعبد الضريح أو العمود .

والتجاوز في إطلاق حكم الشرك والكفر على المسلمين هو خطأ

كالخطيئة في ذاته، ثم هو الذي زين طريق التطرف والانحراف للجماعات التي نشكو غلواءها، والتي سببت لهذا البلد ما لا يزال يعانيه من قلق واضطراب وفساد كبير، فاتهام المسلم بالشرك أو الكفر لا يطيقه ولا يملكه أحد بغير دليل على مثل ضوء الشمس.

وتعليل الشرك بتوهم من لا علم له بالإسلام تعليل فيه نظر، فمنذ متى كانت أحكام الدين متعلقة بتوهم الناس، سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين؟ ومتى كانت الأحكام تؤخذ من غير المسلمين، فتصبح إسلاما واجب الاتباع؟

فسم ذلك إن شئت خطأ أو جهلا، أو مخالفة أو ترخصا أو تأولا، ولا تسمه شركا، وإلا فقد أخرجنا بذلك ملايين الملايين من دين الإسلام بما فعلوا من ذلك، فضلا عمن سوف يفعلون وهذا حكم هائل خطير، لا يتحمل مسئوليته مسلم مهما يكن شأنه صحفيا أو عالما أو غير ذلك.

ولا أدري كيف تكون الصلاة إلى الْعُمُد والسواري عبادة للعمد والسواري، وقد صح الحديث عن الصحابة أنهم كانوا إذا انتهى الأذان يَبْتَدِرُونَ السَّوَارِيَ[1] أي يسارعون للصلاة إليها، ثم إن اتخاذ **(السترة)** في الصلاة أمر لا خلاف عليه، فهل يكون المصلي إلى السترة مشركا عابدا لما هو أمامه من شيء، كيفما كان هذا الشيء المتخذ سترة؟ هذا حكم خطير ورثناه عن الوهابية المسرفة بلا تمحيص.

(١) أخرجه البخاري (٦٢٥) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ كَانَ الْمُؤَذِّنُ إِذَا أَذَّنَ قَامَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَبْتَدِرُونَ السَّوَارِيَ حَتَّى يَخْرُجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُمْ كَذَلِكَ.

هذا أولا .

أما ثانيا :

فقد قيل في الندوة أيضا أن الصلاة في الضريح أو المقابر (**مكروهة وحرام وباطلة هكذا**) لأحاديث ذكرت ، وهذه الأحاديث كان قد تأولها السلف بأن الذين جاء ذكرهم هم الذين اتخذوا أنبياءهم وغيرهم أربابا وكانوا يعبدون مقابرهم ، وليس كذلك أحد من المسلمين بحمد الله ، سواء أكان أميا أم مثقفا ، وهذا رأي ابن حجر ، والبيضاوي ، والشوكاني ، وغيرهم .

وقد روى فيمن روى هذه الأحاديث إمام دار الهجرة مالك ﵁ ، ومع ذلك جاء في المدونة : سئل ابن القاسم هل كان مالك يرى بأسا أن يصلي الرجل وبين يديه قبر؟ قال : إن مالكا لا يرى بأسا بالصلاة في المقابر وهو - أي مالك - إذا صلى في المقبرة كانت القبور بين يديه ، ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله - إلى أن قال - قال مالك : بلغني أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يصلون في المقبرة [١] تأمل .

ومعنى هذا أن الإمام مالكا ، وهو ممن روى أحاديث المنع ، تأول هذه الأحاديث ، ولم ير أن أسبابها منطبقة على الواقع الإسلامي ، وهذا هو الصواب .

وقد رأينا عائشة رضي الله عنها تقيم في حجرتها بعد دفن رسول الله بها ، وبعد دفن صاحبيه ، ومعلوم أنها كانت تصلي بحجرتها ، فلم يكن في

---

(١) المدونة (١/ ١٨٢) .

بيت رسول الله ﷺ إلا حجرة واحدة وفناء، ولم يعترض عليها أحد ممن هم أعلم بدين الله منا.

وقد روى البخاري تعليقا على وجه الجزم: أن فاطمة الكبرى بنت الحسين ضربت قبة على قبر زوجها الحسن بن الحسن، أقامت بها عاما كاملا[١]. وبالطبع كانت تصلي بها على قبر زوجها، ولم يعترض عليها أحد.

وقد روى مالك أن عليا رضي الله عنه كان يتوسد القبور وينام عليها، وفسر مالك حديث منع الجلوس على القبر على معنى قضاء الحاجة فوقه، أو تحقيره.

وإذن فالقول بأن الصلاة إلى القبر باطلة قول فيه نظر علمي وتحقيق دقيق، أما القول بالكراهة والحرمة بعد هذا ففيه نظر أيضا، إذا اتقينا الله في إطلاق الأحكام وعدم الانحياز لجانب معين، مسايرة للعاطفة أو محدودية العلم.

أما ثالثا:

فقد ذكرت قضية الطواف بالضريح وأنها حرام، وهذا صحيح إذا تحقق في الطواف شروطه الشرعية، وأركانه المعروفة، فالطواف شرعا بالكعبة المكرمة، وهو يبدأ من مكان معين، أمام حجر معين يُقَبَّلُ أو يشار إليه مع التكبير، ثم الطواف إلى مكان معين، يكون فيه إسراع الخطا، ثم إلى ركن معين، يلمسه الطائف، ثم يتكرر هذا سبع مرات مع الذكر والدعاء.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الجنائز باب ٦١ بلفظ: وَلَمَّا مَاتَ الْحَسَنُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رضي الله عنهم ضَرَبَتِ امْرَأَتُهُ الْقُبَّةَ عَلَى قَبْرِهِ سَنَةً، ثُمَّ رُفِعَتْ.

فهل هذا يتم حول أضرحة الأولياء؟ إن الطواف إذا فقد هذه الصورة أو بعض هذه الصورة لا يكون طوافا شرعيا يترتب عليه حكم شرعي، فهل هذا متحقق فيما نرىٰ من زوار الأضرحة؟ الذين يدخلون من باب ليخرجوا من الآخر مثلا؟

إنما هي المبالغة التي تلقيناها عن بعض الغالين من السابقين وكررها أتباعهم فكررناها معهم، والأمر أهون من ذلك كله، ولا شك أن سد الذرائع أولىٰ، وأن الاعتصام بالأفضل والأمثل أحق، ولكن بغير إطلاق الأحكام بلا تحديد ولا احتياط، وإني لأعتذر إلىٰ أساتذتنا، ويعلم الله أننا نعزهم، ولكن الحق أعز علينا منهم، وليس أمر الدين لشخص معين وإن بلغ ما بلغ، فالبشر بشر، يخطئ ويصيب، والاختلاف في الفروع طبيعة وشريعة، ولكل وجهة هو موليها، وأستغفر الله وأتوب إليه.

الـوســيلة

وفي العدد رقم (٤٠) من مجلة اللواء الإسلامي نشر الجزء الثاني من ندوة السيد البدوي وقد جاء فيها ما يستوجب الإيضاح والتقويم واختيار الحكم الشرعي الذي يجمع الأمة، ولا يسبب الفتنة.

فنحن نشكر ما جاء في المجلة بشأن الموالد، وليس لمسلم عليه اعتراض، بل لقد اعترضنا عليه ولا نزال منذ أكثر من ثلث قرن حين لم يكن يتحدث في هذا الجانب أحد، ولا زلنا على العهد رغم ما نعاني بسببه.

ولكن العنوان الذي يقول: (**إن التوسل بالأولياء مكروه**) يحتاج إلى كثير من الإيضاح والتقويم، فكيف يقال إن التوسل بالأولياء مكروه دون إقامة دليل علمي عليه، فإن الكلمة التي قدمها فضيلة الشيخ موسى شاهين كلمة محددة قرر فيها أن (**التوسل السليم**) بالأولياء لا شيء فيه أو عليه، وإنما الممنوع هو الطلب المباشر من الأولياء، فمن أين جاء الحكم بأن التوسل بالأولياء مكروه على الإطلاق حتى يكون عنوانا لافتا للنظر بهذه الصورة.

التوسل من حيث هو، أمر به الله أمرا صريحا واضحا، فهو نص لا اجتهاد معه ولا تأويلا، يقول تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥].

فابتغاء الوسيلة أمر مقرر لا خلاف عليه، وإنما كان خلاف الأمة على صورته ولفظه، فكما جاء الأمر بدعاء الله دعاء مباشرا جاء الأمر بابتغاء

الوسيلة إليه، فيما هو مرجو منه، فقد تساوي الأمران، والتعصب لأحدهما نوع من الهوىٰ، وأيهما اختار الإنسان فهو مصيب بشروطه.

أما ما دخل علىٰ أسلوب التوسل من انحراف أو جهالة فهذا شيء آخر له حكمه الخاص به، والدخيل لا يغير حكم الأصل.

وكيف يكون التوسل بالأولياء ممنوعا، وقد صح علميا حديث: «**اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ**»[(١)].

وحديث: «**اغفر لفاطمة بنت أسد بحق نبيك والأنبياء من قبلي**»[(٢)].

وقد استشهد بالحديثين الشيخ ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وفيهما توسل صريح بالصالحين، وقد وفينا هذا الموضوع حقه في رسالتنا قضايا الوسيلة والقبور التي طبعت عدة مرات، وهي دائما رهن الطباعة.

إن من حق الناس الذين نشر عليهم هذا الحكم أن يعلموا الحكم الآخر شرعا وقانونا ومروءة، فالتوسل بالأولياء بشرطه جائز شرعا وعقلا.

ومما جاء في هذه الندوة دعاء نسب إلىٰ أبي الحسن الشاذلي، والواقع أنه للإمام أحمد بن عطاء الله السكندري، وجاء في هذه الندوة أن عائشة قالت عن المرأة الحرة: ألا ترىٰ رجلا، ولا يراها رجل. والأصح أن هذا من كلام فاطمة بنت رسول الله ﷺ.

(١) أخرجه ابن ماجه (٧٧٨) وأحمد (٣/ ٢١) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٤/ ٢٥١، رقم ٨٧١) وفي الأوسط (١/ ٦٧، رقم ١٨٩) وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣/ ١٢١).

وجاء في الكلام عن التوسل بالعباس لفظ الاستشفاع، والأصح فيه لفظ التوسل كما هو ثابت في الأحاديث، وإنما جاء لفظ الاستشفاع في حديث أبي بكر لرسول الله ﷺ: فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِكَ إلى الله - أو على الله - وَنَسْتَشْفِعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ، أو إليك. فقال ﷺ: «**إِنَّهُ لاَ يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ**»[1].

ولم ينكر الاستشفاع به إلى الله فجاز التوسل به، وبما أنه لا خصوص هناك فقد جاز التوسل بالأولياء والصالحين، وهذا الحديث من الأحاديث الثابتة التي تدل على جواز التوسل والاستشفاع إلى الله بالصالحين. فانتفي أنه مكروه كما جاء في عناوين المجلة، والله الموفق والمستعان.

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٢٦) عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ.

من أحكام القبور والتبرك بأصحابها

أرسل المرحوم الشيخ محمد عبد الحامد البدايوني رئيس جماعة علماء باكستان إلى المرحوم الداعية الكبير الشيخ محمود ربيع عضو العشيرة المحمدية سؤالا حول أحكام القبور، وأجاب عليه بما لخصناه فيما يأتي - ونحن ننصح بإلحاح أن يعود القارئ إلى رسالتنا **(الإفهام والإفحام)** في أحكام قضايا الوسيلة والقبور، ففيها التحقيق العلمي الشامل - قال الشيخ رضي الله عنه:

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحابته وبعد،

فقد ورد أسئلة على السيد العالم الفاضل الشيخ عبد الحامد البدايوني رئيس جمعية العلماء بالباكستان هذا نصها:

ما قول سادتنا العلماء في بناء الضرائح والقبب، وتعليق الستور ووضع السرج على قبور الصحابة الكرام، وأهل بيت الرسول العظام وأولياء هذه الأمة الفخام، وأيضا زيارتهم، والسلام عليهم.

فأجابهم حفظه الله بما يثلج الصدور مما يطمئن له القلب ويرتاح له العقل، وقد طلب مني أن أسبق فتياه بمقدمة، فشكرت فضيلته على حسن ثقته، ورأيت أن أكتب الآتي فضلا عما أكتبه في مؤلفاتي وتعاليقي خصوصا كتابنا كشف الشبهات عن إهداء القراءة وسائر القرب للأموات.

البناء على القبور:

سئل العلامة نجم الدين الغيطي عن التحويط على بعض القبور المملوكة فقال : إنه إذا كان المراد بالتحويط البناء حوله كبيت أو قبة أو نحو ذلك فإنه مكروه تنزيها إذا كان البناء في ملكه ، فروى مسلم عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه : نَهَىٰ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَنْ يُجَصَّصَ الْقَبْرُ وَأَنْ يُقْعَدَ عَلَيْهِ وَأَنْ يُبْنَىٰ عَلَيْهِ[1] .

وفي رواية : ونهىٰ أن يبنى القبر . لكن حيث خشي على القبر من آدمي أو نحو ضبع أو خاف من السيل أن يغرقه فيجوز البناء بلا كراهة .

أما البناء في المقبرة الـمُسَبَّلَة فيحرم - والمراد بالـمُسَبَّلَة التي عينت لدفن عموم الناس دون وقف - إذ الموقوفة يحرم البناء فيها قطعا . انتهىٰ .

فأنت ترىٰ المسألة لا تعدو الحرمة في الموقوفة ، وخلافية في غيرها ، فلا يصح الجزم بالإنكار على أحد يفعل هذا .

وأما تغالي هؤلاء بجعل القبور والقباب أوثانا ، وزوارها مشركين فهذا من التلبيس الذي أراده أولياء الشياطين .

ففي بغية المسترشدين أن الحافظ العراقي قد قال : إن تقبيل الأماكن الشريفة على قصد التبرك وأيدي الصالحين وأرجلهم حسن محمود باعتبار القصد والنية .

---

(١) أخرجه مسلم (٩٧٠/ ٩٤) .

تقبيل الأماكن الشريفة والمصحف

وذكر العلامة محمد سليمان الكردي المدني في فتاويه الأحاديث الصحيحة والآثار الصريحة الدالة على جواز تقبيل الأماكن الشريفة، وقد جاء أن رجالا من الصحابة رضي الله عنهم كانوا إذا دخلوا المسجد النبوي أخذوا رمانة المنبر الشريف التي كانﷺ يمسكها بيده، ولقد صرح علماء المناسك بأنه يسن استلام الركن اليماني الذي ليس فيه الحجر الأسود.

قال الزرقاني في شرحه: ونقل عن ابن أبي الصيف اليماني الشافعي جواز تقبيل المصحف وقبور الصالحين.

وفي خلاصة الوفا للسيد السمهودي ما نصه: وعن إسماعيل التيمي قال: كان ابن المنكدر يصيبه الصمات، فكان يقوم فيضع خده على قبر النبيﷺ فعوتب في ذلك فقال: إنه يستشفي بقبر النبيﷺ. انتهى.

وفي حواشي الطحاوي على مراقي الفلاح: وكان عمر رضي الله عنه يأخذ المصحف كل غداة ويقبله، وكان عثمان رضي الله عنه يقبله ويمسحه على وجهه. انتهى.

وثبت أن ابن عمر رضي الله عنهما كان يضع يده على القبر الشريف.

وجاء بسند جيد: أن بلالا رضي الله عنه لما زار قبر النبيﷺ من الشام جعل يبكي ويمرغ وجهه على القبر الشريف بمحضر من الصحابة، ولم ينكر ذلك عليه أحد منهم، وكذلك فعل أبو أيوب الأنصاري حينما جاء من أرض الروم.

النبي يقبل المحجن ويقبل الحجر:

وفي الجمع بين الصحيحين ومسند أبي داود: أنهﷺ كان يشير إلى

الحجر الأسود بمحجنه ويقبل المحجن. فلينظر هؤلاء كيف كانﷺ يقبل المحجن لكونه أشار به إلى الحجر الأسود.

وفي حاشية الإقناع للشيخ منصور البهوتي الحنبلي، وناهيك به جلالة وقدرا قال: كان إبراهيم الحربي يعني صاحب الإمام أحمد يستحب تقبيل حجرة النبيﷺ. انتهىٰ.

ابن عابدين والستور على الضريح:

وفي آخر حاشية العلامة ابن عابدين الحنفي[1] ما نصه: فائدة:

وضع الستور والعمائم والثياب علىٰ قبور الصالحين والأولياء كرهه الفقهاء حتىٰ قال في فتاوي الحجة وتكره الستور على القبور. انتهىٰ.

قال: ولكن نحن الآن نقول إن كان القصد بذلك التعظيم في أعين العامة حتىٰ لا يحتقروا صاحب هذا القبر الذي وضعت عليه الثياب والعمائم، ولجلب الخشوع والأدب لقلوب الغافلين الزائرين، بأن قلوبهم نافرة عند الحضور في التأدب بين يدي أولياء الله تعالى المدفونين في تلك القبور - لما ذكرنا من حضور روحانيتهم المباركة عند قبورهم - فهو أمر جائز لا ينبغي النهي عنه، لأن الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوىٰ، فإنه وإن كان علىٰ خلاف ما كان عليه السلف، ولكن هو من قبيل قول الفقهاء في كتاب الحج: إنه بعد طواف الوداع يرجع القهقري حتىٰ يخرج من المسجد، لأن في ذلك إجلال[2].

---

(١) حاشية ابن عابدين (٦/ ٣٦٣).

(٢) راجع كشف النور عن أصحاب القبور.

تقبيل القبر الشريف

وأما التبرك بآثار النبيﷺ فحدث عنه ولا حرج ، ففي حاشية الإيضاح ما يفيد أن العز ابن جماعة اعترض منع صاحب الإيضاح تقبيل القبر الشريف ومسه بقول الإمام أحمد لا بأس به ، وقول المحب الطبري وابن أبي الصيف يجوز تقبيل القبر الشريف ومسه ، وعليه العلماء الصالحين .

وقول السبكي إن عدم التسمح بالقبر الشريف ليس مما قام الإجماع عليه ، ثم ذكر حديث إقبال مروان فإذا برجل ملتزم القبر الشريف . . . الحديث ، وفيه أن ذلك الرجل هو أبو أيوب الأنصاري رضي الله تعالى عنه ، وهذا الحديث أخرجه أحمد والطبراني والنسائي .

تبرك النبي بسؤر المسلمين :

وثبت كذلك عند البخاري وغيره أنهﷺ جاء سقاية العباس ليشرب من السقاية ، فأمر العباس ابنه عبدالله أن يأتي للنبيﷺ بماء آخر من الدار غير ما يشرب منه الناس ، لأنه استقذره وقال : يا رسول الله هذا تمسه الأيدي نأتيك بماء غيره ، فقال : لا ، إنما أريد بركة المسلمين وما مسته أيديهم[1] .

فإذا كان رسول اللهﷺ يقول ذلك ، فما بالك بغيره؟ فكل مسلم له نور وبركة ، ولا نعتقد التأثير لغير الله تعالى .

---

(١) أخرجه البخاري (١٦٣٥) مقتصرا على الشرب فقط بلفظ : عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِﷺ جَاءَ إِلَى السِّقَايَةِ ، فَاسْتَسْقَىٰ ، فَقَالَ الْعَبَّاسُ يَا فَضْلُ اذْهَبْ إِلَىٰ أُمِّكَ ، فَأْتِ رَسُولَ اللهِﷺ بِشَرَابٍ مِنْ عِنْدِهَا . فَقَالَ : «اسْقِنِي» . قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ أَيْدِيَهُمْ فِيهِ . قَالَ : «اسْقِنِي» . فَشَرِبَ مِنْهُ .

فطلب بركة الصالحين بالتماس آثارهم ليس فيه شيء من الشرك ولا من الحرمة يا أولي الألباب ، فالكل يعلم أن الفاعل الله .

التبرك بما مسته يد النبي :

وفي شفاء القاضي عياض : رئي ابن عمر رضي الله عنهما واضعا يده على مقعد رسول الله ﷺ من المنبر ثم وضعها على وجهه أي مسحه بها تبركا بما مس جسده وثيابه ﷺ .

قال الشهاب : وهذا رواه ابن سعد ويدل على جواز التبرك بالأنبياء والصالحين ، آثارهم وما يتعلق بهم ما لم يؤد إلى فتنة أو فساد عقيدة .

وعلى هذا نحمل ما روي عن عمر من : أنه قطع الشجرة التى وقعت تحتها البيعة يفتن بها الناس لقرب عهدهم بالجاهلية ، فلا منافاة بينهما ، قال ولا عبرة بمن أنكر مثله من جهلة عصرنا .

الإمام مالك والمدينة :

قال : ولهذا أي للتبرك بأثره ﷺ كان الإمام مالك لا يركب بالمدينة دابة رجاء أن يمس جسدُه ترابا مشى عليه رسول الله ﷺ ولأجل تعظيمه عليه الصلاة والسلام أيضا ، كما يدل عليه قوله : أستحي من الله تعالى أن أطا تربة فيها رسول الله ﷺ بحافر دابة . اهـ .

الاستشفاء بماء جبة رسول الله ﷺ

وقد ثبت في حديث أسماء بنت أبي بكر في مسلم أنها قالت: هَذِهِ جُبَّةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَانَتْ عِنْدَ عَائِشَةَ، فلما قُبِضَتْ قَبَضْتُهَا، فَنَحْنُ نَغْسِلُهَا لِلْمَرْضَىٰ يُسْتَشْفَىٰ بِهَا [١] . . . الحديث.

وفي الجمع بين الصحيحين عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَوْهَبٍ قَالَ: أَرْسَلَنِي أَهْلِي إِلَىٰ أُمِّ سَلَمَةَ زوج النبي ﷺ بِقَدَحٍ مِنْ مَاءٍ، فجاءت بجلجل[٢] مِنْ فِضَّةٍ، فِيهِ شَعَرٌ مِنْ شَعَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فكَانَ إِذَا أَصَابَ الإِنْسَانَ عَيْنٌ أَوْ شَيْءٌ بَعَثَ بإناء إليها فخضخضت له فشرب منه، فَاطَّلَعْتُ فِي الْجُلْجُلِ فَرَأَيْتُ شَعَرَاتٍ حُمْرًا [٣].

بركة بردة النبي ﷺ:

وفيه عن سهل بن سعد في البردة التي استوهبها من النبي ﷺ فلامه بعض الصحابة على طلبها منه ﷺ وكان لبسها، فقال: إِنَّمَا سَأَلْتُهُ إياها لِتَكُونَ كَفَنِي[٤].

وفي رواية أبي غَسَّانَ أنه قَالَ: رَجَوْتُ بَرَكَتَهَا حِينَ لَبِسَهَا النَّبِيُّ ﷺ لَعَلِّي أُكَفَّنُ فِيهَا[٥].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٦٩/ ١٠).

(٢) الجلجل شيء يتخذ من فضة أو غيرها يشبه الجرس.

(٣) أخرجه البخاري (٥٨٩٦).

(٤) أخرجه البخاري (١٢٧٧).

(٥) أخرجه البخاري (٦٠٣٦).

وكان مراده يتوسل بها إلىٰ الله تعالىٰ في قبره ليندفع عنه العذاب ببركتها ، وهي ذات لا يتصور فيها شيء من الجاه أو الدعاء أو التشفع أو غيرها ، سوىٰ كونها من آثار تلك الذات الشريفة .

بركة آثار المشايخ:

قال ابن مالك في شرح المصابيح : وفيه دليل على جواز التقرب إلىٰ الله تعالىٰ بآثار المشايخ والعلماء والصلحاء . انتهىٰ .

التبرك بموضع فمه الشريف ﷺ:

في مسند الإمام أحمد عن أم سليم : أن النبي ﷺ شرب شربة من قربة عندها قالت فقطعت فَمَ الْقِرْبَةِ[1] . أي رجاء بركتها لموضع فمه الشريف ، كما ذكره العلماء ومنهم الحلبي في شرح المنية ، وهو في مسند الإمام أحمد في درجة الحسن ، فاحفظه .

وفي مبحث الشرب قائما من حاشية الدر المختار للعلامة ابن عابدين ما نصه : وأخرج ابن ماجه والترمذي عن كبشة الأنصارية رضي الله تعالىٰ عنها : أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا قِرْبَةٌ مُعَلَّقَةٌ فَشَرِبَ مِنْهَا وَهُوَ قَائِمٌ فَقَطَعَتْ فَمَ الْقِرْبَةِ تَبْتَغِي بَرَكَةَ مَوْضِعِ فِي رَسُولِ الله ﷺ . وقال الترمذي : حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ[2] . انتهىٰ .

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٣٧٦) .

(٢) أخرجه الترمذي (١٨٩٢) وابن ماجه (٣٤٢٣) .

الصحابة ومعاوية وآثار الرسول ﷺ

ذكر القاضي عياض في الشفاء: أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتغالون في شراء آثاره الشريفة بعد موته ﷺ فيشترون ذلك بنفائس أموالهم، كالبردة التي اشتراها معاوية من ورثة كعب بن زهير، ولقد احتفظ بها حتىٰ حضرته الوفاة، فقال لمن حوله: إذا أنا مت فهذه بردة رسول الله ﷺ ضعوها مما يلي جسدي بعد الغسل، ثم كفنوني بها شئتم، وهذه قلامة أظفار رسول الله ﷺ احتفظت بها فاطحنوها ودقوها جيدا، وضعوها في فتحات عيني وأنفي وفمي وأذني ثم دعوني ألاقي ملائكة ربي.

بركة يده الشريفة والماء:

وفي صحيح مسلم: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا صَلَّى الْغَدَاةَ جَاءَ خَدَمُ الْـمَدِينَةِ بِآنِيَتِهِمْ فِيهَا الْـمَاءُ، فَمَا يُؤْتَىٰ بِإِنَاءٍ إِلاَّ غَمَسَ الشريفة يَدَهُ فِيه[(١)].

قال الإمام ابن الجوزي في كتابه بيان المشكل من الحديث: إنما كانوا يطلبون بركته ﷺ لهذا ينبغي للعالم إذا طلب العوام منه التبرك في مثل هذا ألا يخيب ظنونهم. انتهىٰ.

وهو صريح كما ترىٰ كلام النووي وكلام القاضي عياض كلاهما في شرح صحيح مسلم وكلام ابن مالك الحنفي شارح المصابيح في أن هذه الأمور ليست خاصة بالنبي ﷺ كما زعمه بعض الخوارج بلا دليل حسب

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٢٤/ ٧٤) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ.

عادتهم في أمثاله .

بركة شعرات النبيﷺ:

وروى البخاري أيضا أن أنس بن مالك خادم رسول اللهﷺ أوصى أن تدفن شعرات للنبيﷺ معه . انتهى .

وما ذاك إلا ليتوجه بها إلى الله تعالى في قبره .

وذكر القاضي عياض في فضل معجزاته وبركاتهﷺ من كتابه الشفاء أنه كانت شعرة من شعر النبيﷺ في قلنسوة خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه فلم يشهد بها قتالا إلا رزق النصر .

فيقال لهؤلاء الجهلة المنكرين التوسل والتسبب إلى الله تعالى بالذوات الشريفة أيرزق النصر خالد بذات شعرهﷺ ولا يتوسل إلى الله تعالى بأصل ذاته المكرمةﷺ؟

هذا ، وهكذا يقرر العلماء : من السنة إتيان الآبار والمساجد التي كانت يشرب أو يصلي فيهاﷺ تبركا بهﷺ .

وكان ابن عمر يتحرى أن ينزل في مواضع نزولهﷺ .

عود إلى البناء على القبور:

إن النقول تظاهرت من المحدثين والفقهاء في جواز ذلك حتى قال بعضهم ، ولو قصد بها المباهاة كما في الدر المختار وحواشيه .

ومنهم من صرح بجواز البناء ولو كان بيتا وهو قول المحققين من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم .

قال ابن حزم في المحلى : فإن بني عليه بيت أو قائم لم يكره ذلك . وقال

ابن مفلح في كتاب الفروع من فقه الحنابلة ، وذكر صاحب المستوعب والمحرر : لا بأس بقبة وبيت وحظيرة في ملكه ، لأن الدفن فيه مع كونه كذلك مأذون فيه . انتهى .

وهو قول ابن القصار وجماعة المالكية كما حكاه الخطاب في شرح المختصر ، وهذا في عامة الناس .

وأما الصالحون فقد قال الرحماني : نعم قبور الصالحين يجوز بناؤها ولو بقبة لإحياء الزيارة والتبرك .

رأى تلميذ ابن تيمية في البناء على القبور:

قال تلميذ ابن تيمية أيضا الإمام ابن مفلح الحنبلي في الفصول : القبة والحظيرة في التربة - يعني على القبر - إن كان في ملكه فعل ما شاء ، وإن كان مُسَبَّلَة كره ، للتضييق بلا فائدة .

قال ابن القيم الحنبلي : ما أعلم تحت أديم السماء أعلم في الفقه على مذهب أحمد من ابن مفلح . انتهى .

وفي شرح التوربشتي على المصابيح : وقد أباح السلف البناء على قبور المشايخ والعلماء المشهورين ليزورهم الناس وليستريحوا بالجلوس فيه . انتهى .

وفي شرح زين العرب على المصابيح أيضا : قد أباح السلف البناء على قبور العلماء المشهورين والمشايخ المعظمين ليزورها الناس ويستريحوا إليها بالجلوس في البناء الذي على قبورهم مثل الرباطات والمساجد . انتهى .

البناء أيضا :

قال في شرح البهجة : وفي كراهة كتابة اسم الميت عليه نظر ، بل قال الزركشي : لا وجه لكراهة كتابة اسمه وتاريخ وفاته ، خصوصا إذا كان من العلماء ونحوهم . انتهى .

الخلاصة :

إن البناء على قبور الصحابة وأهل البيت والأولياء والعلماء جائز ، وإن وضع الستور عليها جائز أيضا ، وإن بناء القبب محل خلاف إذا كانت بأرض مُسَبَّلة أو موقوفة ، أما إذا كانت بأرض مملوكة فلا حرمة فيها بلا خلاف ، وإن وضع السرج فيها جائز إن انتفع بها مصل أو طالب علم أو نائم أو مار أو نحوه ، وأما زيارتهم والسلام عليهم فهي من القرب المستحبة بلا نزاع ، والله أعلم .

تصديقات وموافقات علماء باكستان والهند :

وقد وافق على هذه الفتوى عدد لا يحصى من علماء كراتشي ، وحيدرآباد ، وبلوخستان ، وبهادل بور ، وغازي خان ، وملتان ، ولاهور ، ولائل بور ، ومعتكمري ، وكشمير ، وراولبندي ، وبشاور ، وبدايون ، وكوركيور ، وبنارس ، وكان بور ، ولكناو ، وفعص آباد ، وكلكتا ، وبمباي ، ومدراس . . . إلخ إلخ ، وأسماؤهم ووظائفهم وعناوينهم مسجلة برسالة الجواب المشكور للشيخ عبد الحامد البدايوني .

وليس معقولا أن تكون هذه المئات من العلماء جهلة أو مارقين ، ولنستغفر الله العظيم .

مشروعية الاجتهاد في الصلاة على النبي ﷺ

مسألة البردة والدلائل ونحوهما

١- أمر محكم:

الصلاة على النبي ﷺ نوع من الذكر والدعاء، فهي حزب وورد، ينطبق عليها من الأحكام ما ينطبق عليهما مما قدمنا، وقد عرفت بما لا شك فيه مشروعية قراءة الأحزاب والأوراد، وأنَّها في مرتبة تتردد بين الوجوب والاستحباب على الأقل. فكذلك شأن الصلاة على رسول الله ﷺ سواء بسواء.

وقد أمرنا القرآن أمرا محكما بالصلاة عليه ﷺ بأسلوب بياني ترغيبي رفيع(١) وفيه طلب شرف القدوة والتشبيه والتشبه بالحق تعالى والملأ الأعلى وفيه تأكيد مدى اهتمام الحق وملائكته بِهذه الصلاة لما فيها من السر والبركة، فإنما هي منقبة وفضيلة مقدسة، وهي لا تنبغي إلا للمؤمن، الذي خصته الآية بالخطاب، وبالتالي لا ينبغي أن يفوته فضلها، وأن صورة الصلاة وأسلوبَها أمر موسع في الحال والمقال، متروك للكفاية والاجتهاد في حدود التأصيل الشرعي العام.

ولا شك أن الأداء بالوارد له فضله العظيم، وهو لا يتعارض البتة مع الأداء بما تسكن إليه النفس ويطمئن المتعبد إلى ممارسته من منظوم ومنثور كما قدمنا.

---

(١) وهو قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

فإنه لم يأت نَهيٌ صريح أو ضمني عن الصلاة عليه ﷺ بغير الوارد، بل إن إطلاق الأمر في الآية فيه معنى الاجتهاد في الاختيار والتجديد.

وهكذا مدح الله تعالىٰ من عزروه ونصروه ﷺ والتعزيز هنا هو غاية التقدير والتوقير والتمجيد.

٢ - التأصيل الشرعي:

والتأصيل الشرعي هنا مبين كل البيان:

أولا: في قوله ﷺ: «**لاَ تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَي المسيح ابْنَ مَرْيَمَ**»(١).

ثانيا: في قوله ﷺ لوفد أطروه: «**قُولُوا بِقَوْلِكُمْ وَلاَ يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ**»(٢).

والمراد هنا وهنا: ألا نرفعه إلىٰ درجة الألوهية، كما استجرىٰ الشيطان النصارىٰ، فقالوا بذلك عن عيسىٰ زورا وبُهتانا، ثم نمدحه بعد ذلك بكل ما يفيضه الله علىٰ أحبائه.

ثالثا: رخص رسول الله لمن حضره من الشعراء أن يمتدحه بكل ما جاءت به قرائحهم، واستمع ﷺ إلىٰ ذلك من أمثال عمه العباس، وشاعره حسان، وحاديه ابن رواحة، وخادمه أنس وغيرهم، بل لقد أثاب ﷺ من مدحه إثابة حسية ومعنوية كما حدث في أمر كعب بن زهير، فكان عفوه ﷺ عنه إثابة معنوية، وكان إلقاؤه البردة عليه إثابة حسية.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥) عن عُمَرَ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٠٦) عن مطرف بن عبد الله.

وهكذا يصبح الاجتهاد في الصلاة عليه ﷺ ومحاولة إحسانِها وتجويدها، والتسامي بلفظها ومعناها سنة إقرارية على الأقل سواء أكانت من الشعر أم من النثر.

وهذه قصة عائشة وقد مدحته ﷺ ببعض أقوال الشعراء، فتهلل ورضىٰ، ولم ينهها.

قال الحافظ السخاوي: وقد روينا عن ابن مسدي ما نصه: وقد روىٰ في كيفية الصلاة عليه ﷺ أحاديث كثيرة، وذهب جماعة من الصحابة فمن بعدهم إلىٰ أن الباب لا يتوقف فيه مع المنصوص، واحتجوا بقول ابن مسعود: أحسنوا الصلاة علىٰ نبيكم، فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه[1].

نقول: وقد أخرج هذا الحديث الحافظ الديلمي في مسند الفردوس مرفوعا من رواية ابن مسعود، كما ذكره في القول البديع، وفي غيره مرفوعا أيضا.

وقال بعضهم: هو موقوف على ابن مسعود.

وحتىٰ لو كان موقوفا لكان الأخذ به أمثل وأفضل، لكثرة ما صح من الأحاديث عنه ﷺ في أن صلاة المصلين عليه ﷺ تبلغه وهو يسمعها ويرد السلام فإنه ﷺ حي حياة برزخية أرقىٰ وأنقىٰ من الحياة الدنيا، وقد جاء في هذا الشأن عدد من صحاح الأحاديث، ربما ذكرنا بعضها في البحوث

---

(١) «حلية الأولياء» (٤/ ٢٧١).

الآتية تأمل : كيف تخاطبه أنت في صلاتك مخاطبة الحي الحاضر السامع الموجود معك ، فتقول في التشهد (**السلام عليك أيها النبي**) بصيغة الخطاب التي لا تكون إلا للحي المخاطب الموجود بالفعل في المجلس ، فلو لم يكن هذا السلام يبلغه لكانت مشروعيته هنا عبثا على الأقل ، والصلاة منزهة عن العبث .

٣- بين الدلائل والبردة:

وقد تتبعنا - طوق جهدنا - ما جاء في هذا الباب فلم نقع على حديث يمنع الاجتهاد في الصلاة والسلام عليه شعرا أو نثرا ، بقدر ما يفيضه الحب على لسان المحب ، وما يصوغه الإيمان على لسان المؤمن من عبارات فيها روائح الجنة ، ونفحات السماء .

فالحملة على هذا الجانب استدراج خبيث إلى النزول بالمستوى النبوي وتَهوينه ، أو هو عند حسن الظن جمود عقلي كريه ، وخمود عاطفي موبق ، وعبادة وثنية لظواهر الألفاظ .

ولا بد من الإشارة هنا إلى أمور:

أولا : يجازف بعضهم بتحريم قراءة دلائل الخيرات في الصلاة على النبي ، وأمثالها مما ألفه الأشياخ والأئمة ، وأنت بعد أن عرفت ما قدمناه لن تجد القول محلا من معقولية الأشياء ، وإنما هي المجازفة والولع بالمخالفة ، والتعلق بالدعاوي الزائفة ، والآراء التالفة ، والاتجار بالدين في طلب الدنيا ، والتحكم بفرض الرأي الواحد .

ولا شك أن الإمام الجزولي لا يتحمل قط مسئولية ما دسوه عليه في

مقدمة كتابه الدلائل من الأحاديث الموضوعة ونحوها، فإن الناس حاولوا الدس في القرآن والنبي حي، والوحي ينزل، وما قصة الغرانيق بمجهولة، ولقد دسوا على الرسول آلاف الأحاديث المكذوبة، ودسوا في علوم الدين كالفقه والتوحيد والتفسير والتصوف وغيره ما هو مشهور، فكيف لا يدسون على الجزولي بعد أن مات، وهم قد دسوا على الشعراني وهو حي يرزق.

ثانيا: تكتم العصبية أنفاس بعضهم وعقله وقلبه فيحرم قراءة بردة البوصيري في مدح رسول الله ﷺ ويحكم على مؤلفها وتاليها بالكفر والإشراك من أجل نحو قوله رضي الله عنه:

١- يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به — سواك عند حلول الحادث العمم

٢- ولن يضيق رسول الله جاهك بي — إذ الكريم تجلى باسم منتقم

٣- فإن من جودك الدنيا وضرتُها — ومن علومك علم اللوح والقلم

وكذلك من أجل نحو قوله أيضا:

إن لم يكن في معادي آخذا بيدي — فضلا وإلا فقل: يا زلة القدم؟

حاشاه أن يحرم الراجي مكارمه — أو يرجع الجار منه غير محترم

والمسألة أقل من زوبعة في فنجان أو كستبان فإن الحزبية والحقد، والتعصب للتقليد، وضيق الأفق، والتأزم والتعقيد الذي يعانيه هؤلاء الناس ينزع من نفوسهم صفات السماحة واليسر والترفق والمرونة، وشفافية العاطفة، وحسن الظن بالناس، ودقة الحكم على الأشياء بما هم فيه من لزوجة الذوق والغثيان الفكري، والوجدان المتهرئ.

إن البوصيري يخاطب رسول اللهﷺ ورسول الله حي، كما ثبت في الصحاح[١] وروحه منطلقة في برزخها، وكما نخاطبه نحن في تشهد صلواتنا يخاطبه أحبابه في أشعارهم ومنثوراتِهم، المكتوبة أو المنطوقة على حد سواء.

وكما شرع لنا رسول اللهﷺ أن نخاطب الموتى ونسلم عليهم ونبشرهم باللحاق بِهم، وغير ذلك تحدث البوصيري مع روح رسول اللهﷺ قائلا:

١- يا أكرم الخلق إنني مذنب، فلا تحرمني شفاعتك، فليس لي من شفيع سواك ألوذ به عند حلول الهول الأعظم يوم القيامة.

وفي حديث ربيعة الأسلمي قال رضي الله عنه لرسول اللهﷺ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ، قالﷺ: «**أَعِنِّي عَلَىٰ نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ**». وهو في صحيح مسلم[٢] وربيعة هنا يطلب من الرسول مباشرة مرافقته في الجنة فيرد الرسول عليه بِهذا الكلام الرفيع. مع أن الرسول لا يملك ما طلبه منه الرجل.

فمحادثة البوصيري لروح رسول الله وطلبه الشفاعة أمر عادي مستحب على الأقل، ولعل البوصيري كان في مقام الكشف والشهود فخاطب مرئيا له موجودا محسوسا بالنسبة له، فلا شيء عليه بِهذا ولا بِهذا، ولا يزال الناس في المشارق والمغارب يخاطبون الرسول في خطبهم

(١) في الحديث الثابت: أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء، أما حياة البرزخ فلا شك فيها.
(٢) صحيح مسلم (٤٨٩/ ٢٢٦).

ومحاضراتِهم وأشعارهم خطاب الحاضر الموجود ، فيقولون مثلا : كنت كذا وكذا يا رسول الله ، وما هو من هذا المعنى مما لا يحصى .

ولا يزال وسوف يزال يدور على الألسنة .

٢- وفي البيت الثاني : يقرر البوصيري أن جاه رسول الله ﷺ عند الله جاه رحيب لا يضيق بفضل الشفاعة للمذنب بإذن الله يوم يتجلى الحق تعالى بصفة الانتقام والعدل فخشعت له الأصوات وعنت الوجوه ، ويقال له ﷺ : اشفع تشفع .

٣- وفي البيت الثالث : يقرر أن الرسول ﷺ يجود بكل ما أعطيه من شئون الآخرة والدنيا ، حسية كانت أو معنوية كالبذل والعطاء من شئون الدنيا ، والتربية والتوجيه من شئون الآخرة ، أو أنه يجود بالخير في الدنيا على الطالبين ، وبالشفاعة عند الله للمذنبين إن شاء الله كما يقرر أن الله تعالى علم رسوله ﷺ ما شاء من أسرار اللوح والقلم ، كالذي جاء على لسانه ﷺ من أعلام النبوة والإخبار بالغيب ، وحسبك القرآن الكريم وما يحمله من غيوب اللوح والقلم التي تتجلى يوما بعد يوم ، فكان ذلك علما من علومه ﷺ .

٤- وفي البيت الرابع : يخشى البوصيري ألا تناله شفاعة رسول الله ﷺ معبرا عنها بالأخذ باليد ، فإنه إن لم تصبه الشفاعة زلت قدمه في النار .

٥- وفي البيت الخامس : يطمئن البوصيري نفسه على أنه سينال هذه المنية من الشفاعة بفضل الله ، فإن الرسول ﷺ لم يحرم طالبا من مكارمه ، ولم يرد جارا عن بابه إلا وهو محترم مجبور الحال ، وهو بذلك أولى في

الآخرة بما له من المنزلة .

وبعد : فلسنا في هذه الأبيات التي أقاموا عليها الدنيا وأقعدوها ومنعوا من أجلها دخول مطبوع البردة إلى بيوتِهم وبلادهم ، لسنا نرى فيها إلا الخير والأدب وحسن الظن بالله ورسوله في توحيد مطلق وأمل فياض وأدب رفيع .

ولكن الله له في خلقه شئون ، إن هؤلاء الذين يمنعون أن يدخل مطبوع البردة أو الدلائل إلى بلادهم هم الذين يستوردون صور العرايا والمجلات الماجنة ، ويرحبون بالانحلال في أبشع وأخطر صوره المقروءة والمكتوبة والمصورة تدخل بيوتَهم وعلى نسائهم وأولادهم بوسائل الإعلام دون أي نكير وباسم الدين .

الإنشاد الصوفي سنة نبوية ثابتة

١ - النبيﷺ يشترك في الإنشاد الصوفي:

الإنشاد الصوفي سنة نبوية ثابتة في أعلى درجات الحديث الصحيح أعني المتفق عليه بين الشيخين: البخاري ومسلم، فقد رويا في صحيحيهما عَنِ الْبَرَاءِ بن عازب: أن النبيﷺ كان ينشد يوم الخندق من شعر ابن رواحة:

واللّه لــولا اللّه مَــا اهْتَــدَيْنَا وَلاَ تَــصَدَّقْنَا وَلاَ صَــلَّيْنَا

فَــأَنْزِلَنْ سَــكِينَةً عَلَيْنَــا وَثَبِّــتِ الأَقْــدَامَ إِنْ لاَقَيْنَــا

إلخ إلخ

وروى البخاري أن النبي كان يمد صوته بالكلمات الأخيرة من كل مقطع على طريقة التلحين العربي وقتئذ فيقول (**لاقينا** . . **أبينا** . . **إلخ**) فيردد الصحابة عليه الإنشاد كذلك (**لاقينا** . . **أبينا** . . **إلخ**)[١] .

والمفهوم الفقهي من هذا الخبر الثابت أن الإنشاد الفردي والجماعي بالتلحين كلاهما أصبح لهذا سنة مندوب إليها، ولعل سر المدد في هذا الخبر هو الذي كان سبب نجاح الدعاة إلى الله بالإنشاد مع الجهاد، كذي النون المصري في الرجال، ورابعة العدوية في النساء، إذا صح ما روي عنها .

وقد ثبت في الصحاح وعند أصحاب التواريخ والسير: أن المسلمين

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٣٤) ومسلم (١٨٠٣/ ١٢٥) .

كانوا في بناء مسجد المدينة يحملون لبنة لبنة أو حجرا حجرا ، وكان عمار ابن ياسر يحمل اثنتين اثنتين ، وهو ينشد قائلا :

نحن الهداة نبتني المساجدا

وكان الرسولﷺ مع بقية المسلمين يرددون عليه قائلين (**المساجدا**) وفي رواية لفظ (**المسلمون**) بدل الهداة .

ومن هاتين الروايتين يثبت أن النبيﷺ كان مرة ينشد ويرد الصحابة عليه كما جاء في الخبر الأول ، ومرة كان يرد مع الصحابة على الذي ينشد منهم كما جاء في الخبر الثاني ، واشتراك الرسولﷺ هنا وهنا شرف ضخم خالد للإنشاد والمنشدين .

٢ - من أناشيد الصحابة :

وثبت كذلك أنهﷺ رأى في يوم الخندق رجلا اسمه جعيل - وجعيل تصغير اسم جعل ، بضم الجيم وفتح العين ، والجعل حشرة معروفة تسمى في مصر الجعران تحريفا - فسمي النبي هذا الرجل عَمْرًا كعادتهﷺ في تغيير بعض الأسماء بما هو أجمل وأفضل ، فإذا بالصحابة يحفرون وينشدون بين يديهﷺ قائلين :

سماه من بعد جعيل عمرا وكان للبائس يوما ظهرا

وكان النبيﷺ يردد عليهم قائلا : (**عمرا ... ظهرا**) مادًّا بِها صوته منشدا .

وثبت أن خالدا بن الوليد كان يهدم صنم العزى وهو ينشد :

يا عز كفرانك لا سبحانك إني وجدت الله قد أهانك

وكان الطفيل بن عمرو الدوسي يؤجج النار في صنم ذو الكفين وهو يرتجز مغنيا :

يا ذا الكفين لست من عبادكا
ميلادنا أقدم من ميلادكا
إني حششت النار في فؤادكا

ولما وضع النبيﷺ رداءه وأخذ يعمل بنفسه في بناء مسجد المدينة جعل علي بن أبي طالب ينشد قائلا :

لا يستوي من يعمر المساجدا   يدأب فيها ركعا وساجدا
وقائما طورا وطورا قاعدا   ومن يرئ عن الغبار حائدا

وهنا وضع الصحابة أرديتهم وجعلوا ينشدون قائلين :

لئن قعدنا والنبي يعمل   لذاك منا العمل المضلل

وكذلك صح أنهﷺ كان ينقل اللبن مع القوم ويقول :

هَذَا الْحِمَالُ لاَ حِمَالَ خَيْبَرْ   هَـذَا أَبَـرُّ رَبَّنَـا وَأَطْهَـرْ[1]

وكذلك صح أنهﷺ كان ينشد مع صحابته :

اللهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الآخِرَة   فارحم الأنصار والمهاجرة[2]

وفي رواية (**فبارك أو اغفر**) لِلأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَة .

ومن الثابت الصحيح عند أهل العلم أنه كان لرسول الله حاد يغني لإبله في الركب النبوي هو عبد الله بن رواحة ، وكان رسول الله يسمع له

(١) يعني يا ربنا هذا العمل أبر وأطهر ، والحديث أخرجه البخاري (٣٩٠٦) .
(٢) أخرجه البخاري (٢٨٣٤) ومسلم (١٨٠٦/ ١٢٨) عَنْ أَنَسٍ .

ويطرب منه، ويشجعه ولا ينهاه كما في خبر: «**رفقا بِالْقَوَارِيرِ**»(١) عند منصرفه من خيبر.

ويوم الحديبية أخذ ابن رَوَاحَةَ بخطام ناقة رسول الله ﷺ حاديا منشدا قوله:

خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ   خَلّوا فكُلُّ الخَيرِ في رَسولِهِ

... إلخ (٢).

وفي منصرف المسلمين من بدر كان عدي بن الزغباء يحدو بجيش المسلمين قائلا:

أقم لها صدورها يا بسبس   ليس لدي الطلح لها معرس

إن مطايا القوم لا تخيس   فحملها على الطريق أكيس

قد نصر الله وفر الأخنس

وفي يوم أحد أخذ أبو دجانة السيف من رسول الله ﷺ وعصب رأسه بعصابة الموت الحمراء، وجعل يقاتل أعظم القتال وهو يرتجز منشدا:

أنا الذي عاهدني خليلي   ونحن بالسفح لدي النخيل

ألا أقوم الدهر في الكبول   أضرب بسيف الله والرسول

ونحو هذا روي صحيحا عن علي بن أبي طالب وكعب بن مالك وبعض

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢١٠) عَنْ أَبِي قِلاَبَةَ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ كَانَ في سَفَرٍ، وَكَانَ غُلامٌ يَحْدُو بِهِنَّ يُقَالُ لَهُ أَنْجَشَةُ، فَقَالَ النَّبِيُّ: «**رُوَيْدَكَ يَا أَنْجَشَةُ، سَوْقَكَ بِالْقَوَارِيرِ**». قَالَ أَبُو قِلاَبَةَ يَعْنِي النِّسَاءَ.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٤٧) وقال: حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ. ولفظ البيت عنده:

خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ   الْيَوْمَ نَضْرِبْكُمْ عَلَىٰ تَنْزِيلِهِ

الصحابة الأبرار ، ثم هذا ناجية بن جندب في غزوة خيبر يرتجز مغنيا :

يـا لعبـاد الله فـيما يرغـب   مـا هـو إلا مأكـل ومـشرب

وجنة فيها نعيم معجب

كل هذا والنبيﷺ يسمع ويطرب ، أو يشترك في الإنشاد لما له من الأثر العاطفي العميق الأبعاد في النفوس تشجيعا أو ترويحا ، أو تبتلا وابتهالا ، أو علاجا نفسانيا وشحنة روحية آمن بِها العلم الحديث .

٣- من أناشيد الصحابيات :

حتى الصحابيات كن يرتجزن وينشدن في الأفراح وغيرها كما ثبت في البخاري ومسلم وغيرهما من حديث عائشة وغزل الأنصار وغنائهم : أتيناكم أتيناكم فحيانا وحياكم ، وكيف استملحه بل أشار به الرسولﷺ .

وكيف ترك الجواري يغنين في داره وهو فيها يوم عيد .

وكيف استمع إلى غناء الجواري بأحد المخيمات كما جاء في حديث الربيع بنت معوذ عند البخاري .

وكيف أذن للمرأة أن تضرب عنده بالدف وتغني وفاء لنذرها . راجع تفاصيل كل هذا في الصحاح والسير المعتمدة .

كما لم ينهﷺ عن الرجز في النوح والبكاء ، كما جاء عن أم سعد بن معاذ رضي الله عنه أنَّها عندما احتمل نعشه جعلت ترتجز قائلة :

ويـل أم سـعد سـعدا   صرامـــة وجـــدا

وسـؤددا ومجـدا　　وفارسـا معـدا
سـد بـه مـسدا　　يقـد الهـام قـدا

أو في القتال في الله كما جاء عن إحدى المسلمات يوم بدر قولها ترتجز :

غلبت خيل الله خيل الـلات　　والله حـق منـك بالثبـات

أو في الاستقبال كما هو نشيد بنات النجار لرسول الله ﷺ عندما دار حول المدينة من قباء ودخلها من الثنيات :

طلع البدر علينـا　　مـن ثنيـات الـوداع
وجـب الـشكر علينـا　　مـا دعـا لله داع

٤ - الرَّجَز والتغني والصوت الحسن :

والرجز هو الشعر الذي كانوا يترنمون به ، ملحنا أغاني بلحون العرب ، وذلك بإجماع علماء الأدب والفن والتاريخ ، وفي صدرهم الأخفش والأصمعي والجاحظ ، ثم إن العلم والواقع وسابق التجربة ، كل ذلك قد سلم بالأثر النفساني البليغ الذي يحدثه الإنشاد ، وفيما ذكرناه مقنع لمن يشاء أن ينتصف .

ومن مجموع ما تقدم يثبت ثبوتا قاطعا أن الإنشاد الصوفي سنة نبوية وصحابية مندوب إليها ، ولها أثرها النفساني العميق . سواء أكان المنشد منفردا ، أو كان معه آخرون يرددون نشيده ، بشرط ألا يكون فيه قول ممنوع لفظا أو معنى .

والكلام في تحسين الصوت بالإنشاد جزء منه ، وحسبك قصة بلال في

ممارسة الأذان ، وقصة ابن مسعود في تلاوة القرآن ، ويكفي أن تذكر ما جاء في تحسين الصوت عن ابن رواحة وأنس بن مالك وأبي محذورة المؤذن وغيرهم ، بل حسبك ما جاء في جمال صوت النبيﷺ وكيف أنكر القرآن الصوت القبيح فقرر بِهذا مشروعية الصوت المليح ، وما جاء في الإنشاد النبوي والصحابي ينطبق شرعا على الأناشيد الصوفية والوطنية والحربية . فسقط الاعتراض والمعترض .

ومعروف ما ذكره العلماء في باب الإنشاد والسماع من تفريع وتفصيل وتخصيص وتعميم ، فليرجع إليه في مظانه من كتب الصوفية والمحدثين وغيرهم .

وإنما أردت أن أثبت أصل هذا الشيء من صميم السنة والتاريخ على أسلوب المنهج العلمي الثابت مغضيا عن أكثر التعليلات النفسية والفنية والعلمية وما يتعلق بِها .

نعم إذا اختلط بالإنشاد أمر ممنوع كالكلام المستهجن أو كالصفير والطبل وما هو منه تغير الحكم ، لا بالنسبة للأصل ، ولكن بالنسبة لما طرأ عليه ، وهذا هو الحق .

وحسبنا قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥] ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ [الأنعام: ٧٠] .

المواكب الصوفية المشروعة

اتفق مؤرخو صحاح السيرة المحمدية على أنه لما أسلم عمر بن الخطاب ﵁ استأذن رسول الله ﷺ في الإعلان بالدعوة ونزل قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنفال:٦٤] فخرج المسلمون جميعا في صفين على رأس أحدهما حمزة بن عبد المطلب، وعلى رأس الآخر عمر بن الخطاب، واتجهوا نحو الكعبة مكبرين مهللين في وقار وقوة وإيمان تخشع له الظواهر والبواطن، فكانت هذه أول مسيرة في الإسلام، وهي تعتبر عندنا الأصل الأول في سير المواكب الصوفية الهادفة المشروعة الوقورة.

ثم قوي الإسلام وكثر المؤمنون، وأرسل رسول الله ﷺ السرايا والبعوث والكتائب والجيوش جماعات جماعات، وقد ورد صحيحا أنَّهم كانوا إذا علوا شَرَفًا - مكانا عاليا - أو هبطوا سهلا أو واديا، أعلنوا بذكر الله، مهللين مكبرين ولم يخالف في هذا النقل أحد، فكان ذلك، وهو الأصل الثاني عندنا في سير المواكب الصوفية الهادفة المشروعة الوقورة مهللة مكبرة مصلية على النبي ﷺ.

هؤلاء يمضون إلى الجهاد الظاهر، وأولئك يمضون إلى جهاد الباطن، هؤلاء يمارسون الجهاد الأصغر، وأولئك يمارسون الجهاد الأكبر، وكلا الجهادين مكمل للآخر، وهذا وذلك في ذات الإله ﷻ، والصورة قريبة من الصورة.

إذًا فسير المواكب الصوفية مشروع بشروطه المستقاة من هذين الأصلين الجليلين أي على صورة مواكب الصحابة جلالا وإيمانا فلا بد من:

١- النظام : فهو أساس أم العبادات ، الصلاة .

٢- الوقار : فلا طبول ولا رموز ولا تصفيق ولا صراخ .

٣- الإيمان : فلا عكاكيز ولا بيارق ولا أوشحة .

٤- إرادة وجه الله : فلا نفاق لحاكم ولا طلب لدنيا .

٥- إظهار عزة الإسلام ومجده وقوته ومنعته وتطبيق شريعته .

٦- الإعلان بالذكر الصحيح النطق ، المفهوم المعنى ، الموزون الصوت .

٧- الدعوة بالأدب العلمي الرفيع بلا تطرف ولا استهتار .

٨- البراءة من المفاخرة والمكاثرة والبدع والدعاوي والدعايات والتهريج والتخريف احتراما للدين والدعوة .

٩- فهم الهدف ومحاولة تحقيقه قولا وعملا ، وصورة وحقيقة ، على أرفع المستويات بعثا للربانية وحضارة الإسلام .

فإذا خالط المواكب طبل أو زمر أو رقص أو اختلاط بين الجنسين أو عبث الأطفال ، أو حب للظهور ، أو أريد به مجرد التهريج أو الدعاية بالقول أو العمل ، أو خالفه الوقار والجلال ، أو خالف شيئا من صورة مواكب الصحابة كان حراما موبقا ، وسقط الموكب ومن اشترك فيه من عين الله وعين الناس ، وتبرأ منه تصوف أهل الله وإن صرحت به حكومات الدنيا ، وأشرفت عليه مشيخات العالم .

ولهذا اختارت الطريقة المحمدية البعد عن هذه المواكب نِهائيا لتعذر

حمايتها مما لا يرضي الله سبحانه ورسولهﷺ .

قضية الموالد وأيام الله بين الشريعة والتاريخ والأمل

تفاصيل موضوعية بالغة الأهمية

أولا : من الوجهة العامة :

كل عمل يعود على المجتمع الإسلامي بالخير ، ولا يخالف نصا صريحا في الدين ، ولا معلوما من الدين بالضرورة لا يمنعه الإسلام ، فإن هدف الإسلام هو صالح البشرية أولا وأخيرا ، وحيثما كانت المصلحة فثم شرع الله .

ولما كان الأصل في إقامة الموالد هو الاعتبار بسيرة صاحب المولد ، والانتفاع بذكراه وانتهاز فرصة التجمع للتعارف والتعاون على البر والتقوىٰ والانصراف إلىٰ الله بذكره والتعبد له ، والاستماع إلى الوعظ والقرآن ، وإخراج الصدقات ، وهي نوع من الشكر الجماعي لله تعالىٰ علىٰ تفضله بمن جعل ذكريات موالدهم هذه خيرا على المسلمين في دينهم ودنياهم .

ثم إن هذه التجمعات إنما هي مؤتمرات لتدارس شئون المسلمين محليا وعالميا ، فهي أسواق دينية جامعة لمطالب العقول والقلوب بالإضافة إلىٰ تنشيط الحركة الاقتصادية والاجتماعية والترويحية النظيفة .

لما كان ذلك كذلك ندب الإسلام إلىٰ هذه الخدمات المباركة[1] ولكل منها أدلتها فمثلا : الوعظ مطلوب شرعا ، والقرآن مطلوب شرعا ،

(١) قال السيد الرائد ﷺ : يقول المرحوم الشيخ المبشر الطرازي شيخ الإسلام السابق في تركستان : إن الاحتفال بذكرىٰ المولد النبوي أصبح واجبا أساسيا لمواجهة ما استجد من الاحتفالات الضارة في هذه الأيام .

والذكر مطلوب شرعا، والبذل مطلوب شرعا، والتعارف مطلوب شرعا، وكذلك التلاقي في الله، والتراحم والتعاطف والتهادي والحب.

وإذا كانت أفراد الشيء مطلوب آحادا كان اجتماعها أتم وأنفع وأدخل في المشروعية.

ولم يعرف في تاريخ الإسلام من أنكر على مثل هذه المعاني الصالحة الشاملة، ولو باعتبار أنها عادات مجردة.

فلما دخلت البدع والمناكر إلى هذه الأسواق الربانية النافعة بدأت حركة الإنكار لا على أصل الفكرة، ولكن على ما اندس فيها ومسخها من أقوال وأعمال وعقائد تالفة.

ثانيا: من الوجهة المدنية:

ومن هنا اهتمت الأمم على اختلاف أديانها وعقائدها بإحياء ذكريات أبطالها الدينيين والمدنيين، بل وإحياء ذكريات أيامها الخوالد، لما في ذلك من التربية النفسية والتوجيه، وتركيز المبادئ والمذاهب التي تؤمن بها الأمم.

وقد رأينا الأمم التي يفتقر تاريخها إلى الذكريات والأبطال تخلق لها ذكريات وأبطالا أسطوريين لتشبع الرغبة الفطرية في الاعتزاز بالسلف والقدوة بهم.

فإحياء هذه الذكريات المباركة سنة إنسانية من أصول طبائع الأمم، وضرورة من ضرورات المجتمع للتنفيس، والترويح المحبب، ومناسبة ناجحة من مناسبات الانتعاش الثقافي والتجاري والعلمي والروحي والاجتماعي والنفساني وغيره.

ثالثا: الأحكام الدينية:

أ- ويمكن الاستئناس في الندب إلى الاهتمام بهذه الذكريات، بل استحسانها بقوله تعالى ﴿وَسَلَـٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ﴾[مريم: ١٥].

وفي اختصاص يوم ولادة هذا النبي بالذكر، وطلب السلام فيه على لسان الحق ثم تكرر ذكره على لسان الخلق ﴿وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾[مريم: ٣٣] دلالة عظمى، وتوجيه إلى خصائص الألوهية والربوبية، فكيف إذا كانت ولادة إنسان سبق في العلم القديم أن يكون له في حياة الناس أثر قد يتغير بسببه صورة المجتمع في مادياته ومعنوياته.

وإذا كانت هذه المنزلة ليوم (**الولادة**) فلابد أن يكون ليوم (**الوفاة**) منزلته وخطورته بالتالي، وإذا كان هذا بالنسبة للنبي بوصفه (**داعية الإصلاح الشامل**) فهو كذلك وراثة بالطبع ومشابهة بالضرورة فيمن استن بسنته، وانتهج هديه من عباد الله الصالحين.

ب- ولقد كان رسولنا ﷺ يحيى بشخصه ذكرى مولده في كل أسبوع مرة (**لا في كل عام مرة**) وذلك أنه ﷺ كان يلازم صيام يوم الاثنين، كما ثبت في أكثر من حديث شريف، فسئل في هذا فقال: «**هو يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ وَأُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهِ**»(١).

فكان صومه ﷺ لهذا اليوم شكرا لله، نوعا من إحياء ذكرى مولده،

(١) أخرجه مسلم (٢٨٠٤).

وتوجيها إلى منزلة هذا اليوم، وحثًّا على الاهتمام بشأنه لا شك في ذلك.

جـ- ويؤيد ذلك ما ورد من عدة طرق من أنهﷺ ذبح في آخر حجة له بعدد سنوات عمره من الإبل (١).

ثم إن في اهتمام النبيﷺ بإحياء (**سبوع**) المولود توجيه إلى تقدير يوم الولادة كذلك، وعمل ما يذكر به وما يكون شكر لله عليه، فلولا اليوم الأول ما كان اليوم السابع.

د- يؤخذ من توجيههﷺ إلى صيام يوم عاشوراء، لأن الله أظهر فيه موسى على فرعون، جواز إحياء ذكريات (**أَيَّامِ اللَّه**) بما يرضي الله كما قال تعالى ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم:٥] كما كانﷺ يصوم يوم الاثنين لأنه كان أول أيام نزول الوحي عليه، بالإضافة إلى أنه كان يوم مولده الشريف، فهو يوم من أيام الله، فهذه جميعا نصوص لا ترتقي إليها المعارضة في مشروعية إحياء ذكريات الموالد وأيام الله بما يحب الله ويرضى.

هـ- إرسال سيدنا المصطفىﷺ كان رحمة من الله للعالمين كما صرح به القرآن الكريم، وكان فضلا منه تعالى على الأكوان كلها.

وقد قال تعالى ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس:٥٨] والاحتفال بهذه الذكرى نوع من الفرح برحمة الله وبفضله، فهو مما أمر به الشرع في حدوده وقيوده، فتأمل.

---

(١) قال السيد الرائد رضي الله عنه: ورد أنهﷺ ذبح ثلاثة وستين ناقة في هذا اليوم.

و- وإن الله أمرنا بالشكر على النعمة، وليس أكرم من نعمة بعث هذا النبي العظيمﷺ فشكر هذه النعمة واجب، والاحتفال بذكراهﷺ نوع من الشكر الجماعي مضافا إلى الشكر الفردي.

ز- ذكر الله تعالى كثيرا من أنبيائه، وبعض أوليائه في كتابه الكريم للذكرى والقدوة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾[الأنعام: ٩٠] والاحتفال بالموالد تذكير جماعي وقدوة جماهيرية.

ح- الإسلام دين التجمع والتكتل، فقد دعا إلى صلاة الجماعة والجمعة والعيدين والحج، لما في تجمع المسلمين من منافع علمية وإنسانية واجتماعية وغيرها.

وكان رسول اللهﷺ إذا حزبه أَمْرٌ أَمَرَ بلالا أن ينادي في الناس (**الصَّلاَةَ جَامِعَةٌ**) ليهرعوا إليه بجمع، فيخطبهم فيما استجد من الأحداث. ومعنى هذا استحباب دعوة الناس إلى الاجتماع كلما كان هناك خير يرجى، ولا شك في خيرية هذا الاحتفال بشروطه، وتوفر أسباب كل خير ديني ودنيوي فيه.

ط- والله يقول ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ﴾[آل عمران: ١٠٤] فالدعوة إلى هذا الاحتفال دعوة إلى الخير، فهي هنا فرد كفاية، يقوم به السادة المحتفلون عن بقية الأمة.

ي- واعتراض بعضهم بأن هذا استحداث لعيد جديد غير الفطر والأضحى مغالطة، لاختصاص هذين العيدين بشعائر ومعالم، ليست في هذه الأحفال، فليس في ذكريات الموالد صلوات عيد ولا تكبير، ولا غيره من خصائص الأعياد.

ك- والاعتراض بقوله ﷺ: «**لاَ تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا**»[(١)] يعني لهوا ولعبا مردود، إلا إذا سمينا تلاوة القرآن ومدارسة العلم، وأنواع العبادة وبذل الخيرات، لهوا ولعبا.

وهنا نقرر أنه لا اعتبار لما يفعله الجهلة من أنواع العبث، فهو آفة هذه الأحفال، ولا بد من كفاحه بكل الوسائل، ونحن هنا نتحدث عن المشروع لا عن الممنوع.

فالمشروع تعاون على البر والتقوى.

والممنوع تعاون على الإثم والعدوان، وشتان ما هما.

ل- وبعد فهذه كلها وغيرها كثير من دلائل مشروعية إحياء ذكريات مولد مولانا رسول الله المصطفى ﷺ وموالد أولياء الله الصالحين بما يحب الله لما فيها من المنافع التي لا تحصى ﴿لَّا يَسۡتَوِى ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ [المائدة: ١٠٠].

رابعا: تاريخ الموالد الحالية:

ولا بد من التنبيه إلى الدعوى التي تقول إن هذه الفكرة لم تكن معروفة بصورتها الحالية في زمن الصحابة والتابعين، فليس كل شيء لم يعمله الصحابة يكون حراما، وإلا كانت عيشتنا كلها اليوم حراما في حرام، إذ لم يكن معروفا من حياتنا هذه على عهد الصحابة واحد على مائة، وبخاصة ما كانت العادة فيه أغلب، ونحن في أمور العادة على ما نشاء في الحد المحدود.

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٢٠٤٢).

ولا مرية أبدا في أن أصل الفكرة موجود في الدين كما قدمنا ، ثم تطور هذا الأصل مع الزمان بحكم عدم محدوديته في الشريعة ، فليس هو دينا محضا ، وقد عرفت حكم الدين فيه .

والمشهور أن أول من احتفل بذكرى مولده ﷺ من أهل السنة بما يشبه أن يكون أصلا لهذه الصورة الحاضرة بالفعل هو الملك المظفر أبو سعيد طغرل التركماني ملك إربل بالعراق ، وقد بذل في هذا السبيل ما لم يؤثر عن سواه كما ذكره ابن خلكان ، وأقره على ذلك علماء عصره ، وفي مقدمتهم العالم المحدث الحافظ عمر بن دحية الذي ألف للملك طغرل كتاب التنوير في مولد السراج المنير ، فكافأه عليه ألف دينار وكان يقرأ في احتفالات المولد الشريف .

ثم تابعهم المسلمون جميعا ، وعنهم تناقل المسلمون الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف ، ولكنها صارت بتلاحق العصور وتداول الأمم على صورتها الحالية ، جامعة بين الخير والشر .

وكان الفاطميون أول من توسع من الشيعة في هذا الباب بما لم يسبق له مثيل .

ثم نقل الناس هذه الصورة الشائهة بهيئة مصغرة إلى ذكريات رجال الله وأيام الله ، ومازال الشيطان يدس أنفه فيها ، ويزين للناس حب الشهوات وفعل المنكرات حتى أصبحت الموالد بوضعها الحالي أمراضا اجتماعية ودينية في أخطر الدرجات .

فقد مسخت أكثر المعاني الكريمة التي تلتمس في هذه المناسبات ، واستحالت إلى معانٍ لئيمة مدمرة ، وأصبحت أكثرية الموالد أسواقا للفساد

ومزرعة للميسر، واستغلالا للسذج، وتحول خير ما فيها من الذكر والصدقة والإرشاد إلى ألوان رخيصة من الرياء والتحريف والتخريف، والنفاق والمفاخرة والمكاثرة، والتهريج وإرادة غير الله، وبيع الآخرة بالدنيا، وشراء الدنيا بله الشعوذة والتدجيل والمخرفة.

فإذا أضفنا إلى ذلك ما يسمى (**المواكب**) بمهازلها ومباذلها، وما يسمى (**الركبة**) بعارها وشنارها، وما يسمى (**الجمع والشورة**) ببدعها وشنعها، وما يتخلل ذلك من طبول وزمور ورقص، ومتالف دينية، وكيف يتأثر المجتمع بهذه الأوبئة، وكيف يُصَوَّرُ الدين أمام أعدائه، وأمام الأجانب بهذه الصور المزرية، التي لا تمت إلى الجد ولا إلى التصوف النظيف بأي سبب، إذا أضفنا هذا عرفنا إلى أي حد كان كفاح هذه الموبقات فرضا عينيا على كل غيور على الدين وعلى تصوف المسلمين حتى تعود الموالد إلى صورتها الكريمة النافعة.

خامسا: مواقف علماء الصوفية:

ومنذ ما ظهرت موبقات إدماج اللهو في العبادة باسم التصوف المسكين المظلوم، وعلماء الصوفية وغيرهم على رأي واحد في كفاحها حفاظا على بيضة الدين، وصيانة لسمعة التصوف ورجاله.

والمسلم الصوفي المنصف الذي يطلع على ما جاء مثلا في الزواجر، وما جاء في كف الرعاع، وما جاء في المدخل، وما جاء في كتب الإمام الشعراني، ومن قبله الإمام السيوطي، وغيرهم من سلف علماء الصوفية، يدرك مدى العبث الذي أصاب تجمعات الصوفية، ونقلها من أسواق

روحانية يستروح الناس فيها روائح الجنة، ويستشرفون عبيق الغيب الأسنى، ويشحنون قلوبهم بالطاقات الإيمانية الهائلة إلى ساحات للمخابث ومسارح للشيطان، يعرض فيها كبائره الموبقة باسم الدين والتصوف المظلوم.

سادسا: علماء الصوفية المعاصرون:

ولقد تزعم كفاح هذه الموبقات في العصر الحديث من علماء الصوفية أمثال: الشيخ محمد عبده، وشيخ الإسلام الظواهري، والبشري ومن جاء بعده، ثم الشيخ بخيت، والشيخ السمالوطي والشيخ أبو عِلَّيَّان الصعيدي الشاذلي، والشيخ الحصافي الشاذلي، والشيخ خطاب السبكي، وهو من كبار الصوفية وإن أنكر أتباعه، ثم الشيخ إبراهيم الخليل الشاذلي، ثم الشيخ سلامة العزامي النقشبندي، والشيخ أبو العيون الخلوتي، والشيخ أحمد رضوان البغدادي، والشيخ أبو الوفاء الشرقاوي، والشيخ القاياتي، ومن عاصرهم ممن جمعوا بين العلم والعرفان بالله، ثم العشيرة المحمدية زعيمة هذا العصر، ولا داعي لأن نذكر مع هؤلاء آخرين ممن كافحوا في هذا السبيل من غير المتصوفين.

وإذن فلم يقصر علماء الصوفية فيما أوجبه الله عليهم من النصيحة لله ورسوله، وقد لاقوا في هذا السبيل ما لاقوا، ولا تزال السجلات الرسمية بمجلس الدولة تحتفظ بما لاقيناه في هذا السبيل وغيره، وما لاقاه من قبلي والدي وجدي، مما هو مسجل في محفوظات بيت البكري أيام المشيخة الأولى.

حتى آل أمر كفاح هذه الموبقات إلى العشيرة المحمدية، وفيها طائفة من

خيرة صوفية هذا العصر على اختلاف المشارب، وعلى رغم ما يجدون من المصاعب والمتاعب، يأخذ الله دائما بأيديهم إلى الهدف الشريف، الذي بدأت آثاره واضحة على الصعيد الشعبي والرسمي بحمد الله، وتعتبر اللائحة الصوفية الأخيرة أثرا بيِّنًا من آثار مجهود العشيرة المحمدية ورجالها، وإن أنكر ذلك من أنكر، فإن التاريخ قد سجل هذا الجهد الخالد.

سابعا: تدرج حركة الإصلاح الصوفي:

وفي أول عهد الثورة المباركة أدرك المسئولون خطورة الأمر تحت إلحاح حركة العشيرة المحمدية، فتألفت لجنة لإصلاح التصوف عموما والموالد خصوصا - بوصفها أكبر مظهر جماعي للدعوة الصوفية - برئاسة وكيل وزارة الداخلية وقتئذ السيد محمود متولي نور. ومُثِّلَت في هذه اللجنة وزارة الأوقاف والشئون والأزهر ودار الإفتاء والمشيخة الصوفية، والعشيرة المحمدية، وكان الفضل في هذا (**لله وللتاريخ**) راجعا إلى الأخ المحمدي المرحوم الدكتور إبراهيم حسن مدير مستشفى عين شمس، ونائب العشيرة المحمدية وقتئذ. ولكن هذه اللجنة لم تُفَعَّلْ إلا أنها أدخلت بعض التعديلات على لائحة الطرق الصوفية القديمة التي وضعت في عام ١٩٠٣م، ثم ألحقت بها إحصاء مفصلا لما يتعين كفاحه من المناكر المنسوبة إلى الصوفية زورا وبُهتانا.

وهنا قامت ظروف استوجبت إعادة النظر في هذا التعديل الجديد فتألفت في وزارة الأوقاف لجنة أخرى، كان رئيسها السيد الوزير الشيخ أحمد حسن الباقوري، ومقررها السيد محمود عبد اللطيف وكيل الوزارة

حينئذ ، وكان من أعضائها الأستاذ المشد مدير الوعظ والإرشاد وقتئذ ، وحضر اجتماعاتها لفيف من كبار المشتغلين بالشئون الإسلامية يومئذ ، منهم شيخ الأزهر السابق الشيخ عبد الرحمن تاج ، وآخرون من أفاضل العلماء والصوفية .

وقد وضعت هذه اللجنة قانونا صوفيا مستكملا تقريبا ، وكان أساسا لا بأس به في تطهير الموالد وغيرها من البدع والمنكرات ، ومستكرهات الأمور .

ثم جد ما اقتضى إرجاء الأخذ بهذا القانون أيضا ، فتألفت في وزارة الشئون الاجتماعية لجنة لفحص العادات والتقاليد ، ووضعت توصيات لا بأس بها لتطير الموالد ، ولكن توصياتها لم تأخذ طريق التنفيذ لسبب أو لآخر .

فتألفت في الأزهر لجنة للتنظيم الصوفي ، ووضعت هذه اللجنة أيضا توصيات لا يعرف أحد أين ذهبت ، وكانت العشيرة المحمدية ممثلة في كل هذه اللجان ، بوصفها صاحبة الدعوة الأولى لإصلاح التصوف في هذا العصر ، وكانت تتقدم بمشروعاتها في الإصلاح إلى كل لجنة ، بما يرفع عنها نير المسئولية أمام الله والناس .

ثامنا : القانون الصوفي أو اللائحة :

وكانت حركة التطهير الصوفي ، وبخاصة تطهير الموالد على أشدها بمجهود العشيرة - كما يبدو من الإجمال السابق - في عهد المرحوم الشيخ أحمد الصاوي العمراني شيخ الطرق الأسبق ، فاجتمع المجلس الصوفي وألف لجنة لتعديل اللائحة الصوفية القديمة كخطوة في سبيل الإصلاح برئاسة السيد مرغني الإدريسي ، وأمانة السيد رائد العشيرة ، وأصدر

المجلس تعليمات تواكب حركة الإصلاح والتطهير .

ثم ظلت هذه التعليمات الصريحة تنتظر التنفيذ ، حتى ولي المشيخة المرحوم الشيخ علوان فعزز التعليمات السابقة بتعليمات جديدة ، وألف لجنة وضعت مشروعا للإصلاح من وجهة نظر المشيخة ، وكان الفضل فيه راجعا إلى الأخ المرحوم المستشار مصطفى كمال وصفي ، وقد أرجئ النظر في هذا المشروع كذلك لسبب أو لآخر .

وفي أول عهد الشيخ السطوحي تألفت لجنة جديدة للإصلاح أيضا ، وانتهت إلى مشروع القانون الحالي الذي اعتمدته الدولة وسار العمل على أساسه الآن ، وفيه تحريم كل ما ليس من دين الله ، ولكن وضع القانون شيء والتنفيذ شيء آخر ، والمأمول إن شاء الله أن يكون لتنفيذ هذا القانون يوما ما أثره النافع في الموالد وغيرها من كل ما يتصل بالتصوف الصحيح .

مقترحات بالغة الأهمية

ولقد كان مما اقترحناه في إحياء ذكري المولد النبوي:

١- أن يكون في داخل المساجد بمختلف الأحياء، لتنعم الجماهير بصورة الفرحة والثقافة والقدوة والعبرة وعمل الخير، ولا تنحصر من القاهرة الكبرىٰ في مكان معين، لا تحس به بقية أطراف المدينة، حتىٰ كأن شيئا لم يحدث، وكأن لم يكن ثم احتفال.

٢- وأن تظل الاحتفالات تحت الإشراف المسئول مدة أسبوع كامل، بحيث يستوعب كل الغايات الشريفة المرجوة من إحياء الذكرىٰ ماديا ومعنويا، علىٰ برنامج تفصيلي محدد وملزم بعيدا عن كل ممنوع.

٣- وأن تتعاون كل الجهات والهيئات الدينية والصوفية الشعبية والرسمية جمعاء في انتهاز هذه المناسبة لعقد المؤتمرات الكبرىٰ والندوات الخيرية للخدمات الإسلامية والوطنية بكل صورها وأهدافها الفكرية والعملية لاستعادة الصحوة الإسلامية، وتجميع الأمة داخليا محاولة ترابطها في المشرق والمغرب، وفي مقدمتهم الصوفية.

٤- أن يوضع تخطيط قومي إسلامي من الزكاة والتبرعات والإعانات سنويا لليتامىٰ في ذكرىٰ النبي اليتيم، أو إنشاء مؤسسة قرآنية في ذكرىٰ نبي القرآن، أو مؤسسة للرحمة بالمسنين أو المرضىٰ أو العجزة أو المحتاجين في ذكرىٰ نبي الرحمة، أو نحو ذلك مما يترك أثر عمليا إيجابيا، كلما حلت مناسبة هذه الذكرىٰ العظيمة، خصوصا للطلبة والطالبات.

٥- في ضوء هذه المقترحات تطور بقية ذكريات موالد أولياء الله في كل محافظة بما يتناسب وظروفها، بحيث يشعر الجمهور بما تحصل من فوائد موضوعية، تُثْرِي حياته الفكرية الروحية والواقعية، كطباعة وتلخيص كتب السيرة ونحوها، وتواريخ الأولياء وتوزيعها بالمجان أو بسعر التكلفة.

ولسوف تبقى هذه المقترحات أمانة في عنق كل مسئول في موقع ومستوى، قابلة للتهذيب والتطويع والزيادة، وقد بلغنا وسجلنا والله شهيد.

الاحتفال بالذكريات بوجه عام

فتوى لفضيلة الدكتور موسى لاشين

عميد أصول الدين

معروف أن فضيلة الأستاذ الشيخ موسىٰ لاشين لا يعترف بالتصوف ، ولا يرضىٰ عن سلفه أو خلفه ، فلا يعتبر في فتواه منحازا إلى الصوفية الذين يكثرون من الاحتفالات الدينية وقد سئل فضيلته عن الاحتفال بليلة الإسراء ونحوها فقال :

يرىٰ بعض العلماء أن الاحتفال بغير العيدين بدعة لم تكن في عهد رسول الله ﷺ ولا في عهد الخفاء الراشدين ، وما كان من هذا القبيل باطل ويمنع لأنه زيادة في الدين وتشريع ما ليس بتشريع .

ويرىٰ البعض أن الاحتفال بذكرىٰ المناسبات الدينية كالمولد النبوي والهجرة والإسراء والمعراج أمر مستحسن ، لأنه يحيي في نفوس المسلمين شوقا وحنينا وعبرا إسلامية لم تكن تحيا لولا هذه الاحتفالات ، والفريقان يتفقان على أن إحياء هذه الليالي وغيرها إحياء فرديا بالذكر وقراءة القرآن ودراسة السيرة النبوية العطرة أمر مستحسن مشروع ، فقد كان الصحابة والتابعون يحيي كل منهم ما شاء من الليالي بما شاء من أذكار قد تختلف عما يقوم به الآخر ، وكان بعضهم يصوم من الأيام ما لا يصومه الآخر ، ولا يختلف اثنان في أن التوسعة على العيال والفقراء والمساكين في هذه المناسبات وغيرها أمر مقبول ، إذن فقد انحصر الخلاف في التجمع والاحتفال بالمظهر العام ، وأعتقد أن الأمر في ذلك هين ، لا يتعلق به أمر

أو نَهي ، ولا يحكم على من فعله بأنه أتى حراما أو منكرا ، بل ولا مكروها ، ولا يؤمر من لا يفعله أن يفعله ، ولا من لا يقره أن يقره .

فمن صام هذه الأيام محتسبا ووسع على عياله ، وعلى الفقراء والمساكين وذكر الله بما شاء مخلصا كان له أجره وفضله ، ومن لم يفعل فلا إثم عليه ، والله أعلم . اهـ

ونحن نسجل هذه الفتوى السمحة سائلين الله التوفيق ، وصدق خدمة الإسلام والمسلمين .

ومعروف أيضا أن فضلية الأستاذ النمر وكيل الأزهر ووزير الأوقاف الأسبق ليس صوفيا ، شأنه شأن الأستاذ موسى لاشين بفارق المرونة في الشيخ النمر فلا يتهم بمجاراة الصوفية ، ولا الانحياز لهم وهو يقول :

فتوى لفضيلة الأستاذ الدكتور عبد المنعم النمر وزير الأوقاف الأسبق

أولا : حينما نتحدث عن الاحتفال بمناسبة من المناسبات الدينية أو الوطنية فإننا نهدف إلى التعرف عما وراء هذا من عبر وعظات تفيدنا وتصلح نفوسنا في حياتنا .

وقد تسمعون من بعض الناس أن الاحتفاء والعناية بذكرى من هذه الذكريات بدعة لا يصح أن تكون ، ويحاربون هذه العناية أو يقاطعونها ، ويظنون أن ذلك من الدين ، وأن من يحتفل بِها يكون

غير ملتزم بالدين .

وأحب أن تقولوا لهؤلاء الإخوة الطيبين الذين لا نشك في غيرتِهم الدينية : إن العناية بالمناسبات الدينية والأحداث الوطنية كيوم الاستقلال أو يوم النصر ، أو الأحداث الدينية كيوم بدر ، وفتح مكة ، أو الشخصيات الإسلامية التي لها أثر في المسلمين وأمجادهم العلمية والحربية ، إن هذا وأمثاله هو من الأمور التي تتصل بالعادات ولا تتصل بالعبادات .

ونحن في العبادات ممنوعون من أن ندخل عليها شيئا جديدا غير ما جاءنا عن الله ورسوله ﷺ .

ثانيا : أما العادات فهي أمور تتغير وتتبدل من أمة إلى أمة ، ومن جيل إلى جيل ، ولكل جيل أن يستحدث من الأمور الحسنة ما يراه نافعا له في دينه ودنياه ، ويتخذ من عنايته واحتفاله بهذا الحدث والنصر مثلا ، أو بهذا الشخص العظيم ، وذكر مآثره وخدماته للإسلام والمسلمين يتخذ من هذا درسا للأجيال الجديدة وللناس كافة ليقتدوا به في عظمته ، وفي خدماته لأمته .

فهذه أمور لا صلة لها بالعبادات وإنما هي عادات ، ثم ما يقال فيها هو كله من عبر وعظات تفيد الأحياء وتحملهم على القدوة الحسنة ، فهي دروس تلقى على الناس في مناسباتها ليكون وقعها حسنا في النفوس ، ولكل مقام مقال ، ولكل حدث حديث .

فماذا في هذا من سوء عند الإخوة الطيبين الذين يحملون الدين ما

لا يحتمل ، ويدخلوه في مثل هذه العادات الحسنة ليحكموا باسمه عليها بأنها بدعة سيئة ، ويرفضوها ويثيروا جدلا بينهم وبين غيرهم فيها ، ويضيعوا من الوقت والجهد ما يجب أن يصرفوه فيما هو أنفع لهم وللدين .

ثالثا : هل يكره الإسلام والمسلمون الفاهمون أن نتحدث للناس عن غزوة بدر ، وعن شجاعة المسلمين وتضحياتهم فيها ، ليقتدوا بهم ، هل يكره الإسلام والمسلمون الفاهمون لدينهم أن نتحدث عن فتح مكة ونصر الله للرسول ﷺ ولصحابته على المشركين وعن عفو الرسول وحلمه ، وشكره لربه حين فتح له مكة ، والله سبحانه وتعالى قد تحدث في القرآن الكريم عن هذا الفتح والنصر هل يكره الإسلام أن نستعرض حياة عظمائنا في كل نواحي الحياة بمناسبة مولدهم أو وفاتهم أو الحادث الذي فعلوه ونتحدث عن نواحي عظمتهم ، ليقتدي الشباب والمسلمون عامة بِهم؟

رابعا : لقد أحيا رسول الله ﷺ ذكرى حادث نجاة أخيه موسى من الغرق ، وذلك حين قدم المدينة ووجد اليهود يصومون يوم عاشوراء ، وقالوا له إننا نصومه شكرا لله على نجاة موسى من الغرق ، فقال لهم : ونحن أحق بموسى منكم . فصامه وأمر الناس بصيامه كما جاء في الحديث الصحيح ، وهذا بلا شك يعتبر احتفالا من الرسول ﷺ وسلم بهذه المناسبة الطيبة ، وبالطريقة التي رآها الرسول ﷺ .

فمبدأ الاحتفال بالمناسبات الطيبة وإحياء ذكراها مبدأ مقرر ومبدأ مفيد

في عالمنا الآن، وفرصة نبحث فيها حديث الذكريات لنعلم الناس حسن الاقتداء بالطيبين الذين سبقونا بإحسان، وأدوا للإسلام كبرى الخدمات، فهي دروس وما أحوجنا الآن إلى الدروس التي تقال في مناسباتها فلكل مجال مقال، ولكن حدث حديث .

ومعروف كذلك أن فضيلة الأستاذ الشيخ عطية صقر لا علاقة له بالتصوف، فهو لا يجامل الصوفية بما يكتب، وهو لا يكتب ما يحرم الله أو يعرضه لغضبه تعالى فاسمع له يقول : «**الاحتفال بالمناسبات أمر طيب ومشروع**» .

فتوى لفضيلة الأستاذ الشيخ عطية صقر
عضو مجمع البحوث وعضو مجلس الشعب

أولا : الاحتفال بالذكريات بوجه عام ليس هناك دليل يمنعه، وإنما الممنوع أن تستحدث فيه عبادة ليس لها أصل في الدين، أو أن يكون أسلوب الاحتفال محرما أو يُنتج محرما .

فيكون الاحتفال ممنوعا لا لذاته بل لما يعرض له، وقد صح في مسلم أن النبيﷺ كان يحتفل كل أسبوع بذكرى مولده وذكرى بعثته، وذلك بأسلوب فيه إظهار لعبودية الله والحاجة إليه والإحساس بنعمته وهو الصيام .

وقد جاء الأمر في القرآن لسيدنا موسى عليه السلام بتذكير الناس بأيام الله التي أَهْلَكَ فيها من كذبوا أنبياءهم ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥] .

ولا شك أن تذكير الأحداث الماضية واستخلاص العبر منها بعد مشاهدة آثارها مأمور به في القرآن الكريم، قال تعالى ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الروم:٤٢] وقال ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر:٦- ١٤].

وقال عن قوم لوط: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧- ١٣٨] إلى غير ذلك من النصوص.

ثانيا: والشخصيات العظيمة التي تركت آثارا طيبة في أي ميدان من ميادين الخير كالأنبياء والعلماء والقادة لا مانع أبدا أن نبحث عن جوانب العظمة في تاريخهم، وذلك من أجل التأسي والاعتبار، حيث لم يرد دليل مقبول ينهى عن ذلك، بل إن الأدلة كثيرة، تدل بعمومها على جوازه بل تشجع عليه، فقد قص الله علينا في القرآن الكريم أخبار الرسل وغيرهم، وقال ضمن ما قال في حكمة ذلك ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:١١١].

غير أن ذلك كله مشروط بأن يكون الأسلوب مشروعا، وأن لا تترتب عليه آثار يستنكرها الدين، وإلا كان ممنوعا، والمنع هو لأمرين:

أحدهما: يتصل بالأسلوب وهو حديث: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا**

هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ»(١) .

وثانيهما : يتصل بالآثار وهو القاعدة الشرعية (**الوسيلة إلى الشيء تعطى حكمه**) فكل ما يؤدي إلى الحرام فهو حرام وكذلك قاعدة (**درء المفاسد مقدم على جلب المصالح**) وعلى هذا فليست كل الاحتفالات دائما مشروعة ، وليست كلها دائما ممنوعة .

ثالثا : هذا ، وأنبه إلى وجوب تحري الباحثين والكاتبين الاعتماد على النصوص القوية التي تبنى عليها الأحكام ، وإلى وجوب تحديد المفاهيم عند الجدال والمناقشة ، وإلى عدم التعجل في إصدار الحكم وعدم الجزم بأنه هو وحده الصحيح ما دام هناك خلاف ، وإلى التالي كثيرا في إطلاق اسم البدعة المذمومة على كل جديد ، فليس كل جديد ضلالة ، وقد صح أن عمر رضي الله عنه قال في جمع المسلمين على أُبَيِّ بن كعب في صلاة التراويح : نِعْمَتِ الْبِدْعَةُ هَذِهِ . رواه البخاري(٢) .

وصح أيضا أن النبي ﷺ قال : «**مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شيء**» . رواه مسلم(٣) .

وأعتقد أن انتشار الوعي الديني السليم ومبادرة القادة والمسئولين بالتنفيذ لهما أثر كبير في تصحيح المفاهيم وفي سلامة التطبيق .

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧) عَنْ عَائِشَةَ .

(٢) أخرجه البخاري (٢٠١٠) .

(٣) أخرجه مسلم (١٠١٧/ ٦٩) عَنْ جرير أثناء حديث طويل .

مع ساداتنا الشاذلية

١ - الذكر باسم الصدر (آه)

هذا الاسم من المختلف عليه حتى بين الشاذلية أنفسهم، ولكن السادة الذاكرين به يقولون: إنهم يجدون له عند الإخلاص لذة روحية وحلاوة كبرى، ويحكون أن للذكر به مددا وروحانية وبركة، ولهم على الذكر به أدلة، ولعل أقواها ما كتبه المرحوم الشيخ الظواهري شيخ الأزهر، فقد كان شاذليا من أنصار الذكر بهذا الاسم.

وتبعه كثيرون من أهل العلم والفضل كالعارف بالله الشيخ عمران الشاذلي وغيره، رحم الله الجميع.

وللمعارضين للذكر بهذا الاسم أدلة أخرى منها: أنه لم يذكر في أسماء الله الحسنى أو غيرها من الصحيح، والذكر بالمتفق عليه خير من الذكر بالمختلف فيه، ولهذا لم يذكر به الإمام أبو الحسن الشاذلي نفسه، ولم يعرف الذكر به إلا في العهود الأخيرة منسوبا إلى بعض أشياخ الشاذلية، ومن زعماء هذا القول المرحوم الشيخ على سالم عمار الشاذلي[1] وبعض فروع الشاذلية كالحصافية والحامدية وغيرهم.

فالذين أجازوه أخذوا بالتجربة، والذين منعوه أخذوا بالاحتياط فوقع الأمر بين الرخصة والعزيمة، فمن شاء فعل وله دليله، ومن شاء

---

(١) قال السيد الرائد ﷺ: كان الشيخ المرحوم على سالم عمار من كبار شاذلية الشرقية، وله مؤلفات جيدة عن التصوف، وأبي الحسن الشاذلي ﷺ.

ترك وله دليله، والأعمال بالنيات، ويجب أن يعذر كل طرف أخاه فيما اختاره لنفسه، ولهذا قال شيخنا خليل الله: نحن لا نأمر به ولا ننهى عنه، ونتبرك بهؤلاء وأولئك جميعا.

ولكن يحرم نهائيا فتح هذا الباب وأمثاله لإيقاظ الفتن، فإن هناك ما هو أولى بالمكافحة وصرف الجهد، من المنكر المتفق على ممنوعيته بين جميع المسلمين.

وأولى بنا في هذا الوقت الذي استشرى فيه الفساد الخاص والعام منطوقا ومنظورا ومسموعا بصوره المدمرة أن نتعامل في الأمور الدينية كما يتعامل أتباع المذاهب الأربعة الآن، فمثلا يؤكد الشافعية ضرورة النطق بالبسملة في الصلاة مع رفع اليدين قبل وبعد الركوع، ولا يرى المالكية ذلك، ومع هذا فكل منهم يؤم الآخر أو يأتم به على أصول مذهبه، عن رضا وتفويض أخوي، وحسن ظن، ومسالة عقائدية، كلها حب وعذر وتقدير.

٢- المصافحة والتقبيل:

مصافحة الإخوان ثابتة بالسنة باتفاق جميع طوائف المسلمين، وقد رغب فيها الشرع، وبين أنها من مكفرات الذنوب، ولا خلاف عليها إطلاقا بين أهل العلم، والأحاديث فيها معروفة، فلا داعي لسردها فهي كالمعروف بالضرورة.

أما التقبيل فقد فصلنا حكمه آنفا في أول هذه الكلمة، فارجع إليه ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠].

٣- مسألة المدد:

المدد من الله، والغوث من الله، والفيض والسر من الله، ولا يملك عبد شيئا من ذلك أبدا، ويجب أن يوجه الدعاء إلى الله وحده فيما لا يملكه إلا

هو ﷻ ، ولكن التوسل إلى الله بـما يحب وبمن يحب مستحب .

وطالب المدد إنـما يطلبه من الله متوسلا برسولهﷺ وبالصالحين من عباده ، فإذا أخطأ أسلوب التوسل أو ألفاظه وجب أن ينبه إلى الخطأ برفق وحكمة ومحبة ، فاليقين القلبي هو ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ [الإسراء : ٢٠] .

ولما كان هذا الخطأ شائعا في بعض الأوساط المتصوفة فعلا ، وقد وجب تصحيحه ، فيحرم أن نحكم على الجاهل بأنه يقصد الشرك أو الكفران ، فإن المعتبر في هذا الوقت نيته لا لفظه ، فهو موحد عابد موقن تماما بأن الأمر كله لله .

ونستطيع أن نقول أن طالب المدد يخاطب الروح سواء وجه الطلب إلى الحي أو الميت ، لأن الجسد بتكوينه الطيني والحيواني لا قدر له ولا إدراك فيه ، فالمخاطب في الحي أو الميت هو الروح الباقي الخالد المدرك الموجود ، ونحن نخاطب النبيﷺ مرات في تشهد كل صلاة بالسلام عليه ، سلام الحاضر الشاهد السامع المكشوف عنه ، المدرك لمراد مخاطبه ، الذي يتخلص في الوسيلة به إلى الله في إفاضة المدد والغوث ، ويكون المعنى : يا رسول الله أطلب لي المدد والعون من الله ، أو أتوسل بك إليه تعالى في منحة عون وغوث ومدد ، وحكم التوسل إلى الله بالأشياخ هو حكم التوسل بالنبيﷺ .

٤ - اصطفاء أبناء الشاذلي :

ما من وليّ إلا وقد بالغ بعض أتباعه في حبه ، فحرفوا كثيرا مما أثر عنه ،

وزادوا عليه دون نظر إلى أصول القواعد الشرعية التي لا تقبل التأويل، وربما عذرناهم بفرط الحب للشيخ أو بالجهل بالحكم أو بحسن الظن الذي لا تحده حدود، وعذرهم يستوجب توجيههم بالحب والحكمة إلى الصواب.

فقولهم: إن أبا الحسن اختار أتباعه من اللوح المحفوظ يتعين أن يكون معناه أن الله كشف عن بصيرته، فأشهده السجل الذي اختاره الله وحدد أسماء من ذكروا به، ليكونوا مريدين وأتباعا للشاذلي بمشيئة الحق لا غيره، هذا إذا صح الخبر بالطريق العلمي ولا أظنه صحيحا.

وكذلك ليس معناه أن الله فوض أبا الحسن نيابة عنه ليختار أسماء ويرفض أسماء، فهذا باب خطير جدا في سوء الفهم لدين الله، ولمقامات أهل الله، وهو يفتح أبواب تساؤلات دقيقة جدا، ربما أفضت إلى الشرك أو الكفر والعياذ بالله.

أما العبارة التي جاءت بهذا المعنى في بعض الكتب فهي إما محرفة أو مدسوسة، ويجب أن يكون فهمها محصورا في المعنى الإسلامي العلمي الذي قدمناه إن صحت.

٥- حضور أبي الحسن عند سؤال القبر:

ومن الباب نفسه قولهم: إن أبا الحسن يحضر في القبر عند سؤال المريد من الملكين بعد الموت، كما نسبوا مثل ذلك إلى بعض الأولياء، وإذا صح الخبر - ولا أظن ذلك - فإنه يتعين أن يكون معناه الشرعي أن الله قد استجاب لأبي الحسن دعوته في تخفيف السؤال عن مريديه وإلهامهم

الإجابة في القبر، فكان كأنه حاضر معهم .

فإن الثابت في دين الله أنه لا يحضر سؤال القبر أحد مع المسئول سوىٰ ما جاء من ذكر الشيطان والفتنة ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ [الطور: ٢١] وأما الشفاعة من المسلم لأخيه فلا تكون إلا في يوم القيامة، وحب الولي لا يكون بالافتراء عليه .

ثم لو فرضنا أن عددا من الشاذلية ماتوا في وقت واحد وفي بلاد وأماكن متعددة، فعند من منهم يكون أبو الحسن؟ وكيف يعلم بذلك، وكيف ينتقل بين المشارق والمغارب؟ و. . . و. . .؟ .

ولو جاز لروح أن تحضر عند السؤال لحضر رسول الله ﷺ عند سؤال أهل بيته وصحابته العظام، وليس كذلك، فكيف يخص الله أبا الحسن أو غيره بما لم يخص به الرسول المصطفىٰ ﷺ؟ ﴿سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ﴾ [النور: ١٦] .

وكما قدمنا أن العبارة التي جاءت بهذا المعنىٰ في بعض الكتب إن لم تكن مدسوسة فهي محرفة، ويتعين على المسلم فهمها على الوجه الذي قدمناه .

٦- الطبل والنداء بقطبانية أبي الحسن :

وثالثة الأثافي في هذا الباب قولهم : إن أبا الحسن كان يركب في موكب تدق بين يديه الطبول، وينادي المنادي : من أراد القطب فعليه بأبي الحسن .

وهذا الخبر مخالف للشرع عامة ولآداب الصوفية خاصة، ولكرامة الشاذلي ولمكانته العلمية والروحية بصفة أخص، وأنه من مغالاة الأتباع

كما هي العادة لا شك في ذلك .

والذي نرجحه - إن صح الخبر- أن أبا الحسن في طريقه من الإسكندرية إلى المنصورة للاشتراك في حروب الصليبيين في أواخر العهد الأيوبي ركب كقائد تدق بين يديه طبول الحرب المطلوبة شرعا ، ليجمع من حوله الأتباع وغيرهم لمواجهة العدو الغازي ، حيث يأمر الشرع في مثل هذه الحالة بأن تخرج المرأة من غير إذن زوجها ، والعبد بغير إذن سيده إلى النفير الأعظم والزحف العام ، إذا احتل الأجنبي شبر أرض مسلمة ، وقد احتل لويس التاسع دمياط في طريقه إلى المنصورة .

ثم جاء الكاتبون والقصاصون فشوهوا الخبر ، وجعلوه من باب الترف والغرور ، والجهل بحقيقة هذا الرجل العظيم من كل الوجوه كادعائهم الكاذب على عبد القادر أنه قال : قدمي هذا على عنق كل ولي لله .

٧- وأخيرا :

فأنا خويدم لنعال سادتي الشاذلية الأعلياء وراثة عن أبي وأجدادي من قديم جدا ، فالشاذلية طريقتنا الأصلية العريقة التي نخدمها وإن لم نحرم شرف التبرك بأمداد كثير من الطرق الشرعية ، وإنما أرادت أن أخلص شيخي وإمامي مما يتهم جهلا به ، وما يجعله وأتباعه عرضة للنقد والتجريح من خصوم التصوف ، وهم كثير .

فإذا أنا أجبت على هذه الأخبار ، بهذا الأسلوب العلمي المنطقي الذي قد لا يعجب من لا دراية له بالشريعة ولا بالحقيقة ، ولا بأبي الحسن ، فإنما أريد وجه الله والدار الآخرة ، وأبرأ أمام الله وأمام الناس من تبعة

الرضا بالخطأ وإن عاش عمر إبليس ، وإن آمن به أهل الثقلين .

إن طول عمر الخطأ وتداوله لا ينقله إلى رتبة الصواب أبدا ، بل ينقله إلى مجال الخطيئة الموبقة .

اللهم إني أستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه ، وأستغفرك من كل ما وعدتك به من نفسي ولم أوف لك به ، وأستغفرك من كل عمل أردت به وجهك فخالطني فيه ما ليس لك ، وأستغفرك من كل نعمة أنعمت بها علي ، فاستعنت بها على معصيتك ، وأستغفرك يا عالم الغيب والشهادة من كل ذنب أتيته في ضياء النهار أو سواد الليل ، في ملا أو خلا ، أو سر أو علانية ، يا غفور يا رحيم .

حكم تقبيل الأيدي وغيرها في شرع الله

ما كان بنا من حاجة إلى الكتابة في هذا الباب ، وهو كالملحق بما عرف من الدين بالضرورة ، لولا أن الطائفة الْـمُمْتَحَنَةَ بحسن ظنها بنفسها وبعلمها ، ولجاجتها في سوء الظن بخلق الله وبعلمه لا تزال تجعل من هذه البسائط مثارات للجدل ، ومجالات للتشغيب والمشاحنة ، والتفريق بين الأمة الواحدة بإصرار وعجرفة وتكبر موبق كريه .

إنه لم يعد شيء أضر على هذه الأمة في دينها ودنياها من هذا النفر المغرور المتوقح ، المصر على مثل هذه الأفكار المحنطة ، والدائر حول نفسه كالنحلة فيما يدمر به وحدة الأمة ، ويزهدها في دينها وكيانها ومُثُلِها ومواريثها ، ويشغلها عن الخطر المحيط بها فيخدم خصومها بما لم يكونوا يحلمون به ، علم أم جهل . ولهذا نقدم هذه الخلاصة الموجزة :

أولا : في جواز التقبيل مطلقا :

في جواز التقبيل الخالص لوجه الله بأنواعه كلها سواء كان تقبيل الرأس أو اليدين أو الرجلين أو الركبتين . . . إلخ ، ألف الإمام النووي جزءا خاصا ، وألف الحافظ ابن المقري جزءا خاصا ، وألف الحافظ ابن الأعرابي جزءا ، وألف الحافظ أبو الفضل الغماري جزءا كذلك ، وكلها معروفة لأهل العلم ، وننصح من شاء أن يرجع إليها ليعلم ما لم يكن يعلم ، فإنما هو سنة صحيحة شريفة ثابتة .

ثانيا : في جواز تقبيل الأيدي :

١- أخرج البخاري وأبو داود عَنْ زَارِعٍ قَالَ: لَـمَّا قَدِمْنَا الْـمَدِينَةَ فَجَعَلْنَا نَتَبَادَرُ مِنْ رَوَاحِلِنَا فَنُقَبِّلُ يَدَ النَّبِيِّ ﷺ[١].

٢- وأخرج الطبراني عن كعب بن مالك ﵁: أنه لما نزل عذره أتى النبي ﷺ فأخذ بيده فقبلها[٢].

٣- وأخرج أبو داود عن عَبْدِاللَّه بْنِ عُمَرَ ﵄ قَالَ: فَدَنَوْنَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَبَّلْنَا يَدَهُ[٣].

ثالثا: في تقبيل اليدين والرجلين:

١- أخرج الحاكم في المستدرك وصححه عن بريدة: أن رجلا أتى النبي ﷺ فقبل يده ورجله.

٢- وأخرج النسائي وابن ماجه والترمذي وقال حسن صحيح عن صفوان ﵁ في قصة اليهوديين اللذين سألا النبي ﷺ عن تسع آيات بينات فأجابهما، فَقَبَّلاَ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ. صححه الحاكم أيضا[٤].

٣- وأخرج البخاري في الأدب المفرد بإسناد صحيح: أن عليا ﵁ قبل يد العباس ورجليه[٥].

فليس من خصائص الرسول وحده.

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٢٢٥).
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٩/ ٩٥، رقم ١٨٦).
(٣) أخرجه أبو داود (٥٢٢٣).
(٤) أخرجه الترمذي (٢٧٣٣، ٣١٤٤) وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. والنسائي (٤٠٧٨) وابن ماجه (٣٧٠٥).
(٥) الأدب المفرد (ص ٣٣٩ رقم ٩٧٦).

٤- وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي : في قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾ [المائدة: ١٠١] أن عمر قام إلى النبي ﷺ فقبل رجله .

٥- وأخرج البخاري في الأدب وأحمد وأبو داود وابن الأعرابي في جزئه والبغوي في معجمه : أن وفد عبد قيس لما قدموا المدينة قبلوا يد النبي ﷺ ورجليه .

وقد حسنه ابن عبد البر ، وجوده الحافظ ابن حجر ، وأخرجه كذلك أبو يعلى والطبراني والبيهقي بإسناد جيد .

٦- وأخرج البيهقي في الدلائل عن ابن عمر : أن الرسول ﷺ ألف بين زوج وزوجته ، فأتته المرأة فقبلت رجليه . تأمل . . . المرأة .

رابعا : في جواز تقبيل الرأس والركبتين :

١- في الصارم المسلول لابن تيمية (**تأمل . . . ابن تيمية**) مما أخرجه ابن الأعرابي والبزار : أن رجلا شهد معجزة الشجرة التي جاءت إلى رسول الله ﷺ ثم عادت قال : فقام فقبل رأس الرسول ﷺ ويديه ورجليه .

وفي رواية ابن الأعرابي : استأذن الرجل ، فأذن له الرسول ﷺ فقبل رأسه ورجليه .

وفي هذا الحديث الثابت جواز تقبيل الرأس أيضا بإذن من رسول الله ﷺ فأصبح مندوبا أو مستحبا .

٢- وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن كعب بن مالك قال : لما نزلت توبتي أتيت النبي ﷺ فقبلت يده وركبتيه .

وهنا أيضا مشروعية تقبيل الركبتين .

ولما كان النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ، فهو أب لكل مسلم ، صح تقبيل أيادي الوالدين ورءوسهم وأرجلهم بخاصة اعترافا بفضلهم ، وتقديرا لحقوقهم .

خامسا : النبي يقبل الصحابة ويعانقهم :

١- أخرج الترمذي : أن النبيﷺ قبل زيد بن حارثة ﷺ حين قدم المدينة بعدما عانقه[(١)] .

٢- وأخرج أبو داود والبيهقي في الشعب أن النبيﷺ قبل ابن عمه جعفر بن أبي طالب بين عينيه[(٢)] .

٣- نقل ابن عابد الأنصاري في المجموع : أن النبيﷺ قبل أبا بكر بعد أن عانقه في حضرة علي وغيره .

فيؤخذ من هذا أن معانقة الأخ أخاه وتقبيله إياه عمل من السنة النبوية الشريفة ، وفيها ما فيها من تثبيت المحبة ، وتأكيد الود وحسن اللقاء الذي هو أفضل القِرَى ، وأبلغ التحايا ، وبه تزول الأحقاد ، وتتزايد الأخوة ، ويضاعف الأجر ، وتتم القدوة بالنبيﷺ وأصحابه كما سيأتي .

سادسا : الصحابة وغيرهم يقبلون أيضا :

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٧٣٢) عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قَدِمَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ الْمَدِينَةَ وَرَسُولُ اللهِ في بَيْتِي فَأَتَاهُ فَقَرَعَ الْبَابَ فَقَامَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ عُرْيَانًا يَجُرُّ ثَوْبَهُ وَاللهِ مَا رَأَيْتُهُ عُرْيَانًا قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ فَاعْتَنَقَهُ وَقَبَّلَهُ . وقَالَ هَذَا حَدِيثٌ حسن غريب .

(٢) «شعب الإيمان» (٦/ ٤٧٧) .

١- أخرج الطبراني عن يحيى بن الحارث ﷺ بسند قال الهيثمي : رجاله ثقات ، قال : لقيت واثلة بن الأسقع فقلت : بايعت يدك هذه رسول الله ﷺ؟ قال : نعم . فقلت : أعطني يدك أقبلها ، فأعطانيها وقبلتها[(١)] . يعني التماسا للبركة ، وهو عام في تقبيل أيدي الصالحين والعلماء كما رأيت .

٢- نقل الحافظ ابن حجر في الإصابة وغيره عن الشعبي ﷺ : أن زيد بن ثابت ﷺ قبل يد ابن عباس ﷺ لما أخذ ابن عباس بركابه ، وقال زيد : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا . يعني تقديرا للجمع بين الشرف والصلاح .

٣- نقل الشيخ الأنصاري أن مسلم بن الحجاج قبل بين عيني البخاري ، وحاول تقبيل رجله[(٢)] . يعني تقديرا للعلم والفضل والصلاح .

٤- ونقل الطبري في الرياض عن أبي رجاء العطاردي : أنه دخل المدينة فرأى عمر يقبل رأس أبي بكر في مجمع من الناس فرحا بنجاح حرب الردة .

ويؤخذ من هذه النقول ونحوها أن الصحابة كانوا يتبادلون تقبيل أيدي بعضهم بعضا ، وأنهم أمروا بذلك كما قال زيد بن ثابت تبركا وتقديرا للعلم والدعوة ، والشرف النبوي ، وتدريبا على التواضع ، ونسيان النفس ، أي لوجه الله تعالى .

وكانوا كذلك يقبل بعضهم رءوس بعض كما رأيت .

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٢/ ٩٤ ، رقم ٢٢٦) .

(٢) أورده النووي في «تهذيب الأسماء» (١/ ٨٨) .

وقد أخرج ابن الأعرابي وابن المقري في جزءيهما وعبد الرزاق في المصنف والخرائطي في المكارم وأخرجه البيهقي وابن عساكر ، بإسناد على شرط مسلم ، وله إسناد على شرط الشيخين : أن أبا عبيدة قبل يد عمر عند عودته من الشام ، فكان تميم بن سلمة يعتبر تقبيل يد أهل الفضل سنة ، فاعتبروا يا أولي الألباب .

سابعا : التقبيل لأيدي الوالدين والأولاد :

١- أخرج أبو داود أن النبيﷺ قبل بطن الحسن بن علي .

كما ثبت أنه كان يقبله ويقبل الحسين رضي الله عنهما ، وكان يقبل ابنته فاطمة ، ويعيب من لا يفعل ذلك .

٢- وأخرج أبو داود : أن أبا بكر قبل ابنته عائشة حين وجدها محمومة[١] . فليس التقبيل فقط للبنين .

٣- وأخرج أبو داود : أن فَاطِمَةَ كانت إذا دَخَلَ عَلَيْهَا النبيﷺ قَامَتْ فَأَخَذَتْ بِيَدِهِ تقبلها[٢] .

أي اعترافا بفضل الأبوة وحق البنوة .

ويؤخذ من هذه النقول ونحوها أن تبادل التقبيل بين الآباء والأبناء

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٢٢٢) عَنِ الْبَرَاءِ قَالَ دَخَلْتُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ أَوَّلَ مَا قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَإِذَا عَائِشَةُ ابْنَتُهُ مُضْطَجِعَةٌ قَدْ أَصَابَتْهَا حُمَّى فَأَتَاهَا أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ لَهَا كَيْفَ أَنْتِ يَا بُنَيَّةُ ؟ وَقَبَّلَ خَدَّهَا .

(٢) أخرجه أبو داود (٥٢١٧) والترمذي (٣٨٧٢) عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ عن : مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَشْبَهَ سَمْتًا وَهَدْيًا وَدَلًّا بِرَسُولِ اللَّه مِنْ فَاطِمَةَ كَرَّمَ اللَّه وَجْهَهَا كَانَتْ إِذَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ قَامَ إِلَيْهَا فَأَخَذَ بِيَدِهَا وَقَبَّلَهَا وَأَجْلَسَهَا فِي مَجْلِسِهِ وَكَانَ إِذا دَخَلَ عَلَيْهَا قَامَتْ إِلَيْهِ فَأَخَذَتْ بِيَدِهِ فَقَبَّلَتْهُ وَأَجْلَسَتْهُ فِي مَجْلِسِهَا .

من السنة الشريفة كل بما هو أهله للحكمة التي تستوجبه ، مما يضاعف المحبة والرحمة والمودة في الأسرة .

وفي الحديث الثابت : أن رجلا حدث في مجلس النبيﷺ أنه لا يقبل أولاده ، فقالﷺ : «**أَوَأَمْلِكُ أن كان الله قد نَزَعَ من قلوبكم الرَّحْمَةَ**»[١] .

وقصة الرجل الذي عزله عمر من الولاية ، لأنه استنكر أن يقبل عمر أبناءه ، قصة مشهورة .

ثامنا : أنواع أخرى من التقبيل :

١- أخرج البخاري وأحمد : أن أبا بكر قبل وجه سيدنا رسول اللهﷺ بعد وفاته[٢] .

٢- وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه ، ونسب إلى البخاري أيضا : أن النبيﷺ قبل سيدنا عثمان بن مظعون بعد موته[٣] .

٣- وأخرج ابن الأعرابي عن جابر : أنه استشهد أبوه في أُحُدٍ فكشف عن وجهه وقبله .

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٨) عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ فَقَالَ : تُقَبِّلُونَ الصِّبْيَانَ فَمَا نُقَبِّلُهُمْ . فَقَالَ النَّبِيُّ : «**أَوَأَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ** .

(٢) أخرجه البخاري (١٢٤١) عن عَائِشَةَ قَالَتْ أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ . . . فَتَيَمَّمَ النَّبِيَّ وَهُوَ مُسَجًّى بِبُرْدِ حِبَرَةٍ ، فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ ، ثُمَّ أَكَبَّ عَلَيْهِ فَقَبَّلَهُ ثُمَّ بَكَىٰ .

(٣) أخرجه أبو داود (٣١٦٣) والترمذي (٩٨٩) وقال حسن صحيح . وابن ماجه (١٤٥٦) وأحمد (٦/ ٥٦) بلفظ : عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِﷺ يُقَبِّلُ عُثْمَانَ بْنَ مَظْعُونٍ وَهُوَ مَيِّتٌ حَتَّىٰ رَأَيْتُ الدُّمُوعَ تَسِيلُ .

تاسعا : كلمة خاتمة :

١- هكذا رأيت أن كل الآثار الثابتة أجمعت على أنه لا اعتراض قط على تقبيل أيدي الوالدين لحقهم، وأيدي الشيوخ لبركتهم، وأيدي العلماء لكرامتهم، وأيدي الصالحين لصلاحهم، ويلحق بأولئك الحاكم العادل اعترافا بفضله - وهذا نادر جدا - كما قدمنا .

٢- وأما أن يكون التقبيل من نفاق لذي مال، أو تملق لذي سلطان أو جاه، أو تذلل من أجل مصلحة، أو استدراج وتماكر لغرض هابط أو نحو ذلك، فهو السجدة الصغرى، وهو ممنوع حرام غليظ الحرمة، لما فيه من إهدار الإنسانية، والعبث بالقيم الرفيعة، واللعب بالدين، والخلط الفاسد بين الطيب والخبيث .

وقد يستثنى من ذلك موقف دفع الضرر المتيقن، فيكون ملحقا بحكم الاضطرار ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:١٧٣] .

أما رجل يحب أن يقبل الناس يديه فقد سقط من عين الله، وعين الناس، فإنما تُقبَّل أيدي الصالحين وهم كارهون يستغفرون، ويخافون سوء العاقبة .

عاشرا : حكمة تبادل التقبيل عند الصوفية :

في تبادل الصوفية تقبيل أيديهم أو رءوسهم أو أكتافهم تربية للنفس على التواضع، وتحقيق لحسن الظن، يتبرك منهم الكبير بالصغير، والعكس، وإذابة للفوارق الفانية، وحظوظ النفس الأمارة، وقتل للكبر الكامن في الباطن، وتأكيد لمزيد من المحبة والود، والارتباط الروحي بين

الجماعة، وإحياء للسنة النبوية الشريفة. كما رأيت.

فإذا تعانقوا في الله كان لهم من الفضل والأجر بمقدار ما يحمله كل منهم من إخلاص وصدق ووفاء، وبهذا يضربون للناس أمثال الأدب العالي، والخلق الرفيع.

وفيما عدا هذا فهم أعز الناس على الله وعلى الناس، وعلى أنفسهم، والعزة شيء غير الكبر، وغير الحمية الجاهلية، فإنما هم يتمثلون قوله تعالى ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[الأحزاب: ٢١].

ويقول الشاعر:

يـــــد قبلتهـــــا لله   نـلت الـشكر والأجـرا
فـــإن قبلتهـــا للنـــاس   فهي السجدة الـصغرى

حادي عشر: أحاديث المنع من التقبيل:

١- روى الترمذي: قيل يا رَسُولَ الله أَيَنْحَنِي الرجل لأخيه؟ قَالَ: «لَا». قَالَ: أَفَيَلْتَزِمُهُ - يعانقه - وَيُقَبِّلُهُ؟ قَالَ: «لَا». قَالَ: أَفَيَأْخُذُ بِيَدِهِ وَيُصَافِحُهُ؟ قَالَ: «نَعَمْ»(١).

وهو حديث ضعفه أحمد والبيهقي كما نقله العراقي في المغني، وفي سنده حنظله، قال فيه أحمد والنسائي وابن معين: ضعيف. وزاد أحمد: إنه يروي مناكير فلا يعمل بحديثه. فسقط هذا الحديث.

(١) أخرجه الترمذي (٢٧٢٨) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وقال: حديث حسن.

أما حديث الطبراني وأبي يعلى وابن عدي : أن النبي ﷺ جذب يده أراد تقبيلها . ونهى عن ذلك فمكذوب ، وهذا الحديث نقله ابن الجوزي في الموضوعات فلا يؤخذ به .

وعلى فرض صحة هذين الحديثين فهما محمولان على التقبيل لغرض هابط أو للتعظيم والتقديس لا للمحبة والاحترام والتبرك .

ثم هي لا تعارض أحاديث مشروعية التقبيل ، وقد كادت تصل إلى حد التواتر ، وهي لا تناهض هذا القدر الكبير من صحاح الأحاديث وحسانها ، والاحتجاج بالحديثين ساقط مرفوض عند أهل العلم ، والاعتصام به تشغيب وفساد .

مشروعية اتخاذ السبحة

كان رسول الله ﷺ يعقد الذكر ويعده بأنامله على الطريقة التي كانت شائعة في العرب أيامئذ، ولكنه لم يكن يمنع عد الذكر بالأداة التي تيسر ذلك، فإن العد بالأنامل منه ﷺ لم يكن ليشغل قلبه عن سر الذكر، وليس كذلك غيره.

وقد أخرج الترمذي والحاكم والطبراني عن أم المؤمنين صفية رضي الله عنها قالت: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ الله ﷺ وَبَيْنَ يديَّ أَرْبَعَةُ آلاَفِ نَوَاةٍ أُسَبِّحُ بِهِنَّ (١).

وروى أبو داود والترمذي عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ دَخَلَ عَلى امْرَأَةٍ - لعلها أم المؤمنين صفية بنت حيي - وَبَيْنَ يَدَيْهَا نَوًى أَوْ حَصًى تُسَبِّحُ بِهِ (٢).

وأخرج ابن سعد عن أبي هريرة: أنه كان يسبح بالنوى المجزع. أي ما فيه سواد وبياض.

وكذلك أخرج ابن أبي شيبة عن أبي سعيد الخدري: أنه كان يسبح بالحصى.

وكذلك صح أنه كان لأبي هريرة أيضا خيط فيه ألفا عقدة، فلا ينام حتى يسبح به (٣).

وصح أنه كان لفاطمة بنت الحسين خيط معقود تسبح به. وكذلك

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٥٤) وقال: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، والحاكم في المستدرك (١/ ٧٣٢) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه.
(٢) أخرجه أبو داود (١٥٠٠) والترمذي (٣٥٦٨) وقال: حَدِيثٌ حسن غَرِيبٌ.
(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٣٨٣).

كان لسعد بن أبي وقاص وأبي صفية مولى النبيﷺ وأبي الدرداء أكياس من النوى يسبحون بها[١].

والآثار في هذا الجانب كثيرة جمعها الإمام السيوطي في رسالة سماها المنحة ضمن كتابه الحاوي.

ومن مجموع هذه الآثار نجد أصل اتخاذ السبحة قائم في الإسلام لإحصاء الذكر، وإنما تطور النوى والحصى، وتطورت العقد في الخيط إلى حبات مثقوبة على صورة العقد يجمعها خيط، يحملها العابد فتذكره بربه وبورده، كما جاء في (**مسند الفردوس**) للديلمي عن علي مرفوعا: نعم المذكر السبحة.

وذكر ابن خلكان عن أبي القاسم الجنيد أنه سئل عن السبحة، فقال: طريق وصلت به إلى ربي فلا أفارقه.

وسئل فيها الحسن البصري فقال: أحب أن أذكر الله بقلبي ويدي ولساني وكلي.

وكان كذلك السري السقطي ومعروف الكرخي، وبشر الحافي ومن والاهم، بلا نظر إلى لَغَطِ المصابين بحب مخالفة أهل الله.

قال السيوطي: وقد اتخذ السبحة سادات يشار إليهم ويؤخذ عنهم، ويعتمد عليهم، فلو لم يكن في اتخاذها غير موافقة هؤلاء السادة، والدخول في سلكهم لكفى.

وقد قيل لبعضهم: أتعد على الله؟ قال: لا، ولكني أعد له.

---

(١) راجع هذه الآثار والكلام عنها في «نيل الأوطار» (٢/ ٣٥٨ - ٣٥٩).

وأما القول بأن السبحة منقولة عن الأديان أو الأوطان الأخرىٰ، فغير صحيح، بعد ما قدمنا من نشوئها وتطورها في الوسط الإسلامي، فإن اتفق وجه شبه بين هذا وهذا فليس معناه النقل والتقليد، ولكنه نوع من توارد الخواطر والأفكار، علما بأنه ليس كل نقل أو تقليد حرام.

ولو اتخذ السبحة من نوع جيد بنية تعظيم الذكر والمذكور سبحانه كان لا بأس به ولا حرج عليه، فإن اتخذها من نوع غال بنية المفاخرة والشهرة ولفت النظر كانت حراما، واتخاذ المسبحة الكاملة أفضل من اتخاذ الثلث قولا واحد.

كما يحرم اتخاذ السبحة للهو واللعب والمفاخرة ومجرد إشغال اليد لأنها أداة عبادة، كما يحرم العد عليها من غير ذكر لأنه تشبه كاذب وعبث. كما أفتىٰ بذلك الإمام ابن الحاج رضي الله عنه.

وقد أفتى الشيخ العُدْوي بعدم اتخاذ السبح الكبار اللافتة للأنظار ووضعها في العنق أو نحو ذلك، نقول: لما في ذلك من طلب الشهرة والرياء وحب زعم الولاية واستغلال السُّذَّجِ، واستغفال العامة، والله الموفق للصواب.

هذا وقد رأيت بعيني رأسي - والله شهيد - أن بعض كبار الذين كانوا ينكرون حمل المسبحة، وقد أصبح يلازم حمل أنواع مما يسمىٰ **(الثلث)** يعبث به هكذا وهكذا.

وقد أكد مشايخنا رضي الله عنهم علىٰ ألا يظهر المريد مسبحته إلا في داره، أو بين إخوانه في الله، أو في المسجد، حتىٰ لا تداخله شبهة الرياء أو نحوها، وأن يجعل يده مع مسبحته في جيبه إن شاء أن يعد بِها وهو بين الناس.

حكمة الله في تعدد الطرق الشرعية إليه

الاختلاف بين الطرق الصوفية الشرعية ليس اختلافا في الحقيقة والهدف، وإنما الاختلاف هو في الوسيلة والأساليب والمناهج ليس إلا.

فالطرق الصوفية الشرعية على تعددها سبل تعددت إلى الله، لتلائم حاجات كل سالك إليه، فيجد فيها كل مريد ما يناسب طاقته ووقته، ومزاجه وبيئته، قطعا لأعذار القاعدين عن الهجرة إلى الله ﷻ، فليس كل الناس سواء في الطاقة والمزاج، وإذن فتأمل بإمعان قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩].

إذن فهناك سبل شتى توصل إليه تعالى كما قال تعالى ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة:١٦].

وهذه السبل المتعددة القويمة تمضي متوازية متحاذية في اتجاه واحد فكأنها طريق واحد، ولذلك جاءت في أكثر من آية بلفظ المفرد نحو (**سبيلي، وسبيله، أو سبيل ربك**) لاتحاد البداية والنهاية، فهي مجتمعة صراط الله المستقيم الواحد المتبع، أي أقرب مسافة بين العبد وربه.

وذلك أن الطرق الشرعية جميعا تبدأ من التوبة، وتنتهي بالمعرفة، فإذا فرضنا (**دائرة ذات مركز**) كانت كل الطرق الشرعية خطوطا داخلية تصل ما بين محيط الدائرة ونقطة المركز، وكيفما كان اتجاه نقطة البداية فلا خلاف في النهاية ولا في الأصول العامة ولكن في فروع كيفية الوصول.

وبهذا يندفع اعتراض الباحثين عن المشكلات، المفرقين بين الجماعات،

والمحتجين بقوله تعالى ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فالمنهي عنه سبل الشيطان والكفران، التي تتقطع وتتعارض مع سبل الرحمن، وأما سبل الرحمن فالله ذكرها كما فصلنا، ووعد المجاهدين فيه بهدايتهم إليها قال تعالى ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] وسماها تعالى ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٦] واعتز بها الأنبياء فقالوا ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢] فكلها متوازية متحاذية، وكلها شرائح يتكون منها **(سبيله)** تعالى، فهي وإن تعددت سبيل واحد للاتحاد في البداية والنهاية، والنية والهدف الأعظم.

إن الحق واحد لا يتعدد، ولكن السبل تتعدد في إدراكه، أو الوصول إليه، فلو تصورنا مصباحا معلقا، فقد تصورنا أن النظر إليه، وإدراك وجوده ممكن من الجهات الست وما بينها، وهكذا تعددت سبل رؤية المصباح، وهو واحد مستقر في مكانه غير مكرر، وهذا هو شأن الناظرين إلى الشمس والقمر في كافة أقطار الدنيا، يختلف موقع الطالب ويتعدد ولا يختلف المطلوب المحدد.

وفي ذهابك إلى الكعبة مثلا تستطيع الوصول بالطائرة أو الباخرة أو السيارة أو ركوب الدواب أو المشي على الأقدام، وكلها سبل توصل إلى الحقيقة الواحدة التي لا تتعدد.

وفي موقف المسلمين حول الكعبة في الصلاة تختلف الاتجاهات اختلافا تاما، ولكنها جميعا تلتقي في نقطة المركز الواحد، الذي ترمز إليه بناية الكعبة الشريفة الموحدة.

وفي صلاة الوتر مثلا تستطيع أن تصلي ركعة واحدة أو ثلاثا أو خمسا أو أكثر، وكلها سبل موصلة صحيحة، فالصلاة واحدة ووسائل الأداء متعددة إلى الغاية الواحدة المتوحدة.

أما ما أشار إليه حديث: خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّه خَطًّا، وخط عن أيمانه وشمائله خطوطا، وقالﷺ «**هَذَا سَبِيلُ اللَّه، وهَذِهِ سُبُلٌ عَلَىٰ كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**». ثُمَّ قَرَأَ ﴿**وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا**﴾[الأنعام:١٥٣](١).

فإن فهم هذا الحديث محكوم بفهم كل ما يتعلق به مما قد فصلناه وبيناه هنا، فلا تعارض بين القرآن والقرآن، ولا بين السنة والقرآن.

إن رسول اللهﷺ خط الخط المستقيم، وخط عن يمينه وشماله خطوطا (**متعارضة أو متقاطعة**) معه فلا هي محاذية له، ولا متوازية معه بل هي مخالفة عنه، والفرق هائل جدا بين هذا وبين سبل الله المتوازية المتحاذية المتوحدة البداية والنهاية، فلا تقاطع فيها ولا تعارض.

ألا ترى الشارع الواحد أو الطريق الواحد وقد قسم إلى (**حارات أو مسارات**) تتعاون في الخدمة ولا تختلف؟ (**ولله المثل الأعلى**).

ألا ترى إلى كابل الكهرباء أو التليفون، وقد جمع آلاف الأسلاك والحبال متناسقة جميعا في أنبوب أو ماسورة واحدة، كذلك شأن سبيل الله وتعدد الطرق إليه.

أما ما عسى أن يصيب هذه الطرق من أمراض المبتدعات والمناكر والمحرمات فأمر طارئ دخيل أو مدسوس لا يغير من نقاء الخامة

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٣٥) عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ.

الأصلية ، وحكمها الشرعي معروف .

توجيه حديث افتراق الأمة

بقى الكلام على الحديث الذي لا يزال يلغط به بعضهم ، ابتغاء تطبيقه على الجماعات الصوفية افتئاتا على الله ، أو جهلا بالمراد وللحديث ألفاظ مختلفة منها : افترق اليهود والنصارى إلى كذا فرقة ، وستفترق أمتي إلى كذا فرقة كلهم في النار إلا ما عليه أنا وأصحابي .

وقد تكلم المحدثون في سند هذا الحديث ومتنه ، وأعلوه تماما فلم يصل عندهم إلى رتبة الصحة التي يسوغ معها الاحتجاج العلمي القاطع به ، ومع هذا فلا يزال يجترونه اجترارا عَدْوًا بغير علم ، وتقليدا ببغاويا للتعصب السلفي المقيت الكريه .

ونحن - على تقدير صحته - قد بينا لك من نصوص القرآن ، ثم من المسلمات البديهية أن تعدد السبل إلى المقصود الواحد أمر طبيعي وشرعي ، فلا ينسحب عليه حكم **(تعدد الفرق)** لأنه الذي يطلق عليها تجاوزا أو مجازا اسم **(الفرق)** الآن في الإسلام كلها دائر في فلك الكتاب والسنة ، فهي على ما كان عليه رسول الله ﷺ هو وأصحابه ، فهي مذاهب أو مشارب أو سبل تبتدئ من الشهادتين ، وتنتهي عند حقهما وأثرهما .

فالسادة المالكية ، والأحناف ، والشافعية ، والحنابلة ، والزيدية ، والظاهرية ، والإباضية ، والإمامية ، والهادوية ، والصوفية ، والسلفية ،

والأشعرية، والماتريدية، والمعتزلة المعتدلين كل هؤلاء وأمثالهم يسيرون في طريق واحد على أساليب مختلفة من الفهم والاستنباط والمقارنة والبحث، هذه الأساليب هي السبل الشرعية التي هداهم الله إليها بقوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩] والتي سماها تعالى ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة:١٦] كما جاء على لسان الأنبياء في القرآن قولهم ﴿وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم:١٢].

ويلحق بهؤلاء جميعا سائر الهيئات والجماعات والجمعيات الإسلامية السليمة المنتشرة في بقاع الأرض، وهي ألوف لا تحصى.

وإنما ينطبق الحديث - على فرض صحته- على غلاة الخوارج، والباطنية، والقرامطة، والبهائية، والقاديانية، ونحو هؤلاء من الفرق التي ذكرها أصحاب كتب الملل والنحل ممن خالفوا الأصول عمدا، وأنكروا المعلوم من الدين بالضرورة، وليس في طوائف الصوفية خاصة وبقية الطوائف الإسلامية عامة من خالف الأصول عمدا، أو أنكر المعروف من الدين بالضرورة، وإن تطرف أو تغالٍ.

ربما كان فيهم المقصرون، أو المنحرفون، أو العصاة، وهذا لا يحرمهم من الدين، ولا يسحب عليهم حكم الفرق الكافرة، فبعض الفرق أشد غلوا وانحرافا وتطرفا وانجرافا، ومع هذا فهي مسلمة، فالمعصية شيء، والردة شيء آخر.

فتوى شيخ الأزهر:

الحق عن هذا الحديث، فأجاب بما نصه:

الأحاديث الواردة في افتراق الأمة على ثلاث وسبعين فرقة اختلف العلماء في ثبوتها وعدم ثبوتها كلا أو بعضا، كما اختلفوا في حقيقة العدد، هل هو لمجرد التكثير، أو أن العدد هنا لا حقيقة له أو لا مفهوم له، ويجوز أن تزيد الفرق عليه، وإن لم يجز النقص، أو أن القصد أصول الفرق دون فروعها.

ومن العلماء من تكلفوا حصر العدد في فرق خاصة، ومع هذا لم يتفقوا على الفرق التي يستغرقون بها هذا العدد.

ومن صيغ هذا الحديث ما جاء في سنن ابن ماجه في باب افتراق الأمم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**تَفَرَّقَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ إِحْدَىٰ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً**»(١).

وبإسناد آخر عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ إِحْدَىٰ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً فَإِحْدَىٰ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ**». قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ هُمْ؟ قَالَ: «**الْجَمَاعَةُ**»(٢).

وهناك روايات في سنن أبي داود والحاكم والبيهقي، وقد تكلم علماء

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤٠) وقال: حَسَنٌ صَحِيحٌ. وابن ماجه (٣٩٩١).
(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٩٩٢).

الحديث في أسانيدها ، وبيان هذه الفرق قد واجهه العلماء في مؤلفات خاصة ، وكل ما يجب على المسلم اعتقاده والعمل به التمسك بالدين عقيدة وشريعة ، والبعد عن الأهواء والبدع وزيغ العقيدة وتأييد شريعة الإسلام ، وإباحة ما أباحه الله ورسوله ، وتحريم ما حرم الله ورسوله ، فمن كان من هذا الفريق كان من جملة الفرق الناجية إن ختم الله له بها صوفيا كان أو غير صوفي ، اللهم ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ آمين . والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى .

من هم أهل السنة؟

أهل السنة هم كل أهل القبلة

فرق كبير بين أهل السنة وأهل اللحية

هذا سؤال وجه إليَّ عدة مرات، وأحسست مع تكرار السؤال بخطورة سوء الفهم الذي أشاعته الطائفية المقيتة حوله أو حولنا، فكان لابد من لمسة عاجلة نسجل فيها مفهوم أهل العلم وجمهور المسلمين في هذا الموضوع، رغم ما أعرف من شدة حساسيته، وما يمكن أن يكون من ورائه.

والسنة في اصطلاح علماء الدين هي قول النبيﷺ أو عمله أو إقراره فهي شعب ثلاث، من عمل بإحداها - ولو مرة واحدة من عمره - أصبح من أهل السنة، هذا هو مقرر علم الأصول.

ومعنى هذا كل من آمن بصاحب السنةﷺ فهو من أهل السنة، وإن قصر في التنفيذ والالتزام، فكل مسلم هو من أهل السنة بقدر ما التزم وأدى، فليست المفاضلة إلا في محاولة تحصيل الأجر بمحاولة المحافظة على ما يتيسر لكل إنسان من العلم والتطبيق.

أما تخصيص النسبة إلى السنة بنفر معين ممن وفقهم الله إلى إعفاء اللحى فهو إطلاق عامي، أو اصطلاح طائفي مبتدع لا علاقة له بأصول علوم الدين على الإطلاق ولا حتى بهوامش علم المجتمع، وإنما هو من خصائص علم النفس العلاجي.

ثم كيف يتخذ هذا المظهر بالذات مؤشرا خاصا على اتباع السنة ، ونحن نرى أكثرية كاثرة من الفلاسفة المنحرفين ، وكذلك ممن يسمونهم الفنانين ، على اختلاف لون الفن وصورته وحقيقته السوية والغوية ، ثم من يسمونهم الهيبز ، ومن يسمونهم الخنافس ، ثم أصحاب ديانات السيخ والهندوك والبراهما واللاما والبوذيين ، وكذلك مئات من ملايين البدو التي لم تصلها دعوة الدين في أفريقيا وإستراليا والشرق الأقصى وغيره ، كل أولئك يعفون لحاهم ، وقد يهتمون بتصفيفها وترجيلها أضعاف ما كان يعمله اليونان والرومان فهل يقال إن هؤلاء هم أهل السنة؟

كما أن جميع رجال الأديان والمذاهب المسيحية واليهودية يرخون اللحى ، فكيف يكون إعفاء اللحى بعد كل هذا علامة مميزة للمسلم؟ بل للمسلم من أهل السنة بخصوصه؟

ما من شك أبدا في أن إعفاء اللحى سنة نبوية لا خلاف عليها قولا وعملا وإقرارا ، والموفق إلى إعفائها اليوم بطل جدير حقا بالتقدير والتوقير ، وحساب نيته على الله ، ولكن ليس معنى هذا أن الذي لم يوفق إلى إعفائها قد شطب اسمه من ديوان الإسلام ، حتى تكون السنة كل السنة هي مجرد إعفاء اللحية ، وإن اختفى من ورائها إبليس .

في الحديث الثابت بألفاظ مختلفة وروايات متعددة : أن رجلا سأل رسول الله ﷺ عما يجب الارتباط به من أمر الدين بعد الشهادتين ، فذكر له الرسول ﷺ الصلوات الخمس ، وصيام رمضان ، وإخراج الزكاة إلا أن يتطوع – أي أنه مخير في أن يأتي بالسنن بعد الإتيان بهذه الفروض – فانطلق

الرجل وهو يقول والله لا أزيد عليها ، فكان التعقيب النبوي السمح على ذلك قولهﷺ أفلح الرويجل أو قال : من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا الرجل ، أو أفلح إن صدق على ما ذكرته الروايات .

فهل هذا الذي أقسم لرسول اللهﷺ أنه لن يزيد شيئا من السنن على ما فرض الله لا يعتبر من أهل السنة؟ مع أنه صرح بأنه لن يزيد شيئا عن الفرض من السنن التعبدية ، فكيف بالسنن غير التعبدية؟

إن الإيمان بالسنة شيء والتقصير في عملها شيء آخر ، هذا هو منطق العلم الحاسم ، إن التزام المسلم بالسنن التعبدية – وهي شتى متكاثرة – أجدى عليه من الظهور بسنة ليست شرطا في صحة الدين ، ولا في صحة العبادة ، ولا شرطا في صحة الخُلق ، ولا في صحة الحياء ، ولا في صحة العلم كإعفاء اللحية ونحوها .

إن إعفاء اللحية من سنن الفطرة كما ذكرها الرسولﷺ دون مفاضلة ، ومن سنن الفطرة قص الأظافر ونتف الإبط ، وحلق العانة ، فمن قال إنها من سنن العبادة خالف رسول اللهﷺ .

ثم إن صاحب اللحية ما لم يعصمه الله قد يدخل بها في متاهات من معاصي القلوب ، والاستشراف على مهاوى الرياء وتزكية النفس ، واحتقار الناس ، وتربية الغل في قلبه لبقية المسلمين غير الملتحين ، مما لا نزال نعاني منه ألعن المعاناة في شأن الدنيا والدين حتى كأن الدين هو إعفاء اللحية ليس إلا ، عند هؤلاء الناس .

إن أكثر من تسعة أعشار علماء الأزهر الشريف اليوم لا يعفون اللحى، ولا يستطيع أحد أن يقدح في علمهم ولا خلقهم ولا عقيدتهم، وهم لا ينكرون الإعفاء أبدا بل يتمونه عندما يشعرون أنهم قد أصبحوا أهلا له، وعندما يكونون قد قاموا بجميع سنن العبادة وجميع سنن الآداب، وسنن العادة حتى يكون إعفاء اللحية إكمالا للصورة الدينية وختما عليها، لا أن يكون فضيحة لها، وستارا على ركام من الحمق والغل، والجهل والعصبية المدمرة.

نعم نحن نأخذ ديننا عن سيدنا رسول الله ﷺ لا عن علماء الأزهر، ولكن كثرة هؤلاء العلماء وتمكنهم جعل لهم تقديرهم العلمي، وتوقيرهم الذاتي، وحجيتهم في مسائل الدين، وهم يعلمون أن مسألة إعفاء اللحى ليست من أمهات مسائل الدين عموما، ولا أمهات مسائل السنة خصوصا، فهي سنة كريمة لا مرية فيها، ولكنها لا ترتبط أبدا بأصول الاعتقاد ولا بحقائق العبادة، ولا بقواعد المعاملة، إنما هي نوع من الكمال لا شك في ذلك.

وها نحن أولًا: بدأنا نرى سماحة الفهم تعبق بنسيمها الهادئ في صفوف بعض الجمعيات الكبرى والطوائف الراشدة، فقد كان رجل له منزلته الرفيعة في الدولة يرأس إحدى هذه الجماعات، وكان سكرتير هذه الجمعية وهو من أسرة مؤسسها ولا لحية لهما.

وكان رجل عظيم في مثل منزلة الأول أو يزيد يرأس أيضا جمعية لا تقل خطرا عن الأولى ولا لحية له، بالإضافة إلى جمعيات أخرى كانت ولا

زالت مجاهدة بحق، وهذا هو شأن رجالها، ثم هذه الجموع المبرورة من الشباب التي تتردد على دور هذه الجماعات أعفت نفسها من لحية المظهر الآن، حتى تبلغ الرتبة التي يجوز لها فيها أن تطمئن إلى إصلاح الظاهر، بعد أن تكون قد أصلحت الباطن، فلا يجذبه إعفاء اللحى من الجانب النفسي والذاتي إلى كبائر موبقة من أمراض القلوب والبواطن.

إن توفير اللحية فيما نرى - ونستغفر الله - كطابع البريد لا ينبغي أن يوضع على ظرف الخطاب إلا بعد أن تكمل الكتابة، ويتم العنوان على الوجه الصحيح، وكما يجب أن يكون الخطاب تاما، والعنوان صحيحا، يجب أن يكون الطابع سليما نظيفا لا عيب فيه.

نحن نعرف ماذا قال السلف والخلف بحمد الله في شئون السنة وأقسامها ومراتبها بين الوجوب والندب والاستحباب خصوصا وعموما، فلسنا في حاجة إلى حمق الحمقى، ولا إلى تهور المتهورين، ولا إلى العناية بالسباب والشتم الذي ننتظره، ونعرف أنه حيلة من لا حيلة لهم من علم يحترم، أو دين يقدس وخصوصا هؤلاء الذين جعلوها وسيلة تسول لتحقيق عرض الدنيا، ونحن نعرف حساسية هذا الموضوع ودقته تماما، ولكننا لا نستطيع أن نقبل إخراج (٩٩٪) من المسلمين من دين الله بسبب عدم إرخاء اللحى، أو أن يسود الاعتقاد بأن أهل السنة هم فقط أهل اللحى كيفما كانوا سفلا أو علوا.

إن الإسلام:

١- عقيدة ٢- ثم عبادة ٣- ثم أدب

٤- ثم معاملة ٥- ثم أخيرا جدا مظهر وعادة .

وقد سئل رسول الله ﷺ أين التقوىٰ؟ فأشار إلىٰ صدره ثلاثا وهو يقول : التقوىٰ هاهنا ، ولم يشر إطلاقا إلىٰ عضو آخر ، ثم إن أحاديث الإخلاص وصدق النية هي الأصل الأول في دين الله ، وإلا كان من أهل الجنة كل من أرخىٰ لحيته من غير المسلمين وزعماء الفسق والزندقة والشيوعية ورجال الدعارة والكهنوت من كل دين آخر .

لقد أسر بعض السائلين في أذني : هل حقيقة أن اللحية مفتاح الجنة؟ فمهما عمل المسلم من عمل صالح ولا لحية له فهو من أهل النار؟

قال السائل : لقد قيل لي فيما قيل : إنه لابد إذا غسلت يدك قبل الطعام أن تأتي بأصابعك تقطر ماء على الخبز والأدم ، ولابد أن تلعق أصابعك ، أو تلعقها غيرك أو تمسحها في بطن قدمك ، أو تفركها في الرمل بعد الأكل . قال : وقد فعلت هذا فكان سببا في الشقاق بيني وبين أهلي وأصدقائي ، بل كان سببا فيما هو أكثر من ذلك من التقزز والاشمئزاز المر ، حتىٰ مع أبنائي وزوجتي وبناتي .

وقالوا لي لا تجفف ماء الوضوء عن وجهك ، وقد فعلت مرات فأصبت بعد قليل بمرض جلدي حاد ، لا أزال أعالجه حتىٰ كدت أيأس من الشفاء كما ترىٰ .

وقالوا : لا تشرب ولا تتبول قائما أبدا ، مما يسبب لي حرجا قاتلا ، وقالوا : لابد أن تحمل المرود والمكحلة والعصا ، وأن تترك شعرك يطول حتى يغطي قفاك ، وقالوا . . . ثم قالوا . . . وإلا فأنت من أهل النار .

وأظن أن الدعوة إلى الله عند ما يهبط بها رجل - أي رجل - إلى هذا المستوى فقد استوجب من المسلمين علاجا عاجلا نفسيا ، وعصبيا أولا ، ثم علميا وفقهيا ثانيا ، ثم تأديبا ، ولا فقد تعين اعتقاله ، ونفيه مع من رفع عنهم القلم .

أفكل هذه الموبقات العقائدية والأخلاقية والإعلامية المسموعة والمقروءة والمنظورة وغيرها لا تذكر ولا تكافح ، ولا يدخل بها النار أحد إلا من أرجأ إعفاء اللحية ، أو لم يعتصم بهذه الحاشيات من العادات التي كانت من ضروريات حياة العرب ومواريث عاداتهم في ذلكم الوقت لأسباب وأسباب ، إذا أراد رجل بالناس أن يستمسكوا بسنن العادات فليأخذها كلا لا يتجزأ في المسكن والمطعم والملبس والمقام والمظهر ، والعمل ، والمعاملة ، والمحادثة ، وجميع مطالب الحياة ، ضبطا بضبط ، وتماما بتمام ، إما أن يأخذ البعض ويدع البعض بغير ما تعليل ولا فقه - كما هو شأن هؤلاء الناس - فقول مردود مرفوض .

وأخيرا ، فنحن لا ننكر أبدا إعفاء اللحى ولله الحمد ، بل نرجوه ونتمناه على الوجه الذي فهمناه وقدمناه ، ولا نزال نعتقد أن من جمع إرادته فأصلح أمره باطنا ابتداء ثم أعلن بظاهره انتهاء ، إنما هو بطل جدير بكل تقدير وتوقير ، أما الإعفاء مجرد الإعفاء فأمر ليس هو كل

السنة ، ولا هو كل الدين ، وهو لا يغني بذاته عن أصل ولا عن فرع ، ولا في سنة ولا فرض ، ولا في الدين جميعا .

ثم إن في السنة والدين ما هو أولى بالاهتمام من هذا ، وفيما يحوطنا من متغيرات في غاية الخطورة أولى بالاهتمام من هذا ، وفيما يفد إلينا من مذاهب وأفكار وتقاليد مخربة ما هو أولى من هذا ، وفي المعاصي العلنية الموبقة في مختلف المستويات وعلى مختلف الصور والأوضاع ما هو أولى من هذا .

ولن يسألنا الله عن انتشار اللحى قبل أن يسألنا عن تضييع الأصول ، وتخريب العبادات والعقائد ، والعمى عن مكافحة هذه الكبائر الموبقة متوطنة أو وافدة ، فكرية أو عملية ، ولسوف يسألنا الله عن إهدار أوقاتنا في هذا التلاحي الذي لا يأتي بخير ، وإنما هو تمزيق للأمة ، وتشتيت للشمل وتدمير داخلي للبناء الإسلامي المقدس ويا ليتنا مع ذلك نسلم .

مع التصوف والتاريخ

لفظ الصوفي قديم جدا، وكان قبل البعثة قبيلة صوفية معروفة للعرب، وكان لهم خدمة في البيت الحرام، ولكن اللفظ بمعناه الاصطلاحي المعروف الآن لم يعرف إلا في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني الهجري، ولعل أقدم من نعرفه ذكر الصوفية هو عبد الواحد ابن زيد (**المتوفي سنة ١٧٧ هـ**) وكان ممن يصحب الحسن البصري (**ت سنة ١١٠ هـ**) رحمه الله، وكان من أجلة أصحابه.

قال أبو نصر السراج: قيل لعبد الواحد بن زيد من الصوفية عندك؟ قال: القائمون بعقولهم على هممهم، والعاكفون عليها بقلوبهم، المعتصمون بسيدهم من شر نفوسهم هم الصوفية.

وأقدم من ذكر التصوف هو معروف الكرخي (**المتوفي سنة ٢٠٠ هـ**) حيث قال: التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق.

أما قبل ذلك فقد كان الصوفية يسمون بأسماء تختلف من جهة إلى جهة في بلاد العالم الإسلامي، وكانوا يسمون العباد والزهاد، وأهل الذكر، والإرشاد... إلخ... إلخ.

وقد ظهر في الإسكندرية حوالي (**سنة ٢٠٠ هـ**) طائفة يسمون بالصوفية، يأمرون بالمعروف ويعارضون السلطان، وترأس عليها رجل منهم يقال له أبو عبد الرحمن الصوفي كما ذكره الكندي في القضاة، والمقريزي في الخطط.

وكذلك أطلق لفظ الصوفية على جماعة كانت تحيط بعيسى بن المنكدر،

الذي ولي قضاء مصر على عهد المأمون، وكان هؤلاء القوم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولما ولي ابن المنكدر القضاء كانت هذه الطائفة تأتيه وهو في مجلس الحكم فتقول: أيها القاضي ذهب الإسلام، حصل كيت وكيت. فيترك المجلس ويمضي معهم.

أما الصوفي - لقبا مفردا - فقد ورد لأول مرة في أوائل القرن الثاني، ونعت به جابر بن حيان (١٢٠ -١٩٨هـ) كما في دائرة المعارف الإسلامية وهو صاحب رياضة وكيمياء من أهل الكوفة، وله مذهب خاص في الزهد.

وكذلك أبو هاشم الصوفي وهو كوفي أيضا توفي (**سنة ١٥٠هـ**) يقول فيه سفيان الثوري (**ت ١٦١هـ**): لولا أبو هاشم ما عرفت دقيق الرياء. كما في نفحات الأنس.

بل لقد نقل عن الحسن البصري أنه قال: رأيت صوفيا في الطواف فأعطيته شيئا، فلم يأخذه، وقال: معي أربعة دوانيق، يكفيني ما معي، كما في اللمع والعوارف.

وجاءت بعض الروايات فذكرت ما يفهم منه أن هذا اللفظ كان معروفا في النصف الأول من القرن الأول.

حدث أبو مخنف عن هشام بن عروة أن عذريا شكا إلى معاوية إكراه واليه ابن أم الحكم له على طلاق زوجه لجمالها، ورغبة ابن أم الحكم في البناء بها، فكتب إليه معاوية فيما كتبه:

قد كنت تشبه صوفيا له كتب ... من الفرائض أو آيات قرآن

في قصة طويلة ذكرها السراج في اللمع .

ويبدو أن كلمة صوفي قد ظهرت أول أمرها في الكوفة مقصورة في إطلاقها على أفراد يعتنقون مذهبا من مذاهب الزهد ، وكان عبدك الصوفي آخر أئمته ، وهو من القائلين بأن الإمامة بالتعيين ، وتوفي ببغداد **(سنة ٢١٠ هـ)** .

وقد قدر لهذا الاسم أن يكون له شأن خطير فيما بعد ، فلما انقضت خمسون عاما حتى أصبح يطلق على كافة صوفية العراق خصوصا من اشتهروا باسم القلندرية ، ويغلب عليهم **(البسط والسماحة)** في مقابل الملامتية ، وهم صوفية خراسان ويغلب عليهم **(القبض)** والاحتياط ثم أخذ هذا الاسم يطلق بعد ذلك على كافة الصوفية المسلمين .

ما هو التصوف الإسلامي الصحيح؟

اشترك فضيلة الشيخ أحمد حسن مسلم عضو لجنة الفتوى وفضيلة الشيخ عبد المنصف محمود مدير عام الوعظ والإرشاد بالأزهر في الكلمة الآتية عن التصوف الإسلامي فأنصفاه ونشير هاهنا إلى أن فضيلة الشيخ محمد حافظ سليمان مدير الوعظ السابق وعضو العشيرة المحمدية كان من خيرة الصوفية الشرعيين، كما أن فضيلة الأستاذ الشيخ إبراهيم الدسوقي مرعي وزير الأوقاف السابق كان من كبار الصوفية الشرعيين.

قال الشيخان:

التصوف مشتق من الصوف، وقد كان يلبسه بعض العباد والزهاد الذين لا يميلون إلى الترف، وقدوتهم في ذلك أهل الصفة الذين قال الله فيهم ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨].

وأثر عن الحسن البصري ﷺ أنه قال: لقد أدركت سبعين بدريا كان لباسهم الصوف.. وعندما سئل أبو على الروذباري عن الصوفي: من هو؟ قال: من لبس الصوف على الصفا.

وقال معروف الكرخي المتوفي في (**سنة ٢٠٠هـ**): التصوف هو الأخذ بالحقائق.. واليأس عما في أيدي الخلائق.

وقال بشر الحافي المتوفي (**سنة ٢٢٧هـ**): الصوفي من صفا قلبه لله.

والتصوف : لقب اصطلح الناس عليه، والمراد به الشخص المسلم المستمسك بالكتاب والسنة، وممن عرف بالتصوف في الصدر الأول الإسلامي :

أبو ذر الغفاري ﷺ : إنه أمة وحده يعيش وحده ويموت وحده، كما أخبر بذلك الصادق المصدوقﷺ ومنهم حذيفة بن اليمان، وسلمان الفارسي فقد كان يوزع عطاءه الذي يأتيه من بيت مال المسلمين على الفقراء والمساكين، وكان يأكل من عمل يده، كان ينسج الخوص ويبيعه .

ثم جاء من بعدهم الحسن البصري الذي كان يعظ الناس ويرشدهم، وقد ربى رجالا منهم مالك بن دينار .

ثم جاء بعد ذلك إبراهيم بن آدهم .

ثم ذو النون المصري المتوفي (**سنة ٢٤٥ هـ**)

ثم الإمام الجنيد، والقشيري .

والتصوف من حيث ذاته عقيدة وخلق وجهاد ودعوة، ودعائمه الإسلام والإيمان والإحسان بما فيه المراقبة والمشاهدة، ومتابعة القرآن والسنة، وأهدافه التخلي عن كل رذيلة، والتحلي بكل فضيلة، والسلوك الملتزم بطاعة الله ورسوله، وجهاد النفس، وإصلاح الباطن والإيثار .

وليس من التصوف القول بمخالفة الحقيقة للشريعة فهما صنوان متلازمان كالروح والجسد، وليس من التصوف تلك البدع التي انتشرت بين بعض الطرق الصوفية المعاصرة والتي تثير الدهشة والعجب كالضرب على

الدف والمزمار وآلات اللهو والتحريف في أسماء الله ، والرقص أثناء الذكر والاختلاط بين الذاكرين والذاكرات ، أو ترك الأخذ بالأسباب والركون إلى حياة الدعة والتواكل ، أو اتخاذ الطريقة حرفة للتكسب أو غير ذلك من كل محدث في الدين ، ولا يتفق مع روح الشريعة السمحة الغراء ، والرسول ﷺ يقول : من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد . رواه البخاري .

حول عبادة الرغبة والرهبة

أضواء مجملة على وجهة النظر الصوفية

قرأت كلمة عن طبيعة الجزاء الأخروي في إحدى المجلات الحبيبة[١] وقد انتقل السيد كاتب الكلمة من موضوعها وصلبها لأدنى مناسبة - بل لغير مناسبة - إلى الكلام عن عبادة الرغبة والرهبة، ومذهب الصوفية فيها، ثم حمل الكاتب - وهو عالم كبير فاضل - على رأي الصوفية حملة جمعت كل عصبية في كل ما سبقها في موضوعها، من كل من سبقه إلى هذا الجانب من الكتاب القدامى والمحدثين.

ويشهد الله، لو لم يكن كاتب هذه الكلمة هو كاتبها هذا لأغفلناها وألحقناه بسابقيه في انتظار لاحقيه، وما شغلنا به أنفسنا ولا قراءنا، فقد أصبح تتبع التصوف وتجديد الحملة عليه بلا جديد أمرا مألوفا، ينشغل به الناس عن موجات الإلحاد واللادينية والوجودية والتلف العقائدي والأخلاقي والإعلامي المدمر ولا قوة إلا بالله، كأنا فرغنا من كفاح المتفق عليه، فلم يبق إلا المختلف فيه، ولكنها عدوى التمسلف المنحرف.

والانشغال بكفاح ما فيه خلاف عن ما لا خلاف عليه، أمر يستوقف الذهن ويستلفت النظر، ولكن حسن الظن بالكاتب الكبير[٢] يجعلنا نعتذر له عند أنفسنا وعند أمثالنا، فلا نحب أن يتصدع الصف

---

(١) مجلة الواء الإسلام.

(٢) هو الشيخ محمد الغزالي السقا.

الإسلامي، وإن أحب ذلك آخرون، وللرجل آثاره التي يرضاها الله ورسوله والمسلمون.

كانت الكلمة عن طبيعة الجزاء الأخروي كما سماها الأستاذ وهي في نفس الوقت دفاع عن الغريزة البشرية، كما أسمى مقدمتها ثم هجوم على **(الاستعلاء الروحي)** كما أسمي بقيتها ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨].

والذي يعرفه الأستاذ كما نعرفه أنه ليس كل الصوفية يحتقرون البدن ويعملون على سحقه، ووجود طائفة ترى هذا الرأي فيهم لسبب أو لآخر لا يؤخذ به جميعهم، ومن المسلم به أن في كل طائفة غلاة، ليسوا هم كل الطائفة، وقد يشفع لهم في تغاليهم حسن النية، أو الخطأ في إرادة الصواب، وحينئذ لا يكونون هم عنوان الطائفة ولا حقيقتها ولا مثلها، ولا تستحق الطائفة كلها المؤاخذة من أجلهم.

وقد وُجِدَ الغلاة بين المسلمين والنبي حي، والوحي ينزل، وقصة الصحابة الذين أرادوا صيام الدهر وترك النساء و... و... إلخ معروف لطلبة العلم، وقد نهاهم الرسول ﷺ برفق وحكمة، ثم لماذا لا نذكر أمثال أبي الحسن الشاذلي، وشمس الدين الدمياطي، وعبدالله بن المبارك، ممن جمعوا بين التصوف والحياة؟ وهم كثرة كاثرة في الماضي والحاضر.

ثم لماذا نأخذ التصوف كله بأفراد منه، ولا نطبق هذا الحكم على بقية المذاهب؟ وإلا كان من حقنا أن نطالب بمؤاخذه السيد الكاتب نفسه لأنه كان يوما من جماعة معروفة وبرغم فضلها كان فيها غلاة معروفون

هذا أولا ، أما ثانيا :

فإن الصوفية لم يحقروا عبادة الرغبة والرهبة ، بل هي عندهم أساس العبادة المجردة ، ولم يأت على لسان أحدهم ولا إحداهن تصريح بذلك الاحتقار أو إشارة إليه فيما نعرف ، فإنه لا تنافي أبدا بين الوجهتين عقلا أو شرعا .

على أن اختيار رأي على رأي لا يكون معناه احتقار الرأي الآخر وإلا فقد سلمنا بأن اختيار بعض أئمة الفقه مثلا لما ترجح عندهم بدليله ، يعني احتقار ما ذهب إليه الآخرون ، وأن اختيار المصلي سورة أو آية ليقرأ بها في صلاته ، يعني أنه يحتقر بقية القرآن كله وليس كذلك قط .

ثم إن المفاضلة بين شيئين معناها أن هناك فاضل وأفضل منه في رأي المفاضل ، فلا رائحة للاحتقار هنا على الإطلاق ، وهكذا لا نرى في مذهبهم ما يوجب كل هذه الثورة ، إلا أن تكون لسبب نحب أن ننزه عنه الأخ الكريم .

أما ثالثا :

فإن لمن اختاروا العبادة المجردة عن الرغبة والرهبة وجهة نظر تستوجب الإنصاف ، فهم مثلا لم يغمزوا غيرهم في عبادتهم ، ولم يمنعوها كما قدمنا ، ولكنهم :

١ - أقروا عبادة الرغبة والرهبة ، وآمنوا بها ومارسوها ، ثم طلبوا بعدها ما ترجح عندهم أنه أفضل وأكمل ، أو ما هو عندهم ثمرة طبيعية لعبادة الرغبة والرهبة ، فهم قد انتقلوا من طور إلى طور تلقائي في مراقي السلوك إلى الله .

فإنهم يرون أن الله تعالى بحق الألوهية مستحق للعبادة بالذات لا بالسبب، وأنه أهل للعبادة ولو لم يتفضل على عباده بالجزاء، فرارا من اللحاق بمن يعبد الله على حرف، فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه.

٢- اختاروا العبادة المجردة تخلصا من شبهة الانشغال بالمخلوق عن الخالق، وبالأثر عن الـمُؤَثِّر، والانشغال بشيء عن شيء فيه تفصيل لما انشغل به المرء عن غيره، وهم لا يفضلون الانشغال عن الله بشيء، فقد يكون ذلك هو الجريمة الموبقة.

٣- اختاروا هذه العبادة خروجا من شبهة المعاوضة - وهي عندهم علة قادحة - فإن من يقدر الله حقه لا ينبغي أن يعامله على أساس حساب الأرباح والخسائر، فالتجارة معه تعالى تقوم على أساس العبودية، ومقتضاها التسليم للمعبود، واختصاصه وحده بالتقدير الأنزه ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[البينة: ٥] ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾[الزمر: ٣] والنظر إلى غيره تعالى في عبادته - رغبا أو رهبا- قد تصبح علة من دون هذا الإخلاص لا محالة عند بعض الناس.

٤- إن الرتبة التي اختارها أهل العبادة المجردة ليست غريبة على دين الله إطلاقا، فإن الله تعالى يقول ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾[يونس: ٢٦] أي أن هناك شيئا وراء الحسنى لعله خير منها، وإلا لما استحق الإشارة إليه، ولعله الشيء الذي يصفه الله تعالى فيقول ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾[التوبة: ٧٢] أي أكبر من جنة عدن والمساكن الطيبة السابق ذكرها في الآية، وذلك هو ما يطلبه السادة عليهم الرضوان.

٥- إن الجنة والنار من خلق الله ، فهي أثر لصفاته ، أو هي مفعولات له ، والقيام مع الذات قيام بالتالي مع أثرها ، وطلب الذات لقداستها طلب لطيب آثارها بالتبعية الضرورية ، هنا يصح الاستغناء عن طلب الأثر بطلب الـمُؤَثِّر فيتحصل الجمع بين الخيرين ، وليس كذلك حين يكتفي بطلب الأثر وحده .

يا سبحان الله ، من وجد الله فأي شيء فقده؟ ومن فقد الله فأي شيء وجده؟ أليس الله بكاف عبده؟

٦- إن هؤلاء السادة وقفوا عند قوله تعالى ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء:١١٤] فهو لم يقل ابتغاء الجنة أو مخافة النار هنا ، بل الغاية هي مرضاته وكفى ، ومثله قوله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[البقرة:٢٠٧] وقوله تعالى ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[البقرة:٢٦٥] وقوله تعالى ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾[الممتحنة:١] .

فأملهم الأول والأخير أن يرضى عنهم ، وفي رضاه حسن الجزاء الذين يرضونه ويرضاه ، لا أن يساوموه سلعة بسلعة ، فلعل هذا مما لا يتوفر فيه كل أدب العبودية أحيانا .

٧- كيف يعاب عليهم مذهبهم في العبادة الخالصة لوجه الله ، لا الجنة يؤتونها ، أو نار يصلونها ، وقد قرءوا قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾[الرعد:٢٢] نعم (**ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ**) الذي هو أفضل من الجنة بكل ما فيها .

وقد مدح الله تعالى أهل هذا المقام ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل : ١٧-٢١] .

فالآية نص في أن من ابتغى وجه ربه وحده بالخير الذي يأتيه هو الأتقى، والأتقى غير التقي، ولا تنافي حين يطلب التقي الجنة، ويطلب الأتقى رب الجنة، فيحصل الأتقى على الهدفين معا، وفي أحاديث تجلي الله على عبادة في الجنة خير دليل .

تأمل قوله تعالى ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف :٢٨] وقوله ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام :٥٢] لا يريدون إلا وجهه .

٨- لا أدري أي عارٍ على من يجعل حب الله فوق حب المألوه، فلا يوازن بينهما ولا يقتاس عليهما، وفي الحديث الثابت عن رسول الله ﷺ : «**لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نفسه وأهله وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»(١) .

وهؤلاء قد أحبوا الله فوق حبهم للجنة، وخافوه فوق خوفهم من النار، أليس الله تعالى يقول ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة :١٦٥] ثم هو تعالى يقول ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات :٤٠] فالخوف الحقيقي لمقام الله، خالق النار

---

(١) أخرجه البخاري (١٥) ومسلم (٤٤/ ٧٠) عَنْ أَنَسٍ بلفظ : «**لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**» . وعند أحمد عن جد زُهْرَةَ بْنِ مَعْبَدٍ بلفظ : «**لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ**» .

هو خوف من النار أيضا وهو يقول ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦] لأنه جمع بين خوفه تعالى وخوف ناره بخوفه، وهو يقول ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [المائدة:٩٤] ولا كذلك من يخاف ناره فهو لا يخافه ذاته لولا النار، ولذلك كان هذا شأن الملائكة، كما قال تعالى ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل:٥٠] أي من أجله هو، لا من أجل شيء آخر.

فالسادة رضي الله عنهم يدعون ربهم خوفا وطمعا، ورهبة ورغبة ذاتية غير معلولة ولا موقوفة ولا مدخولة، بالنظر إلى ثواب أو عقاب، فإنما هو التفات يجدون فيه حرصا ينأى بهم عن الدين الخالص، وابتغاء الوجه العظيم.

وهو بالتالي نظر إلى الأعمال، ولن يدخل أحد الجنة بعمله كما يقول الرسول ﷺ.

٩- أما أن الله بلغ عن بعض السادة بأنهم يعبدونه خوفا وطمعا ورغبا ورهبا، فإنما هي قلوب الخواص التي تجعل الرغب والرهب موجها إلى ذاته فتصيب الخيرين معا، وحتى على الوجه البسيط فإنه لا تنافي ولا مفاضلة، فإن اختصاص أحد الوجهين بالذكر لا يمنع الوجه الآخر.

ثم أية عبادة تلك التي يضمن العبد كمالها حتى يطالب الله بثمنها مهما بالغ فيها ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧] وهذا هو رسول الله ﷺ يعترف بأن العبد لا يبلغ من حق الله ما الله أهله، فيقول ﷺ: سبحانك لا نحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.

أليس يقول الحق تبارك وتعالى ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨] ويقول ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢] لا يريدون شيئا آخر، تأمل كثيرا قوله (**يُرِيدُونَ وَجْهَهُ**).

وهكذا نرى أنه لا منافاة أبدا بين ما يرى الكاتب وسابقوه ولاحقوه، وبين ما يرى هؤلاء السادة من تنزيه للألوهية ووزن للعبودية وعمق في الفكرة وتأصيل للمذهب كما قدمنا.

فهذا صحيح وهذا صحيح، وغفر الله لإخواننا الذين كافحوا كل المناكر فلم يبق منها إلا عبادة الرغبة والرهبة، بدل من عبادة الذات المستوجبة للرغبة والرهبة، على أن هذا الرأي على عمقه وتساميه ودقة مراميه لم يعد الآن أكثر من أثر لا نعرف أحدا هو أهل له اليوم، فيؤمن به ويعمل به، فقد يكون مما ذهب أهله وزمانه إلا من شاء الله.

إن من طلب الله ضمن الجنـة

فمن وجـد الله مـا فقـد شـيئا

ومن فقـد الله مـا وجـد شـيئا

فغير الصوفية وقفوا عند الحُسْنَى بحكم التزام المعاوضة، أما الصوفية فقد تخطوا الحُسْنَى إلى الزيادة بحكم الحب والأمل الفسيح، والتفويض المطلق.

أولم يقل الله عن أحبابه ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] إذن فهناك ما هو فوق الحُسْنَى وهو ما يطلبه الصوفية في مقام البسط والرجاء لا في سوق الأخذ والعطاء، والبيع والشراء.

لا إنكار على الطرف الآخر، ولكن السادة في طموح إلى مشارف ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢] فقد عملوا ابتغاء مرضاته وإرادة وجهه.

والسلوك إلى الله مراتب وسبل وهمم تتعدد وتأتلف، ثم لا تتبدد ولا تختلف ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات:١٦٤].

اللهم إنا نحبك لك، ونعبدك لك، ونستعينك حتى لا يخالطنا في إرادة وجهك ما ليس لك.

من أعماق معاني آية (إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ)

كثر الكلام حول معنى هذه الآية الشريفة ، حتى فهمها بعض الناس فهما يتنافي مع الوظيفة الإسلامية ، فنقول : إن أول ما فرض الله على العباد فرض معرفته تعالى ، فإن العبد لا يعبد من لا يعرفه ، وقد عرفهم الله تعالى إلى نفسه أزلا في قديم عالم الغيب كفاحا(١) فقال ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢] .

ثم عرفهم تعالى نفسه في عالم الشهود بما نشر في الأكوان من المعالم الخالدة الدالة عليه ، ثم أعطى الناس إلى معرفته مفتاحا ذاتيا ثابتا هو العقل والبصر ، ثم تكرم عليهم بمفتاح خارجي متجدد هو إرسال الرسل الذين ختمهم بسيدنا محمدﷺ .

وقد خلق الله الناس ليعبدوه ، وهو الغني عنهم ، قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] وجعل عبادتهم له خيرا عائدا على أنفسهم لا عليه ، تفضلا منه وإنعاما عليهم ، فيقول ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات:٥٧] وهو الرزاق الْـمُطْعِم ، فكان الخلق لمصلحة الخلق ضرورة تجلي الحق بالحق .

فما دام أن هناك (**إلها**) فلابد أن يكون هناك (**مألوه**) وما دام أن هناك (**خالقا رزاقا**) فلابد أن يكون هناك (**مخلوق ومرزوق**) فخلق الخلق اقتضاء ذاتي للألوهية لا يسأل عنه بـ(**لِمَ؟ ولا كيف؟**) كالضوء ضرورة

(١) قال ابن الأثير في النهاية : أي مُواجَهةً ليس بينهما حِجابٌ ولا رَسُولٌ .

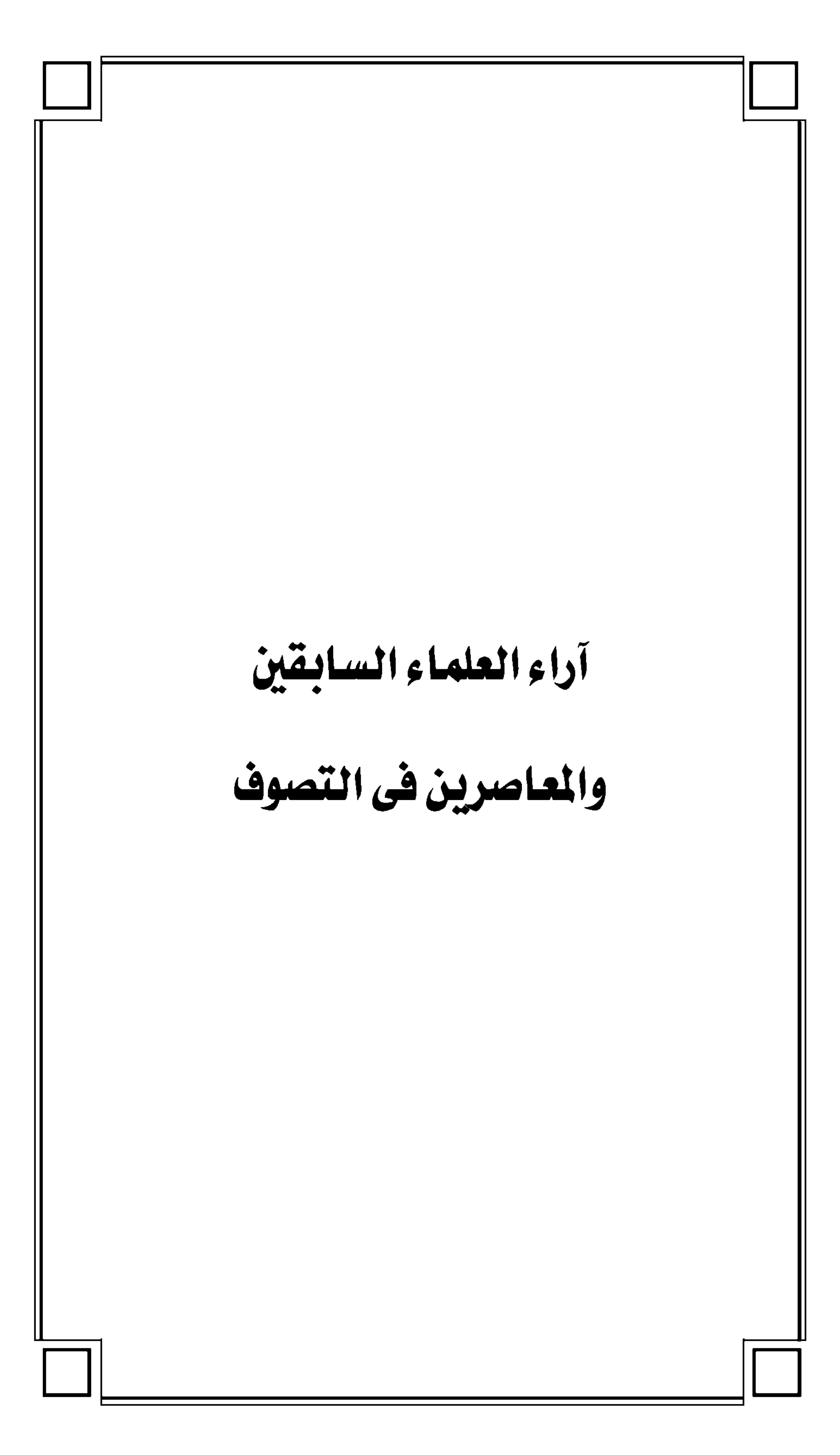
لوجود الشمس، والحلاوة مثلا ضرورة لطعم السكر، فلا يقال فيها (**كيف؟ ولا لِمَ؟**) وإلا تعطلت صفات الألوهية المقدسة عن التوقف والأعطال، فافهم فإنه منزلق خطير لمن يجهلون.

ثم إنه ليس المراد بالعبادة لزوم المساجد والانقطاع إلى الصلاة والذكر ونحوه فقط، ولكن المراد من العبادة هو تحقيق خلافة الإنسان عن الله في أرضه على أوسع المعاني الشاملة لشئون الدنيا وشئون الآخرة: المادية والروحية معا.

فممارسة أسباب التقدم والحضارة من سائر العلوم والفنون والآداب والصناعات والحرف والتجارات والثقافات والمهن، والوظائف والابتكار والاختراع والتجديد، وعلوم السياسة والتعمير ونحوه، مما يعود على الإنسانية بالخير العام والخاص، كل ذلك عبادة مقصودة تماما بالآية، حتى الفنون العسكرية والعلوم الاقتصادية والهندسية والتكنولوجية... إلخ، ولكنها لن تكون عبادة صحيحة إلا إذا نبتت من شرف النية لتنتهي إلى شرف القصد، وكانت محوطة بسياج الْخُلُق الرفيع، وقوة الدين القيم الخالص في حدود الكتاب والسنة، وإرادة وجه الله لتحقيق خلافته على أرضه.

وإذن تكون الصلاة والقرآن والذكر وبقية العبادات، وحركة التقدم الحضاري علما وعملا والفنون والثقافة، وكل مكارم الأخلاق، وكل مقامات السلوك إلى الله، صنوفا داخلة في مفهوم العبادة ومضمونها، وعليه تكون العبادة في الآية بمعني الحياة المتكاملة المتسامية النموذجية البالغة غاية الرفعة والعزة، في ظاهر الأمر، والبالغة غاية الربانية في باطنه، وهذا هو المقصود من قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] فيما نفهم،

والله أعلم.



آراء العلماء السابقين
والمعاصرين فى التصوف

آراء العلماء السابقين والمعاصرين في التصوف

١ - ابن تيمية ينصف الصوفية

يقول الشيخ أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية حجة السلفية ، وإمامهم وفقيههم في كتابه الفتاوى الكبرى بالجزء الحادي عشر ، وبالصحيفة السابعة عشر ما نصه :

والصوفيون قد يكونون من أجل الصديقين بحسب زمانهم ، فهم من أكمل صديقي زمانهم ، والصديق في العصر الأول أكمل منهم .

والصديقون درجات وأنواع . . . إلخ ، ثم يقول : ولأجل ما يقع من كثير منهم من الاجتهاد والتنازع فيه تنازع الناس في طريقهم فطائفة ذمت الصوفية والتصوف ، وقالوا إنهم مبتدعون خارجون عن السنة ، وطائفة غالت فيهم ، وادعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء ، وكلا طرفي هذه الأمور ذميم ، والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أجل طاعة الله ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده ، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين ، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب . اهـ .

وهنا ننقل نص رأي الشيخ ابن تيمية في صحة كرامة الأولياء من أواخر كتابه الذي سماه العقيدة الواسطية ، فهو يقول بالحرف الواحد : ومن أصول أهل السنة التصديق بكرامات الأولياء ، وما يجرى على أيديهم من خوارق العادات في أنواع العلوم والمكاشفات ، وأنواع القدرة والتأثيرات

(**تأمل**) والمأثور عن سلف الأمم في سورة الكهف وغيرها ، وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين ، وسائر فرق الأمة ، وهي موجودة فيها إلى يوم القيامة ، وتأمل مرة أخرى . اهـ .

وبعد ، فهذا هو عين اعتقاد الصوفية الذي لا يعجب اليوم أتباع ابن تيمية ، ولا عملاء اللحى البترولية ولا طلاب عقود العمل في البلاد العربية .

٢- ابن القيم ينصف الصوفية

أنصف الشيخ ابن القيم السادة الصوفية الأبرار في شرحه العظيم في كتاب الشيخ الهروي رضي الله عنهما فمن ذلك قوله في منزل الرجال صحيفة (٢٠) من الجزء الثاني ما نصه : وهذه الشطحات أوجبت فتنة على طائفتين من الناس :

إحداهما : حجبت عن محاسن هذه الطائفة ، ولطف نفوسهم وصدق معاملاتهم ، فأهدروها لأجل هذه الشطحات ، وأنكروها غاية الإنكار وأساءوا الظن بها مطلقا ، وهذا عدوان وإسراف ، فلو كان من أخطأ أو غلط تُرك جملة وأهدرت محاسنه لفسدت العلوم والصناعات والحكم ، وتعطلت معالمها .

والثانية : حجبوا بما رأوه من محاسن القوم وصفاء قلوبهم ، وصحة عزائمهم وحسن معاملتهم على عيوب شطحاتهم ونقصانها ، فسحبوا عليها ذيل المحاسن ، وأجروا عليها حكم القبول والانتصار ، هؤلاء معتدون مفرطون أيضا .

والطائفة الثالثة : وهم أهل العدل والإنصاف الذين أعطوا كل ذي حق حقه ، وأنزلوا كل ذي منزلة منزلته ، فلم يحكموا للصحيح بحكم السقيم المعلول ، ولا للمعلول السقيم بحكم الصحيح . اهـ .

وقال أيضا في صحيفة (٧٦) من الجزء الثالث بعد كلام عن الجنيد : فرحمة الله على أبي القاسم ما أتبعه لسنة الرسول ، وما أقفاه لطريقته ، وطريقته طريقة أصحابه .

وقال أيضا في صحيفة (٦٥) لدي كلامه على الوجد والتواجد ما نصه : والتواجد استدعاء الوجد بنوع اختيار وتكلف ، واختلف الناس هل يسلم لصاحبه؟ على قولين والتحقيق أن صاحب التواجد إن تكلفه لحظ وشهوة لم يسلم له ، وإن به تكلف باستجلاب حال أو مقام مع الله سلم له .

وقال الحافظ ابن القيم أيضا في باب الجمع صحيفة (٢٧٦) حين تكلم عن الذين تخطفهم لوائح شهود الجمع ، ولم يتمكن من البقاء فقال : وهذا قد يعرض للصادق أحيانا ، فيعلم أنه غالط فيرجع إلى الأصل ، أو يحكم الحكم على الحال وفي مثل هذا الحال قال أبو يزيد : سبحاني ، وغيره قال : ما في الجبة إلا الله ، ونحو ذلك . اهـ .

٣ - المحدث السلفى الشيخ الذهبي

يعترف بالتصوف وبالكرامات والأحوال والمقامات

في ترجمته للعارف بالله تعالىٰ أبو الرجال عبد الرحمن بن مري بن بحير، واسم أمه مريم، قال الذهبي في العبر ما نصه: وكان صاحب حال وكشف[١] وله عظمة في النفوس، توفي سنة أربع وتسعين وستمائة، ثم دفن بقرية منين بزاويته ومزاره معروف والدعاء عند ضريحه مستجاب من كل عبد ملهوف، وكان أبو الرجال من ذوي الأحوال، وكان ناسكا زاهدا عابدا ورعا. اهـ.

وقال في تاريخ الإسلام ما نصه: على القرشي الرجل الصالح، كبير القدر صاحب كرامات ورياضات وسياحة، وله أصحاب ومريدون، وله زاوية بسفح قاسيون، ثم له حكايات تدل علىٰ ولايته، إلىٰ أن قال: توفي في جمادىٰ الآخرة سنة إحدي وعشرين وستمائة بقاسيون، وبنوا علىٰ قبره قبة[٢].

وعن الشيخ العارف بالله تعالىٰ أبي بكر العروذْكي - بسكون الدال - يقول الذهبي ما نصه:

سكن بسفح قاسيون، وكان زاهدا، له أحوال وكرامات ومقامات وله شعر كثير رأيته في ديوان مفرد، وهو شعر طيب يقع على القلب ويحرك الساكن ويثير الغرام، توفي في جمادىٰ الأولىٰ سنة اثنين وسبعين وستمائة.

---

(١) قال السيد الرائد ﷺ: هذا الإمام الذهبي يقر الصوفية على الحال والكشف وهو من هو علما بالسنة، وينكرها المتمسلفون في هذه الأيام، كما أنه يقر استجابة الدعاء عند أضرحة الصالحين وهم ينكرونها.

(٢) قال السيد الرائد ﷺ: هنا يعترف الإمام الذهبي أيضا بالمقامات والكرامات والأحوال ولم ينكر بناء القبة.

٤ - الإمام الشاطبي السلفي ينصف التصوف

رحم الله الإمام العلامة الأصولي الشيخ أبا إسحاق الشاطبي حيث قال في كتابه الاعتصام بالصحيفة (٢٧٤) من الجزء الأول، ما نصه: وأما الكلام في دقائق التصوف فليس ببدعة بإطلاق ولا هو مما صح الدليل فيه بإطلاق بل الأمر ينقسم، ولفظ التصوف لابد من شرحه أولا، حتى يقع الحكم على أمر مفهوم، لأنه أمر مجمل عند هؤلاء المتأخرين، فلنرجع إلى ما قال فيه المتقدمون.

وحاصل ما يرجع فيه لفظ التصوف عندهم معنيان:

أحدهما: التخلق بكل خلق سني، والتجرد عن كل خلق ردي.

والآخر: أنه الفناء عن نفسه، والبقاء بربه، وهما في التحقيق بمعنى واحد، إلا أن أحدهما يصلح التعبير به عن البداية، والآخر يصلح به التعبير عن النهاية، وكلاهما إنصاف، إلا أن الأول لا يلزم الحال، والثاني يلزمه الحال.

وقد يعبر فيهما بلفظ آخر، وإذا ثبت هذا فالتصوف بالمعنى الأول لا بدعة في الكلام فيه، لأنه إنما يرجع إلى تفقه ينبني عليه العمل، وتفصيل آفاته وعوارضه وأوجه تلاقي الفساد الواقع فيه بالإصلاح، وهو فقه صحيح وأصوله في الكتاب والسنة ظاهرة، فلا يقال في مثله بدعة إلا إذا أطلق على فروع الفقه التي لم يقل مثلها في السلف الصالح إنها بدعة، كفروع أبواب السلم والإجارات، ومسائل السهو والرجوع عن الشهادات، وبيوع الآجال، وما أشبه ذلك، وليس من شأن العلماء

إطلاق البدع على الفروع المستنبطة التي لم تكن فيها سلف، وإن دقت مسائلها، فكذلك لا يطلق على دقائق فروع الأخلاق الظاهرة والباطنة إنها بدعة، لأن الجميع يرجع إلى أصول شرعية.

وأما بالمعنى الثاني فهو على أضرب، ثم فصلها، راجع بقية كلامه لتكون من المنصفين، ورحم الله كل من أنصف نفسه وأنصف الناس.

٥ - الشيخ متولي الشعراوي والتصوف الصحيح

تحدث فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد متولي الشعراوي إلى الأستاذ علي حسن علي المحرر بجريدة النور عن مجمل رأيه في التصوف ملخصا فيما يأتي:

من هو الصوفي؟

يقول الشيخ الشعراوي: إن الصوفي هو الذي يتقرب إلى الله بفروض الله، ثم يزيدها بسنة الرسول عليه الصلاة والسلام من جنس ما فرض الله، وأن يكون عنده صفاء في استقبال أقضية العبادة، فيكون صافيا لله والصفاء هو كونك تصافي الله.

تعدد الطرق:

وكل إنسان وصل إلى الله بطريق من الطرق، أو صيغة من الصيغ يعتقد أن الطريق الذي سلكه إلى الله هو أقصر الطرق، ولذلك اختلف الناس لأن وسائل عبادة الله متعددة، فإذا دخل إنسان من باب وطريق وأحس أنه نقله وأوصله بادر إلى نقله لمن يحب.

ويضيف الشيخ الشعراوي: ومن هنا فإن معنى أن هناك طرقا صوفية

هو أن أناسا وصلوا إلى الصفاء من الله سبحانه وتعالى، وجاءتهم الإشراقات والعلاقات التي تدل على ذلك في ذواتهم، فعلموا أن الطريق الذي سلكوا فيه إلى الله صحيح، وكلما زادوا في العبادة زاد الله في العطاء.

من هم المريدون:

ويقول الشيخ: كذا قد قلنا إن السالك للطريق يرى أن الطريق الذي سلكه هو الأفضل بالنسبة له، ويجب أن ينقله لأحبابه، وعندما يجد هؤلاء فيه أشياء لم يجدوها في سواه يلتفون حوله وينفذون ما يقول لهم من عبادات تقربهم من الحق جل وعلا، ثم بعد ذلك يصبحون مريدين ما داموا قد أصبحوا أهلا للقرب من الله، والمريد هو من أراد الله وعمل على رضاه.

التصوف رياضة روحية:

والتصوف من هذا المنطلق رياضة روحية، لأنها تلزم الإنسان بمنهج تعبدي لله فوق ما فرضه، وهذه خطوة نحو الود إلى الله.

والله سبحانه وتعالى يقول في الحديث القدسي: «**مَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**». ولم يقل سبحانه جئته أمشي ولو قالها لكان المشي بالنسبة له شيئا كبيرا، فما بالك بهرولة منسوبة لله؟

ومن هنا يدخل الإنسان في مقام الود مع الله، ومعنى أن يوده الله أن يصافيه الرياضة والمقامات.

وهكذا يمن تعالى على هؤلاء المتصوفين ببعض العطاءات التي تثبت لهم أنهم على الطريق الصحيح، وكلما زاد العبد في عبادته زاده الله في وده، ولا نستطيع أن نقول إن هذه الزيادات تصل إلى حد ما، لأن عطاء الله

ليس له حدود.

تعريف العطاءات:

وعن تعريف العطاءات يقول الشيخ : إنها هي التي ينخرق بها ناموس ما في الكون ، وعلى قدر صفاء المؤمن تنخرق له النواميس التي تحكم الناس ، بأن يطلعه الله على حكم بعض مجريات الأمور قبل أن تحدث ، ويعطيه صفحة من صفحات الكون لأي إنسان فينبئه به أو يبشر به ليجذبه إلى جهته ، أو أن يريد بعبد له خيرا فيريه شيئا من خرق نواميس الكون غير العادية ، وهذه هي المعروفة بالكرامات .

وأنا لي رياضة ولو خطوات بسيطة وأصبح عندي مبدأ التصديق واراذا ، لأنني عند ما خطوت خطوة أكثر من الآخرين رأيت ، وهكذا .

فلا الصوفي يكذب الصوفي ولا يعارضه ولذلك فهم يئتلفون ويحب بعضهم بعضا ، ولكل منهم مقام ومكان .

وعندما يدخل الصوفي مقامات متعددة وجئنا بمن لم يتريض ولم يدخل في مقام الود وحدثناه بها لا شك أنه يكذبها ، ولكن تكذيبها دليل حلاوتها ، والمتصوف الحقيقي يعطيه الله أشياء لا تصدقها عقول الآخرين ، ولذلك فعليه أن يفرح بذلك ، ولا يغضب من تكذيب الآخرين له .

٦ - الشيخ الغزالي السقا والتصوف السليم

إذا ذكر التصوف تراءت للعين صور شائهة لرجال يتبعون طرقا شتى ، وتنتظم من المناسبات الدينية مواكب لها بغام منكر ، تخدم السلطات

وتُحْيي البدع والخرافات ، وقلما ارتفعت لها راية في ميدان جهاد .

والحق أن هؤلاء الغوغاء لا علاقة لهم بالتصوف ، ولا يعرفون منه قليلا ولا كثيرا .

التصوف - سواء كانت كلمة عربية أو مترجمة - يعني حقائق أخرىٰ جديرة بالدرس والتمحيص ، والتراث الصوفي يتضمن أحيانا قضايا في ذروة الشرف والثناء ، كما يتضمن أحيانا أخرىٰ شطحات لا وزن لها ، بل ينبغي إطراحها والنأي عنها .

التصوف الفلسفي :

وأول ما نحذر منه هو التصوف الفلسفي الذي نقل عن الهنود واليونان الأقدمين عقائد الحلول ووحدة الوجود ومشيا وراء تهويمات عاطفية بعيدة عن هدايات الإسلام ، ولا يمكن ربطها بالوحي الصحيح كما أن هناك تصوفا ضاهي الرهبانية البوذية والنصرانية ، وأعلن حربا على الجسد لا عقل فيها ولا جدوىٰ منها ، أو استدار للحياة الدنيا فلم ينشغل بها ولم يكدح فيها ، وكَوَّنَ أجيالا من القاعدين والمتسخين في ميادين الحياة شقىٰ بهم الإسلام دهرا ، ولم ينجحوا في كسب الدنيا ولا في كسب الآخرة(١) .

إننا نرفض هذا اللون من التصوف ونؤكد أن الإسلام يستنكره ،

(١) قال السيد الرائد ﷺ : هذا النوع من التصوف مدسوس على الإسلام فالصوفية الإسلامية عمل على أساس علمي صحيح وجهاد فعلي وروحي . راجع تاريخ أبي الحسن الشاذلي والشمس الدمياطي والعُذْوي وعليش وأبي عليان .

وأظن أن بداهات الفطرة والعلم والارتقاء الإنساني تعترضه .

التصوف الحقيقي:

لكن هناك تصوفا نبت في أكناف الإيمان والإسلام والإحسان، ونما على أغذية جيدة من العلم والعمل واستطاع أن يلون المشاعر الإنسانية بصدق العبودية، ودفعها إلى التفاني في مرضاة الله، والحس الرقيق بوجوده وشهوده، وجعل أصحابه يسعدون بمشاعرهم الباطنة وإن كانت أحوالهم نكدة فيما يرى الناس حتى يقول قائلهم: حبسي خلوة، ونفيي سياحة، وقتلي شهادة .

هذا التصوف يحول المعرفة النظرية المجردة إلى عاطفة قلبية مشبوبة، فالتكاليف تؤدى برضا واستحلاء لا بتعب ومعاناة، والمعاصي تترك باستغناء واستعلاء، كما قال يوسف عندما تعرض لإغراء الملكة وصويحباتها وفرشن له طريق الغواية بالأزهار ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣] .

حلاوة الإيمان:

وانتقال العلم من تصور ذهني جاف إلى شعور قلبي رقيق عطاء إلهي جليل القدر، وقد أشار إليه القرآن الكريم وهو يذكر امتنان الله على أصحاب رسوله ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات: ٧ - ٨] .

كما أشار إليه النبي ﷺ في قوله: «**ذَاقَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا ورَسُولًا**»(١).

ويقول علماء النفس: إن للشعور ثلاثة مظاهر هي: الإدراك، والوجدان، والنزوع.

ونقول نحن: من أراد الله به خيرا جعل إدراكه يقوم على العمق، وجعل نزوعه يقوم على الشوق.

إننا عندما نرمق عظماء المؤمنين نجدهم أوتوا من عمق العاطفة بقدر ما أوتوا من صدق المعرفة، ومن ثم يكون نزوعهم حاضرا ممتدا.

وتدبر الآيات في وصف موسى عليه السلام ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَـٰمُوسَىٰ ۝٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ [طه: ٨٣ - ٨٤].

وتدبر حرارة الحب ونزوع الشوق فيما روي من أن النبي ﷺ كان يعرض ثوبه لبواكير المطر ويقول: «**هَذَا مَطَرٌ حَدِيثُ عَهْدٍ بِرَبِّهِ**»(٢).

أفكذلك نرى جماهير المتدينين؟ أو هل يرتفع علماء الدين إلى هذا المستوى؟

الدين عقل وعاطفة:

في قراءاتي وتجاربي رأيت ناسا على حظ حسن من علوم الشريعة

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٣٤/ ٥٦) عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٨٩٨/ ١٣) عَن أنس.

وأحكام الفقه، بيد أن قلوبهم خاوية من الإحساس اللطيف، والرغبة في التسامي والحب للآخرين، كما رأيت ناسا في مشاعرهم لطف، وفي مسالكهم إيثار لكن يشينهم قصور علمي وفقه قليل في شرائع الإسلام.

كلا الصنفين حسن ومقصر، والواقع أن العالم الذي لا وعي له بلاء على الإسلام وعائق عن الانتفاع به.

فالدين عقل وعاطفة، وعلم وأدب ونظر صائب، وبصيرة نيرة، ومن سوء حظ الثقافة الإسلامية فقهاء لا دراية لهم بعلم القلوب ونهج التربية، ومتصوفين صفر الأيدي من قوانين الشريعة وضوابطها، والراسخون في العلم سالمون من هذه الآفات ومن يقرأ لابن تيمية وابن القيم والإمام الغزالي وابن الجوزي والرازي وغيرهم يرى رجالا على درجة رفيعة من جيشان المشاعر، والاستبحار العقلي.

مع كبار الأئمة:

اقرأ معي للإمام المدقق ابن القيم وهو يحدو النفوس إلى الدار الآخرة ويقول لكل سائر على الدرب:

فحي على جنات عدن فإنها منازلك الأولى وفيها المخيم

أو إلى أبي حامد الغزالي الذي أشرف على تفكير أرسطو وأفلاطون، واستبان عثراته وكشف ما اعوج منه، ومع هذا الاستعلاء العقلي فهو يتحدث عن استدامته لذكر الله حتى إذا سكت لسانه ظل الفؤاد على حالته يلهج ويردد ولا ينقطع له صدى.

وعندي أن تفاوت هؤلاء الأعلام في آرائهم يرجع إلى تفاوت العلل

التي عالجوها وتشخيص الأسباب التي أدت إليها ذلك إلى جانب ما بين طبائع البشر من خلاف في الأذواق .

القدر المقبول والمطلوب :

والقدر المقبول بل المطلوب من التصوف يكون في الميادين الآتية :

١- في دراسة البواعث النفسية وفرض رقابة صارمة على بواعث العمل حتى تصفو النية من كل كدر وتخلص لله سبحانه .

ذلك أن الملاحظ على النفس الإنسانية أنها شديدة المكر واسعة الحيلة ، وأنها قد تحقق الهوى عن طريق ظاهره الطاعة ، وباطنه إشباع الهوى .

٢- التمرس بمقام الإحسان وطول البقاء في نطاق أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

ولا يتم ذلك بتألق ذهني في خلوة بعيدة ، وإنما يتم مع التقلب في البلاد والتعرض للشدة والرخاء والصحة والمرض والنصر والهزيمة .

٣- تتبع آيات الله في الأنفس وفي الآفاق ، ومدارسة الحاضر والماضي ، ومحاولة الارتقاء إلى مستوى الكتاب الكريم والسيرة الشريفة ، فإن الأبواب كلها مؤصدة أمام من حرم التأسي بمحمد ﷺ فهو إمام الأتقياء وسيد المرسلين .

مع ابن عطاء الله :

وفي هذا المجال أذكر أنني أفدت إفادة عظيمة من ابن عطاء الله

السكندري ، وقد شرحت جملة من كلمه في كتابي الجانب العاطفي من الإسلام .

وإذا كان سعد زغلول قد وصف أدب الرافعي بأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم فإني - مع إكباري للرافعي وأدبه - أرىٰ أن كلمة سعد أصدق ما تكون في حكم ابن عطاء الله رحمه الله ، وأعرف أن ناسا سيقولون إنني خلطت بين تعاليم الإسلام وشمائل الأتقياء من ناحية ، وتراث الصوفية وتعاليم رجالهم من ناحية أخرىٰ .

ولو صدق هؤلاء فسيكون الخلاف علىٰ أسماء لا علىٰ مسميات ، ويكون سهلا ، والمهم أن تتوقد روحانية الإنسان من خلال كيانه المادي وتشرئب عواطفه إلى السماء بدل أن يخلد إلى الأرض ، وأن يطالع أمجاد الألوهية فيما يرىٰ ويسمع ، ويتجافىٰ عن دار الغرور ، ويطمئن إلىٰ دار الخلود . اهـ .

قلنا : وحول كل هذا تدور دعوة عشيرتنا وطريقتنا .

التصوف وعلماء الأزهر بين التأييد والتنديد

نحن نحترم دائما آراء من يخالفوننا ونعذرهم باقتناعهم كما نعذر أنفسنا باقتناعنا ما دام هذا وهذا في طريقه المحدود بين العلم والأدب .

وقد نشرت مجلة التصوف الإسلامي حديثها مع فضيلة الأستاذ الشيخ موسىٰ شاهين ، وقد أنكر أن التصوف من الإسلام ، مادام لم يأت ذكره بلفظه في القرآن ، أو ما معناه هذا ، ولم ترد عليه مجلة التصوف الإسلامي ،

فرأينا أن يكون ردنا عليه من كلام زميليه الأخ الدكتور الحسيني أبو فرحة عميد كلية أصول الدين ، والأخ الدكتور محيي الدين الصافي عميد كلية الشريعة ، ونحن هنا ننقل النص الذي نشرته لهما مجلة اللواء الإسلامي ، ونكتفي بهذا في هذا المجال ، ولنا بإذن الله عودة حتىٰ يعلم من لم يكن يعلم أن التصوف هو الإسلام الكامل الصحيح .

أولا : نص السؤال :

الطالب : صلاح إبراهيم :

لماذا ندرس في الأزهر مادة التصوف الإسلامي بالرغم من أنه لا توجد في القرآن ولا في السنة كلمة تصوف؟

ثانيا : إجابة عميد كلية أصول الدين :

د/ الحسيني أبو فرحة :

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله ، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا رسول الله . وبعد إن كلمة (**تصوف**) كلمة جديدة[1] بمعنىٰ أنها لم تكن موجودة في عهد رسول الله ﷺ وبعده ، وقد استعلمت بدلا من كلمة (**إحسان**) التي كانت بهذا المعنىٰ في عهد الرسول ﷺ أي أنها جديدة اللفظ قديمة المعنىٰ .

تعريف الإسلام والإيمان والإحسان :

---

(١) قال السيد الرائد ﷺ : الواقع أن الكلمة قديمة جدا حتىٰ قبل البعثة ولكن استعمالها هذا الاستعمال الاصطلاحي هو الجديد .

فقد سئل سيدنا رسول الله ﷺ عن الإسلام فقال : أن تشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا وسئل عن الإيمان فقال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره ، حلوه ومره . وسئل عن الإحسان فقال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك .

منزلة الولي عند الله :

فالتصوف الإسلامي هو الإحسان يعنى العبادة الكاملة ، والإسلام قد وضع منهجا للتصوف الإسلامي كما ورد ذلك في الحديث القدسي في صحيح البخاري فقد روى ﷺ عن رب العزة : «**مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ ، وَلا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ التي يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ التي يَمْشِي بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَ بِي لأُعِيذَنَّهُ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ في شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْـمُؤْمِنِ ، يَكْرَهُ الْـمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ**»(١) .

منهج التصوف الإسلامي :

في هذا الحديث القدسي يذكر رب العزة منهج الولاية أو منهج التصوف الإسلامي ، وهو يتكون من أمرين أداء الفرائض التي

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) عن أبي هريرة .

افترضها الله ﷻ، ثم الإكثار من نوافل العبادات، فالصوفي هو إنسان يؤدي الفرائض كما أمر الله، وهو إنسان يكثر من نوافل العبادات.

فإذا كانت الفريضة لها شكل وصورة فلها روح كذلك، ففريضة الصلاة من حيث الشكل تعلمون جميعا أركانها وسننها، أما من حيث الروح، فكما سمعتم إذا دخل المسلم الكامل في صلاته فإنه يكون كامل الحضور فيها بقلبه بين يدي الله ﷻ، ومن هنا تعتبر صلاة المؤمن الكامل معراجا لروحه.

الصلاة معراج الأرواح:

فإذا كان رسول الله ﷺ عرج به ليلة الإسراء والمعراج، ليلة فرض الصلاة عرج بجسمه وروحه، فإن الصلاة التي فرضت في تلك الليلة على المسلمين هي معراج لكل مسلم ومسلمة.

معراج للروح حيث يلتقي العبد بالرب، لكي يزيل عن القلوب أدرانَها، ويطهر النفوس من أرجاسها.

خمس دقائق عبادة:

إنك مثلا لو جمعت الدقائق التي تؤدي فيها فرائض الصلوات لوجدتها في المتوسط ثلث ساعة في اليوم والليلة، ثلث ساعة تؤدي فيها سبع عشرة ركعة مفروضة، وغالبا لا يحضر قلبك فيها إلا في حدود خمس دقائق موزعة على السبع عشر ركعة، هذا إذا كان لك حضور في الصلاة بين يدي الله سبحانه وتعالى، فأنت إذن صلاتك ناقصة وتحتاج إلى تكميل، من هنا كانت السنن لتكميل الفرائض، ومن هنا كان الإكثار من نوافل

العبادات ، وكان هناك قيام الليل ، وصلاة الضحى وصلاة التراويح .

كل فريضة لها نافلة :

وقد سمعنا شيوخنا في الأزهر الشريف يعلموننا أن كل فريضة لها نافلة من جنسها ، وأن الركن الأول من أركان الإسلام هو الشهادتان ، فالإكثار من ذكر الله ﷻ هو نافلة الشهادتين ، إن الله تبارك وتعالى يقول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٤١-٤٢] .

إن المولى عزوجل يطلب من المؤمنين أن يذكروه كثيرا ، والأمر للوجوب أولا فيجب ، إلا أن يصرفنا عنه صارف .

سلم بين السماء والأرض :

أيها المسلم التصوف الإسلامي هو مقام الإحسان الذي جاء في الحديث الشريف ، التصوف الإسلامي سلم بين السماء والأرض عليه المسلمون جميعا ، وفيه من الدرجات ، وفيه من السعة ما يسع المسلمين جميعا ، فإن أهل التصوف الحقيقي يقفون على الدرجة العليا منه التي تلي السماء مباشرة ، إنهم قوم يعيشون في رحاب الإيمان الكامل بمعية الله ﷻ ﴿ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ ﴾ [الحديد : ٤] ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْ ﴾ [المجادلة : ٧] يؤمنون بمعية الله ، ومنهم من يأتنسون بالله ، ويؤمنون برقابة الله ﷻ .

ومن هنا فإنهم لا يجدون مكانا ولا زمانا لمعصية ، ولا تنشط جوارحهم

لمعصية، ولا تغفل قلوبهم عن ذكره تبارك وتعالى، وألسنتهم رطبة بذكر الله سبحانه وتعالى. انتهى.

ثالثا: إجابة عميد كلية الشريعة:

د/ محيي الدين الصافي

إضافة بسيطة لما قاله الدكتور الحسيني إن كلمة تصوف وإن كانت لم ترد في القرآن الكريم، ولا في الحديث، إلا أن علوم التصوف ومقاماته وأحواله وردت في القرآن الكريم، وفي السنة النبوية الشريفة، فمن المعاني المنسوب إليها كلمة تصوف أهل الصفة، وأهل الصفة كانوا من فقراء الصحابة رضوان الله عليهم، انقطعوا لسماع الحديث من رسول الله ﷺ ولسماع العلم، وكانوا يأخذون من الصدقة، يعني لا يشتغلون، وانقطعوا انقطاعا تاما في هذه الصفة يعبدون الله سبحانه وتعالى، ويتفرغون لرسول الله ﷺ لسماع حديثه، وسماع القرآن منه، والتبليغ إلى الناس.

الرسول يقر سلوك أهل الصفة:

والرسول ﷺ أقر أهل الصفة على سلوكهم هذا، وكان يعطيهم من الصدقة، وكان يدعو لهم، لأن بعض الناس أو كثيرا من المسلمين في ذلك الوقت انشغلوا بأقواتهم، بالسعي إلى الرزق، لكن أهل الصفة انقطعوا للتلقي والتبليغ عن الرسول ﷺ وسجلوا أحاديثه، ومنهم أبو هريرة رضي الله عنه راوي الحديث عن الرسول ﷺ فكانت وظيفتهم التعلم والتعليم، وحفظ الشرائع والقرآن.

مقامات الصبر والتوكل والتوبة:

كما أن هناك مقام الصبر، مقام التوكل، مقام التوبة، كل هذه المقامات التي ذكرها الصوفية في كتبهم مأخوذة من القرآن الكريم، نصوصها موجودة في القرآن الكريم وفي الأحاديث النبوية، كل شيء ورد في كتب التصوف ورد مثله في القرآن والسنة، وفي أقوال المفسرين لكتاب الله بل بعضهم فسر القرآن بالإشارات.

كلمة تصوف نفسها لم ترد، لكن كل ما ورد في كتب المتصوفة يرجع إليه، مثل كتب حجة الإسلام الإمام الغزالي وغيره، فقد ذكرت هذه الكتب أن المتصوفين يسيرون على الدين ولا يتخطونه مطلقا.

ولكن هناك بعض المتصوفين المنحرفين كالذين قالوا بوحدة الوجود، والذين قالوا بالاتحاد بين الله سبحانه وتعالى ومخلوقاته، هؤلاء منحرفون عن الطريق، وقد لفظهم المتصوفون السنيون الحقيقيون، ولم يبق لهم وجود. انتهى.

ما هو الحديث الضعيف؟
وما موقف الصوفية منه؟

١ - تمهيد:

من البدع المستهجنة التي تجري بكل بساطة على ألسنة كثير من المغرمين بالانتساب إلى السنة والتوحيد والتجديد مجازفتهم بالقول بضعف الحديث على معنى أنه باطل مكذوب، ويعتبر العمل به رجسا وفسقا.

وليس كذلك العلم، فإن للحديث الضعيف مجالا شرعيا يدور فيه، ومن ظلم العلم والدين أن يؤخذ الحديث الضعيف بحكم الحديث المكذوب، ذلك أن الحديث الضعيف حديث لم تستكمل فيه شروط الصحة، أي أن فيه صحة لكنها غير كاملة، ولهذا عده العلماء من قسم المقبول، فهو ليس من قسم المرفوض على أي حال، ولهذا استحب بعض العلماء العمل به في موضعه.

وأنا أعلم أن هذا الكلام لن يرضي بعض الناس، ولكن إرضاء الحق متعين ولو غضب كل الناس.

٢ - الكتب الصحاح كثيرة:

إن الأحاديث ليست هي وحدها ما جمعها كتاب الإمام البخاري أو الإمام مسلم فقط، ولا أعرف في دين الله نصا ولا إشارة تدل على حصر الصحيح فيهما بالتحديد، فالتحدي بهما نوع من العصبية والإيهام بالعلم بلا علم.

جاء في هدي الأبرار على طلعة الأنوار، وفي إضاءة الحالك للإمام ابن الحاج العلوي، وفي الجامع لصفي الدين الهندي، وما حرره صاحب المنهل اللطيف وغيره ما جملته: إن الكتب التي كل ما يعزى إليها صحيح باتفاق جمهور المحدثين هي:

أ- البخاري. ب- مسلم.

ج- الموطأ لمالك. د- المنتقى لابن الجارود.

هـ- صحيح ابن خزيمة. و- صحيح أبي عوانة.

ز- صحيح ابن السكن. ح- صحيح ابن حبان.

ط- مستدرك الحاكم بعد استظهار الذهبي والعراقي، وإن كان في استظهار الذهبي إغراق واضح، وأضاف بعضهم مسند أحمد

ثم المسخرجات، وهي معروفة للعلماء.

فهذه الكتب المعروفة للعلماء ليس فيها إلا الصحيح، أما ما عدا هذه الكتب ففيها الصحيح والحسن والضعيف.

والقاعدة: ألا يقدم أحد على البخاري في العزو، وإن كان الحديث فيه وفي مسلم، ساقوا لفظ مسلم لمبالغته في تحري اللفظ النبوي.

فالتحدي بلزوم ما جاء في البخاري ومسلم وحدهما على أن الصحيح ما فيهما فقط ليس من العلم ولا من الدين.

٣- أقسام الحديث:

واتفق أهل هذا العلم على أن أهم أقسام الحديث ثلاثة :

أ- الحديث الصحيح ، وهو أعلاها .

ب- الحديث الحسن ، وهو أوسطها .

ج- الحديث الضعيف ، وهو أدناها لأنه اختل فيه شرط من شروط الحسن .

أما الحديث الموضوع المكذوب فهو خارج عن الدائرة التي نتحدث فيها الآن ، لأنه رجس ساقط بالحكم وبالذات قولا واحدا .

والضعيف قسمان :

القسم الأول : ينجبر ضعفه لاعتضاده بوروده من طرق أخرى ، إذا كان الراوي ضعيف الحفظ ، أو كان الضعف للإرسال أو الستر ، فيرتفع إلى درجة الحسن لغيره ، ويكون من جملة المقبول ويحتج به ، حتى في الأحكام .

القسم الثاني من الضعيف : ما لا ينجبر ضعفه وإن كثرت طرقه ، وهو الواهي ، إذا كان الراوي فاسقا أو متهما بالكذب ، قال علماؤنا : إن مثل هذا الحديث إذا اعتضد وكانت له شواهد ومتابعات أخرى فإنه يرتقي من رتبة الحديث المنكر أو ما لا أصل له ، وعندئذ يجوز العمل به في فضائل الأعمال ، أي فيما عدا :

أ- العقائد　　　　ب- الأحكام

وأضاف بعض العلماء :

ج- التفسير أيضا .

فيجوز إذن اعتبار الحديث الضعيف في كافة أنواع الترغيب والترهيب

والآداب ، والتواريخ ، والمناقب ، والمغازي ونحوها ، وهو ما نقل الإجماع عليه الإمام النووي ، وابن عبد البر وغيرهما ، بل نقل النووي استحباب العمل به ، والاستحباب من جملة أصول الدين وأحكام الشرع الشريف .

قلنا : ولكن بشرط ألا يشتد ضعفه ، وأن يكون أساسا مندرجا تحت عموم قاعدة شرعية كلية ، وألا يعارضه حديث صحيح . وهو رأي ابن حجر والسخاوي وغيرهما .

٤ - مزيد من البيان :

روى أبو الشيخ ابن حبان في كتاب النوائب عن جابر مرفوعا : من بلغه عن الله ﷻ شيء فيه فضيلة فأخذ به إيمانا به ، ورجاء لثوابه أعطاه الله ذلك ، وإن لم يكن كذلك .

وهذا الحديث أصل كبير في أحكام الحديث الضعيف .

وقد نقلوا عن الإمام أحمد أنه كان يأخذ في الأحكام بالحديث الضعيف إذا جبر بالشهرة ، كما كان يقدم الحديث الضعيف على الرأي .

وكذلك الأحناف يقدمون الحديث الضعيف على الرأي كما نقله الزركشي وابن حزم وغيرهما .

ومذهب أبي داود هو مذهب الأحناف والحنابلة في تفضيل الحديث الضعيف على الرأي إذا لم يكن في الباب غيره .

ولم يخالف في الإجماع على العمل بالضعيف إلا ابن العربي ، على ما نقله ابن الصلاح ، ولمخالفته هذه وجوه يرد عليه منها أو يحمل قوله

عليها ، فلا تعارض بينه وبين الإجماع بجواز واستحسان العمل بالضعيف في موضعه .

٥ - الصحيحان والضعيف والمضعف :

وهناك قسم من الحديث يقال له المضعف ، وهو الذي ضعف رجاله قوم ووثقهم آخرون ، وهذا القسم من الأحاديث يقع بين الصحيح والضعيف ، أي أنه دون الصحيح وفوق الضعيف ، فهو أخو الحسن ، أو هو نوع عال منه ، ولهذا أجازوا دخوله الكتب الصحيحة .

وإنما تذكر هذه الأحاديث المضعفة في الصحاح على سبيل المتابعة والاستشهاد ، أو على الإسناد في الأعم الأغلب .

وقد انفرد البخاري بالإخراج دون مسلم لأربعمائة وبضعة وثمانين رجلا ، تكلم بالضعف في ثمانين منهم ، وأما رجال مسلم فستمائة وعشرون رجلا ، تكلم بالضعف في مائة وستين منهم ، وكل هؤلاء وثقهم آخرون كثيرون .

قال ابن الصلاح : يقطع بصحة ما أسنداه البخاري ومسلم أو أحدهما ، سوى أحرف يسيرة تكلم عليها بعض أهل النقد لا كلهم .

قلنا : فهذه الأحرف من قسم المضعف الذي يجوز دخوله الكتب الصحاح بلا معابة كما بينا .

ثم إن الحكم على الحديث بالصحة أو الحسن أو الضعف إنما هو الظاهر الإسناد لا لما هو في نفس الأمر ، فنفس الأمر هو اليقين المطلق

الذي لا يعلمه إلا الله وحده، ولذلك قالوا: كم من الحديث صحيح هو في نفس الأمر ضعيف، وكم من حديث ضعيف هو في نفس الأمر صحيح، وإنما علينا التحري والاجتهاد قالوا: لأنه يجوز الخطأ والنسيان على العدل الصدوق كما يجوز على غيره، فاليقين هنا اعتباري محض.

ورواية العدل عن الضعيف تعديل له عند الأصوليين.

قال صاحب المنهل: وقياسه أنه تصحيح له أيضا عندهم.

٦- السادة الصوفية والحديث الضعيف:

ولعل إخواننا الكتاب والمرشدين بعد هذا يتورعون من حمل المجازفة بإطلاق حكم الضعف على الحديث يريدون بذلك أنه موضوع مكذوب مفترى لا ينبغي الانتفاع به ولا احترامه ولا تناقله، ولا الاستئناس بلفظه ولا معناه، وأنكر المنكر ألا تتخفف أزمة هؤلاء الإخوة إلا حين يتهمون الصوفية بالاقتصار على الأخذ بالضعيف حتى في المقامات التي أجمع على استحبابها علماء الحديث في المشارق والمغارب، ومن كبار علماء الحديث عدد كبير من الصوفية الراشدين.

قال ابن عبد البر: أحاديث الفضائل لا نحتاج فيها إلى من يحتج به[١].

ولفظ ابن مهدي في المدخل: إذا روينا عن النبيﷺ في الحلال والحرام والأحكام شددنا في الأسانيد وانتقدنا الرجال، وإذا روينا في الفضائل

(١) «فتح المغيث» (٢/ ٢٨٨).

والثواب والعقاب تساهلنا في الأسانيد، وتسامحنا في الرجال[١].

ويقول الإمام الرملي: الأحاديث الشديدة الضعف - يعني الواهية - إذا انضم بعضها إلى بعض يحتج بها في هذا الباب - يعني الفضائل والرقائق، والمواعظ والمناقب والتواريخ ونحوها - وبهذا أخذ المنذري في الترغيب والترهيب وسائر المحققين.

وهذا الذي أخذ به سلف المتخصصين في علم الحديث هو ما أخذ به بعض الفقهاء والصوفية، وبه نأخذ، فكثيرا ما نجد في متن الحديث الضعيف حكما ومعارف ورقائق، وآدابا تحمل كلها روائح النبوة، والحكمة ضالة المؤمن.

وهذا ما جاء عن السلف كما قدمنا كالثوري، وابن الصلاح، وابن عيينة، وابن حنبل، وابن المبارك، وابن مهدي، وابن معين، والنووي، وبوب له ابن عدي في الكامل، والخطيب في الكفاية[٢].

وفي عصرنا هذا رأينا - مع الألم الشديد - من يرفض أحاديث البخاري لأنها لا تتفق مع مفهومه، ولا تتناسب مع مزاجه باسم الانتصار للسنة، بل رأينا من ألف هذا الباب، وليس هو من أهله، وقد وجد من أعداء الإسلام من يعينه على طباعة كتابه هذا وتوزيعه بالمجان في كل مكان رغم ضخامة تكاليفه التي تنادي بالعمالة وسوء النية.

(١) «فتح المغيث» (٢/ ٢٨٨).

(٢) راجعه في التنبيهات التمهيدية في بداية هذا الكتاب.

ولولا لطف الله ووقفة مجلة المسلم وبعض علماء الحديث لدخل الشك في كل ما روى البخاري فضلا عن غيره، ولأشرفت السنة الشريفة الثابتة علميا على فتنة وقاها الله إياها، من جانب أدعياء الانتصار للسنة ومحتكري العلم بها دون خلق الله.

هذا وقد خرج النسائي في السنن الصغرى والكبرى لكل من لم يجمع على تركه، أي من لا يروي الحديث إلا من جهته، ما لم يكن كذابا.

وليس فيما وقع لنا مما يرويه السادة الصوفية سند فيه رجل كذاب، وكفى بهذا دليلا على جواز العمل بالضعيف في موضعه، وموقف السادة الصوفية منه.

ونستغفر الله ونتوب إليه، وهو الموفق المستعان.

معلومات مبدئية عن الطريقة المحمدية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفىٰ، وسلام علىٰ عباده الذين اصطفىٰ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

١- الطريقة المحمدية طريقة صوفية سلفية شرعية مستنيرة معترف بها رسميا، أساسها علم الكتاب والسنة، وهي تنسب إلىٰ سيدنا محمد ﷺ بسلسلة الإمام الشاذلي، ظاهرا من طريق الأشياخ، وباطنا من طريق التلقي الروحي عن الحضرة النبوية المشرفة و ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

٢- سند الطريقة: شاذلي أصيل من طريق الإمام ابن ناصر الدرعي الشاذلي الذي ينتهي إليه نسب أكثر فروع السادات الشاذلية المباركة، فهي أخت شقيقة لكل السادات الشاذلية الشرعية على اختلاف الفروع والتسميات، وسندها متصل بجميع إسنادها سلوكا وتبركا ولله الحمد، راجع إجازة الطريقة، والدليل المجمل، والبيت المحمدي.

٣- وللطريقة أنساب أخرىٰ للتيمن والتبرك والسند متصلة بالأقطاب الأربعة: الإمام الرفاعي، والجيلاني، والبدوي، والدسوقي، ثم بالسادات الخلوتية، والنقشبندية، والتجانية، والكتانية وغيرهم من المعتصمين بالكتاب والسنة، ولهذا نحن نحب جميع الطرق الشرعية ونتبرك بها وبأشياخنا - أحياء ومنتقلين - ونعتبر أننا جميعا أبناء

عمومة روحية في الله بلا تعصب ولا تفريق، ولا نزكي على الله أحدا.

٤- وكما لا نفرق بين أحد من رسله تعالى لانفرق بين أحد من أوليائه الصالحين، ولكننا نترك الحكم بالأفضلية بينهم إلى الله الذي لا يعلم الغيب سواه، فإن المقتحم على الغيب كذاب، وإن كنا لا نفضل على أشياخنا أحدا بحكم واجب الأبوة المقدسة، وحقوق الأدب والوفاء، وأمانة الدعوة، فإننا لا ندعي أن الله لم يعط غيرهم ما أعطاهم، ففضل الله ليس له حدود، وليس وقفا على شخص محدود، وقصر عطاء الله على شخص لا غيره من العباد تحكم جاهلي يبرأ منه التصوف والعلم والدين ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

٥- ليس في طريقنا طبل ولا زمر ولا رقص، ولا مواكب ولا مظاهر ولا رايات ولا أوشحة ولا بدع، ولا متاجرة بالكرامات والخوارق، ولا عمائم ملونة ولا شعوذة، ولا تبله أو تبطل أو تعطل، ولا قول برفع التكليف، أو التفرقة بين الشريعة والحقيقة، أو القول بالحلول، أو الاتحاد، أو الوحدة المحرمة، إنما هو الكتاب والسنة، وعمل السلف الصالح نية وقولا وعملا وفكرا وسلوكا بقدر الإمكان.

٦- طريقتنا هذه للخواص والقادة أساسا، ثم هي لصفوة الجماهير الراشدة ولطلاب الحقيقة والنور والدار الآخرة، فليست هي للحشد ولا المكاثرة والمفاخرة، ولا الإعلام والمراءاة والدعاوي، فإن من أهدافنا إحياء ربانية الإسلام وحكمه في الفرد والمجتمع، وبعث قوي الروح الإسلامية في كافة مطالب الحياة واتجاهاتها الخاصة والعامة، وليس هذا بالأمر اليسير.

٧- أساس طريقتنا العلم بالدين وأحكامه، والثقافة العامة المتجددة وتحري العزائم جهد الطاقة، والبدء بإصلاح الباطن، وجهاد النفس والشيطان والإقبال على العبادة، والبذل في سبيل الله والدعوة، والحب الصادق لله ورسوله وآل بيته ومن والاهم، ثم للصوفية الشرعيين ولا علاقة لنا بأي تصوف يخالف الشريعة.

٨- ليس أكذب ممن ادعي الولاية والتصرف في الكون، فإن ولي الله الحق لا يعلن عن ولايته أبدا، وإلا تعرض للسلب والطرد، وكان من أولياء الشيطان، وكرامة الأولياء حق ولكن بشروطها المقررة في دين الله، بلا إعلان ولا دعاية ولا تجارة.

٩- من خالفنا فليس منا، وإن انتسب إلينا، ومسئوليته في كل ما يأتي عليه لا علينا، إن دعوتنا حب وخلق، وعلم وعمل، وعبادة ودعوة، ودين ودنيا، وعلاقة بالله ورسوله ﷺ ومجاهدة لا تفتر ولا تنتهي في يسر وسماحة.

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع — الصفحة

في هذا الكتاب

* أَرْسَى الشيخ ﵁ قواعد التصوف الصحيح .
* سلك فيه طريقة الفقهاء في الاستدل بالكتاب والسنة .
* ناقش مشروعية الأحزاب والأوراد .
* ناقش مشروعية الخلوة وأسرارها وفوائدها .
* ذَكَرَ أهم النوافل عند الصوفية .
* تكلم عن فضل إحياء ليلة النصف من شعبان .
* تكلم عن اتخاذ الشيخ مع عدم التعصب له .
* ناقش قضية الولاية والأولياء وقصة الخضر وموسىٰ .
* بَيَّنَ الفرق بين الكرامة والسحر والاستدراج .
* ناقش قضية التوسل والوسيلة .
* حارب بدع الموالد ومنكراتها .
* دعا إلىٰ إصلاح التصوف .
* ذكر آراء العلماء السابقين والمعاصرين في التصوف .
* ناقش قضية الحديث الضعيف وموقف الصوفية منه .
* بَيَّنَ أهم معالم الطريقة المحمدية .